

الإسلام في المغرب الأندلس

تأليف

أ. ليثي بروقيسال

ترجمة

الدكتور
المؤلف
الشيخ عبد العزيز بن صالح و محمد بن عبد الله بن أبي

راجعه

الدكتور لطفي عبد المجيد

١٩٩٠

الناشر

مكتبة شبابك للطباعة

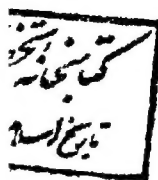
ب. ٢٨٣٩٤٧٩ اسكندرية

الإسلام في المغرب والأندلس

الإسلام في المغرب والأندلس

تأليف

١. ليثي پروقنسال



ترجمه

الأستاذ

محمد صلاح الدين جلمى

و

الدكتور

السيد محمود بن العزيز سالم

راجعہ

الدكتور لطفي عبد الباق

شبكة كتب الشيعة

١٩٩٠



الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

ت : ٤٨٣٩٤٧٢ إسكندرية

shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

للمغرب والأندلس كيان خاص بهما ، جعل منهما جزأين متماثلين لعالم واحد كان يعرف في القديم عند المشاركة بالمغرب الإسلامي ، وإن كانوا قد قصرُوا اسم المغرب بالذات على الرقعة التي تمتد من مليانة إلى جبال السوس الأقصى التي وراءها البحر المحيط .

فقد ظل المغرب والأندلس يتعاطيان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة تختلف عن حضارة المشرق ، وما زال الأمر بينهما على هذا النحو إلى أن زال سلطان الإسلام عن الأندلس ، فأقبل المغرب على تراثها يتغذى منه ويرتوى في أسلوب حياته وطريقة تفكيره ، بحيث صارت البيئة المغربية أشبه شيء بالوثيقة الحية لإسبانيا الإسلامية .

واستهل العصر الحديث والمغرب لا يكاد يعرفه إلا فئة قليلة من الباحثين في الشرق ، ولا يرد على المخاطر إلا حين يذكر في معرض الجهاد والأحداث ؛ أما الأندلس فكانت مثارا للذكريات تغذيها روح رومانتيكية أصلها ثابت في النفس العربية .

وضرب الدهر ضرباته ، وزال ما كان قد ران على القلب العربي ،
نفق جناح العروبة الأيسر مع جناحها الأيمن ، وكان لابد حينئذ
من إدراك حقيقة الحياة المغربية بعد اتصالها بحياة العالم العربي ، وإدراك
الوجود الأندلسي باعتباره جزءاً من تراث الإسلام .

وللمستعربين فضل لا ينكر في تجلية الحضارة الأندلسية
والمغربية ، فقد استهوى تراث الإسلام فئة عاملة من الباحثين ، كان من
روادهم في هذا الباب كُوديرا الإسباني ودوزي الهولندي .

ثم تعاقب على حقل الدراسات الأندلسية والمغربية باحثون آخرون
من أعلامهم في وقتنا هذا غرسية جوميث ولينيرو وفنسال : أولهما
في الشعر والأدب وما يتصل بهما ، وثانيهما — وهو صاحب هذه
الفصول — في التاريخ والحضارة .

* * *

وتأليف ليقيرو وفنسال في حضارة المغرب ترجع إلى سنة ١٩١٧ ،
فقد ظهر حينئذ أول أبحاثه (١) ، ثم لم يلبث أن لحق بزمرة
المستشرقين الفرنسيين الذين أصدروا مجلة هسبريس Hespéris في سنة

(١) انظر قائمة بهذه الأبحاث في فصل عقده غرسية جوميث بمجلة الأندلس
AJ-Andalus, 1956, vol xxi, p. iv. وكان جل اعتمادنا على هذا الفصل
فيما أوردناه في هذه المقدمة عن حياة ليقيرو والمجلة ومصنفاته .

١٩٢١ ، وفيهم يومئذ الأثرى هنرى نراس والمغوى جورج كولان ؟
واختص لبقى بالتاريخ ومنعلقاته ، وأخرج فى تلك الحقبة المجلد الأول
من المخطوطات العربية فى الرباط : Les manuscrits arabes de Rabat
وبحثا عن نسخة ملوكية من المصحف الشريف ترجع إلى القرن الرابع عشر
Note sur un Coran royal du xiv siecle ؛ وكتابا فى مؤرخى
Les historiens des Chorfa الأسراف السجلماسيين والعلويين
وهو من أجل مصنفاته ؛ ودراسة عن مخطوطتين حديدين لىكتاب
Deux nouveaux mss de La «Rawdai al-nasrin» روضة النسرین
وبحثا عن نسخة من «كتاب العبر» التى أهداها ابن خلدون لمكتبة القرويين
Note sur l'exemplaire du « kiâb al-'ibar » offert فى فاس
par Ibn khaldoun à la bibliotheque de al-karawiyin a Fés.
ولمات هنرى باسبه فى سنة ١٩٢٦ خلفه لبقى فى إدارة المجلة وإدارة
معهد الدراسات العليا المراكشية .

أما اتصاله بالاندلس وتراثه فيؤرخه صديقه غرسيه جوميث
بالسنة التى قدم فيها إسبانيا ليضع فهرسا عن المخطوطات العربية
فى الإسكوريال يكمل به فهرس درنبورج ، وكان من ثمرة هذا العمل
الجزء الثالث وقد ظهر فى باريس سنة ١٩٢٨ .

وأكثر ما كتبه لبقى عن الأندلس أبحاث اعتمد فيها على حقائق
تضمنتها مخطوطات غير منشورة ، مما أضفى عليها جدة وأصاله ، يخرج

من النص الذى يقف عليه بالحقيقة الجديدة التى تزيل إبهاماً أو تكشف غامضاً فى الموضوع الذى ينصب عليه البحث .

وكان الرجل موافقاً فى المخطوطات التى يعثر عليها ، لايسوقه جده إلا على السمين منها ، وهذا مما عرف عنه واشتهر ؛ قال لي يوماً الأستاذ منتدث بيدال شيخ الباحثين الإسبان فى دراسات العصور الوسطى ، وكنا نتحدث عن الجزء الذى وقف عليه ليثقى من المقتبس لابن حيان : وهذا إنسان يضرب الأرض برجله فتخرج له المخطوطات المخبوءة ، ومن أجل ما وقف عليه فى هذا الباب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق نشرها فى كتابه ، وثائق لم تنشر فى تاريخ الموحدين ، Documents inédits d'histoire almohade . (سنة ١٩٢٨) ؛ ووصفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحيمرى ، والجزء الثالث من البيان المغرب ، لابن عذارى المراكشى (سنة ١٩٣٠) ؛ ومذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة المسماة بكتاب التبيان (نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥) ، كما وقف على قطعة كبيرة من كتاب المقتبس لابن حيان أطلعنى عليها وأنا فى باريس فى صيف عام ١٩٥٣ ؛ وثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحاسب (نشرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥) تشتمل على رسالة ابن عبدون

في القضاء والحسبة ، ورسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحاسب ، ورسالة عمر بن عثمان بن العباس في الحسبة .

وكان يرجو أن يجمع من أمثال هذه النصوص جملة تنضج بها الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس ، فكانت هذه الرسائل الثلاث الحلقة الأولى من سلسلة الوثائق التي وسما بعنوان « وثائق عربية لم تنشر عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge » وكان من ثمرات اهتمامه بهذا الجانب الفصل الذي كتبه عن الحياة الاقتصادية لإسبانيا الإسلامية في القرن العاشر La vie économique de l'Espagne musulmane (مجلة Revue Hispanique) وقد توسع في هذا الموضوع بعد ذلك فأخرج كتابه الذي عنوانه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر : النظم والحياة الاجتماعية : L'Espagne Musulmane au x^e siècle : Institutions et vie sociale (نشر في سنة ١٩٣٢) .

ويطول بنا القول لو عددنا الآثار التي خلفها ليني بروفنسال ، ولكن إن جاز لنا أن نضرب عن ذكر بعضها فلا يجوز أن نغفل كتابه في تاريخ إسبانيا الإسلامية Histoire de l'Espagne musulmane ، في ثلاثة أجزاء كبيرة ، انتهى فيه إلى عصر الخلافة ، وكان في نيته أن يمضي في تاريخ إسبانيا الإسلامية بعد تلك الحقبة لولا أن عاجلته منيته في ٢٧ مارس

سنة ١٩٥٦ ؛ فقد بلغ فى هذا الكتاب الغاية من حيث إحكام المنهج العلمى ، والترتيب المنطقى للبحث والدقة فيه ، والتماس الحقائق من أصولها ومظاهرها الأولى ما وسعه ذلك ، وتوثيق رأى الذى يسوقه بحيث صار المرجع الأول للباحثين فى تاريخ الأندلس إلى الحقة التى انتهى إليها ؛ ونقله إلى لغة المضاد فريضة يجب أن تؤدى قياما بحق التراث العربى فى إسبانيا .

تلك آثار مؤلف هذه الفصول الذى كان أستاذا للحضارة العربية بالسربون ، ومديراً لمعهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس ، وأستاذاً زائراً بالجامعات المصرية ، فكان لوفاته رنة أبى فى قلوب عارفيه من أبناء الأقطار العربية .

• • •

أما الفصول المترجمة فى هذا الكتاب فقد تباعدت بينها المسافة الزمانية والمكانية ، وإن كانت على تنوعها تنصل بتراث الإسلام فى المغرب والأندلس ، بما جاز معه جمعها بين دفتى كتاب واحد . ومن هذه الفصول ، وهى عشرة ، أربعة عن المغرب هى : تأسيس مدينة فاس ، وملاحظات عن أسماء المدن والمواضع فى المغرب والأندلس وتأملات فى إمبراطورية المرابطين فى مطلع القرن الثانى عشر ، ثم مولد إمبراطورية ابن تومرت وعبد المؤمن فقيه سوس وسراج الموحدين .

وأما الخمسة التي عن إسبانيا الإسلامية فهي : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن الحادى عشر ، وألفونس السادس واستيلاؤه على طليطلة ، وزايدة المسلمة ، زوجة ألفونس السادس وابنها الأمير سانشو ، والسيد فى التاريخ . واستيلاء السيد على بلنسية فى المصادر الإسلامية ، والأصل العربى ، للدونة العامة فى إسبانيا ، ثم الشعر العربى فى إسبانيا والشعر الأوروبى فى العصور الوسطى .

بقى الفصل العاشر عن الدور الروحى لإسبانيا الإسلامية ، وقد نقل إلى العربية من قبل ، ونشر فى مجلة الكاتب المصرى بعددها الصادر فى يناير ١٩٤٧ فلم نر إعادة نشره .

وهذه الفصول من قبيل الأبحاث المفردة التى تنصب على موضوع بذاته فى اتجاه رسمى لاستقصاء جزئياته ، ونفريع مسائله ، واستخراج الحقائق التى يبنى عليها البحث الكلى ، فلا يتأتى هذا إلا بذاك .

ونحن فى العالم العربى لانولى البحث المفرد من الأهمية مانولى البحث العام الذى تجمع فيه المعلومات قبل تحييصها ، وتسرد المسائل قبل تحقيقها ، وربما كان من أسباب ذلك الافتقار إلى المجلات العلمية تمنعها الدقيق ، فهى مجال تلك الأبحاث التى تخلق البيئة العلمية السليمة ونهى السبيل للكتاب القيم .

(ل)

وعسى أن يكون في هذه الفصول ما يسد فراغا في المكتبة العربية،
وما يشفي غلة المتطلعين من الناطقين بالضاد للوقوف على جانب التراث
العربي المجيد في المغرب والأندلس، والله المستعان .

القاهرة في نوفمبر سنة ١٩٥٦

لطفي عبد البديع

الفصل الأول

تأسيس مدينة فاس

ظهر هذا المقال في مولات معمر الدراسات الشرقية بجامعة

الجزائر، الجزء الرابع سنة ١٩٣٨، ص ٢٣ - ٥٣.

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université
d'Alger.

— ١ —

هناك رواية شائعة وردت في سائر الكتب الخاصة بتاريخ شمال إفريقيا تعزو تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثاني بن إدريس الأول وخليفته، وهي رواية قديمة جدا، نجد أول صدى لها في كتاب لمؤلف جغرافي مشرقى من أهل القرن العاشر الميلادي، ونعني به ابن حوقل^(١).

(١) انظر: كتاب « جزائر بني مرزغنة » المنشور تحت عنوان : Description
Journal De Slane الترجمة de l'Afrique septentrionale الواردة في
Asiatique سنة ١٨٤٢ ص ٢٣٦ ، طبعة De Goeje ، لندن ، ١٨٧٣ ،
ص ٦٥ ، وكذا طبعة جديدة للأستاذ J. H. Kramers ، لندن ، ١٩٣٨ ،
ص ٩٠ . هذا وقد جمع الأستاذ ر. بلاشير R. Blachère في مقال له بعنوان : « فاس عند الجغرافيين العرب في العصور الوسطى » ، المنشور في مجلة
Hespéris ج ١٨ سنة ١٩٣٤ من ص ٤١ - ٤٨ .

وفي النصف الثاني من القرن التالي ، ردد هذه الرواية المؤرخ والجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري^(١) ، عندما رسم — تبعاً للبيانات التي جمعها — أول وصف شامل لمدينة فاس أمكننا الوصول إليه ، فقال إن هذه المدينة تتكون من مدينتين مختلفتين ويحيط بكل منهما أسوار ، كما يفصلهما نهر شديد التيار ، وهو يسمى إحداهما « ضفة القرويين » ، والثانية « ضفة الأندلسيين » . وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية . وهو يقرر في وصفه هذا أن المدينة الواقعة على « ضفة الأندلسيين » قد تأسست عام ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) ، وأن مدينة « ضفة القرويين » قد أسست في السنة التالية ، في عهد إدريس بن إدريس .

وهناك جغرافيون آخرون قدامى — منهم اليعقوبي^(٢) والمقدمي^(٣) — يقررون أيضاً وجود مدينتين منفصلتين ، بل ويعتنون الأمر

(١) انظر: « جزائر بني مزغنة » أو Description de l'Afrique Septentrionale طبة De Slane الطبة الثانية ، الجزائر ، ١٩١١ ، ص ١١٥ ، وكذلك طبة أخرى جديدة ، بالجزائر ، ١٩١٣ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر « صفة المغرب » المأخوذة من كتاب « البلدان » لأحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ، نشره M. J. de Goeje تحت عنوان : Descriptio Al Magribi, sumta ex - libro regionum Al Jacubii طبة ليدن ، ١٨٦٠ ، ص ١٩ من النص العربي ، وكتاب « البلدان » طبة De Goeje ، ليدن ، ١٨٩٢ ، من ص ٣٥٧ — ٣٥٨ . وكذلك الترجمة الفرنسية للأستاذ G. Wiet تحت عنوان Les Pays طبة القاهرة سنة ١٩٣٧ من ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) انظر: « أحسن التقاسيم » طبة De Goeje ليدن ١٩٠٦ ص ٢٢٩ .

الذين حكموهما في الوقت الذي كتبوا فيه ، وإن لم يذكروا شيئاً عن تأسيس المدينتين . وحتى الإدريسي نفسه لا يذكر شيئاً^(١) . ومع أنه ألف كتابه في مطلع القرن الثاني عشر ، إلا أنه يتكلم أيضاً عن مدينتين منفصلتين ، مع أنهما كانتا قد اتحدتا في مدينة واحدة قبل ذلك بعشرات السنين . أما « كتاب الاستبصار »^(٢) ، الذي يرجع تاريخه إلى ما بعد ذلك بقبائل ، فإنه يقتصر على إيراد ما ذكره البكري^(٣) من قبله .

ولو أن الوثائق الخاصة بنشأة مدينة فاس كانت على هذا النحو من الفقر ، لكانت ضئيلة القيمة ، ولكن كان من حسن التوفيق أن وردت الرواية الخاصة بهذه النشأة في السنين الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي ، مع تفاصيل أكثر على خلاف العادة ، وخاصة في المصنفات التاريخية المغربية ، التي تشير بذلك إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبي زرع

(١) انظر : Description de l'Afrique et de l'Espagne: نشر وترجمة De Goeje و Dozy ، ليدن ، ١٨٦٤ - ١٨٦٦ ، النسخ من ص ٧٥ - ٧٦ ، والترجمة من ص ٨٦ - ٨٧ و ٩٠ .

(٢) انظر طبعة : A. de Kremer : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI^{ème} siècle de l'hégire : De Fagnan ، ١٨٥٢ ص ٦٩ . وترجمة : De Fagnan

L'Afrique septentrionale du XII^e Siècle de notre ère.

طبعة قسطنطينة ، ١٩٠٠ ، من ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) للجغرافي الشرقي ياقوت أيضاً كتاب « معجم البلدان » ، طبعة Wustenfeld ، لبيزج ، ١٩٢٤ ، الطبعة الثانية ، ج ٣ ص ٨٤٢ وما يليها ، طبعة القاهرة ، ١٩٠٦ ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ وما يليها .

مؤلف « روض القرطاس »^(١) . والرواية التي ساقها ، نقلها عنه بعد ذلك بنفس العبارات اثنان من مؤرخي فاس ، وهما الجزناني

(١) يسمى على وجه التحديد باسم « كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » . وبناء على ما ورد في بيانات متفقة في عدة مؤلفات عن التراجم المراكشية ، وبخاصة في ذكر مشاهير أهل فاس في القديم (وهو الذي سبجته فيما يمد) - نجد أن نسختين من هذا الكتاب تحملان عنواناً واحداً . أما أقدم وأفضل هذه النسخ ، فربما كان كتاب أبي العباس أحمد بن أبي زرع الذي كان إماماً وواعظاً في مسجد القرويين الكبير بفاس ، ثم مات بهذه المدينة بين سنتي ٧١٠ و ٧٢٠ هـ (١٣١٠ - ١٣٢٠ م) . أما النسخة الأكثر اختصاراً ، فربما كان مولفها المؤرخ صالح بن عبد الحليم المتوفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، والذي ترك كتاباً آخر عنوانه « زهر البستان في أخبار الزمات » ؛ وهو بلا شك نفس مؤلف كتاب « مفاخر البربر » . انظر :

E. Lévi-Provençal : Fragments historiques sur l'histoire des Berbères au moyen - âge

طبعة الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٧٥ . وهذه النسخة هي الأفضل . وقد طبع نصها عدة مرات ، ولكنها لم تكن مرضية أبداً . ولا زلنا ننتظر طبعة نقدية ، وعلى الأخص ترجمة دقيقة لهذا النص الرئيسي لتاريخ مراکش في العصور الوسطى . هذا وقد اعتاد الناس في مراکش اختصار هذا العنوان الطويل وهو « كتاب الأنيس المطرب الخ .. » إلى كلمتي « روض القرطاس » أو « القرطاس » . على أننا لن نجعل القارئ في الصفحات التالية إلى هذه الطبعات المتعددة من كتاب « القرطاس » فيما يخص بالعناصر المختلفة من قصة تأسيس فاس . ونظراً إلى أن هذه المراجع ستزيد الحواشي ، لهذا سيكون من السهل دائماً العثور على فقرات نافعة ، إما في الكتاب نفسه ، أو فيما ورد ذكره في كتاب « زهرة الآس » ، وكذلك فيما ورد في الجزء الأول من كتاب « الاستمضاء » ، طبعة مصر ، ١٣١٢ هـ ، وهو الجزء الخامس بالأدراصة ، والذي ترجمه A. Graulle في المجلد ٣١ من Archives Marocaines ، طبعة باريس ، ١٩٢٥ .

في « زهرة الآس » ،^(١) ، وابن القاضي في « جذوة الاقباس » ،^(٢) .
 على أن المادة التي نجدها في « القرطاس » غير منظمة ، إذ نجد
 المؤلف يخلط رواياته — المستمدة من عدة مراجع أخرى تعد اليوم
 مفقودة — بمعلومات وبيانات دقيقة تعتبر جديدة في بابها . أما رواية
 « زهرة الآس » الواردة بطريقة أكثر منطقية ، فإنها تقدم لنا عدداً
 قليلاً من المعلومات التكميلية التي لا تجحد قيمتها ، في حين أنا نجد
 ابن القاضي الذي يكتب في آخر القرن السادس عشر لا يحوى كتابه
 إلا بعض تفاصيل مختلفة . فهذا التقارب والنقل الذي تصوره هذه
 النصوص يبين في النهاية أن ما تقرره هذه المراجع الثلاثة ، على الأقل
 بالنسبة للبدء الواقعة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ،
 ما هو إلا صدق حقيقى للآراء الشائعة في نفس ذلك العهد ، سواء
 أكان في فاس أم في بقية مراكش ، عن أصول المدينة المذكورة .
 وهل هناك حاجة إلى أن نلاحظ أنه في هذه الفترة كانت قد مضت

- (١) نشرها وترجمها وعلق عليها A. Bel باسم « زهرة الآس » . وهي تتناول
 تأسيس مدينة فاس ، طبعة الجزائر ، ١٩٢٣ .
 (٢) مطبوعة طبع حجر في فاس سنة ١٣٠٩ هـ . انظر كتابي :

Historiens des Chorfâ, essai sur la littérature historique
 et biographique au Maroc du XVI^e au XX^e Siècle

طبعة باريس ، ١٩٢٢ ، من ص ٢٤٨ — ٢٥٠ . انظر في نفس الكتاب ص ٢١١
 والهامشية ١ ، وكيف أن مؤرخاً مراكشياً من القرن التاسع عشر وهو أكسنوس
 Akensius قد اغتدع تماماً ، فيما يتعلق بالقرطاس ، وذلك عندما أخذ هذه الكلمة
 على أنها لقب للمؤرخ ابن أبي ذرع .

مئات من السنين كانت مليئة بتاريخ مضطرب ، منذ أن ظهرت فاس على المسرح في بلاد المغرب ؟

ومن العجيب أن نفس الرواية لم نزل بعد قائمة ، على ما هي عليه إلى اليوم ، ويكفي للاقتناع بذلك سؤال علماء فاس ممن اشتهروا باهتمامهم بمعرفة الماضي البعيد لمدينتهم ، إذ أن رواية القرطاس ، والروايات المأخوذة عنه كافية تماماً لإرضاء حب استطلاعهم ، إذ يبدو أنها صارت في نظرهم شيئاً مقدساً لا تليق مناقشته أو الجدل فيه. والشائع في فاس هو ذلك الدور الذي قام به إدريس الثاني في تأسيس المدينة. وعلى الرغم من عدم التمكن من ثبوت هذه الفكرة، إلا أن القليل منها يعد كافياً لإثبات هذه المعجزة. وهنا يدرك الإنسان كيف أصبح إدريس الثاني - مولاي إدريس - منذ نحو أربعة قرون من أعظم أولياء الله في مراکش ، إن لم يكن أعظمهم ، إلى حد أن طائفة من سكان المدينة اعتنقت كلها مذهب الولاء لهذا المؤسس العظيم. وهكذا حاك الرأي العام حول اسمه حالة من الأساطير الذهبية^(١) ، التي لم يكن لتأسيس فاس نصيب فيها ، ولكنها اتخذت على مرور الزمن طابعاً يشبه الكرامات .

(١) نجدها مذكورة في عدة مؤلفات للتاريخ المراكشي ، وبخاصة في « الدر النفيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس » لأحمد الحلبي ، وهو مشرق استقر في فاس حيث مات في سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ م) ، انظر كتابي : *Historiens des Chorfa* ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وقد طبع هذا الكتاب طبع حجر في فاس سنة ١٣٠٠ و سنة ١٣١٤ هـ .

وهذه هي خلاصة ما تقوم عليه هذه الرواية ، كما وردت في كتاب «القرطاس» ، والمصنفات الأخرى التي نقلت عنه ، وسنقتصر في إيرادها على الجوانب المهمة منها :

ولد إدريس الثاني في أولي ، أو على الأصح وليله ^(١) ، في كتلة زَرْهُون الجبلية (جبل زَرْهُون) ، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين ، وكان موت أبيه حادثاً محزناً لوفاته مسموماً على يد رسول خاص كان قد أوفده الخليفة العباسي هرون الرشيد سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) أو ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) . وقد تولى رشيد - عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص - مهمة تعليم الطفل حتى كبر وصار حاكماً سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤ م) بإجماع قبائل البربر بمراكش ، ثم مات رشيد بعد هذا بقليل . وفي نهاية السنة التالية - وهي سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) - وجد إدريس الثاني أفواجاً من المهجرات العربية تنثال عليه ، مما جعل إفريقية وإسبانيا تأتي إليه لتربط مصيرها بمصيره ، حتى ضاق مقامه بوليقة عن استيعاب هذا النمو المنطرد من السكان ، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة لمملكته ، وكان أن وجد في سنة ١٩٠ هـ

(١) على الرغم من أن كتابة كلمة أولي بصورة ولي تقرب جداً من الاسم اللاتيني Volubilis . إلا أنه يجب تفضيل كلمة ويلة المكتوبة على جميع العملة المضروبة في هذه المنطقة . انظر بشأن هذه المسألة :

G. S. Colin : Monnaies de la période idrisite trouvées à Volubilis في مجموعة Hespéris ج ٢٢ سنة ١٩٣٦ ص ١٢٠ والهامية رقم ١ .

(٨٠٦ م) مكاناً مناسباً ، يقع على السفح الشمالى لجبل زلغ^(١) . وبدأ فعلاً فى بناء المدينة ، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأسس والمعدات ، فوقف دولاب العمل .

وفى السنة التالية — عند مطلع سنة ١٩١ هـ (نوفبر ٨٠٦ م) — قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو Sebou ، على مقربة مباشرة من ينابيع خولان^(٢) الساخنة ، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل ، غير أن مخاوفه من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر ، أجبرته على إهمال مشروعه .

أما المحاولة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظاً ، إذ يختار للمدينة أرضاً مغطاة بأعشاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياه الجارية ويعبرها نهر تغذيه ينابيع مجاورة . وهذا الموقع لحظه عمير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه ، وكان قد اشتراه المحتلون من بربر زناتة المتتمين إلى أحزاب منافسة والمعتنقين للإسلام والمسيحية واليهودية وحتى لمذهب عبادة النار نفسه .

ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان ، بل ويصدر الأمر بيده لإنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول

(١) جبل بدعى وُلغ Oualikh كما ذكره Beaumier وكذلك :

E. F. Gautier : Les Siècles Obscurs, p. 283.

(٢) لسمى اليوم باسم سيدى حرازم Sidi Hrazem ، وهو على بعد ١٥ كيلومتراً

شرق فاس . وكان اسم خولان لا يزال مستعملاً فى القرن الثامن عشر .

سنة ١٩٢ هـ (٤ يناير ٨٠٨ م) ، حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب على الأرض الواقعة على الضفة اليمنى من النهر . أما فى الداخل فيبنى مسجداً بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحيطه سور من خشب . وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة ، وسمى باسم « حى الأندلسيين » .

بعد ذلك بعام ، على التحقيق — بحسب التوقيت الهجرى الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨ م — شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول . وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهر ، كما أدى إلى امتداده بشكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهر . ذلك الحى من المدينة هو الذى سوف يطلق عليه اسم « حى القرويين » ، الذى كان يشبه الحى المقابل له فى إقامة ستة أبواب له أيضاً . أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر . ثم لا يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلاً حتى يمتلئ بالسكان بسرعة ظاهرة ، وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه ، وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر ، فى حين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب . وبسرعة كبيرة تختلط بهؤلاء المسلمين طائفة ملحوظة من اليهود ، ويأخذ هذا النجم اسم مدينة فاس ، ويستقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته . ولم يكن فى ذلك الوقت

قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، وظل بها إلى سنة ١٨٧ هـ (٨١٢ - ٨١٣ م) ، ثم رحل بعد ذلك في حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مدينة فاس ، ثم غادرها سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ - ٨١٥ م) متجهاً إلى تلمسان ؛ وبعد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته ، التي استقبلت في ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس ، ممن طردهم الحُكم الأول أمير قرطبة الأموي ، وذلك عقب « وقعة الرابض » ، وسمح لهم إدريس الثاني بالقرار في الحى الشرقى . ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس .

بعد هذا بعشرة أعوام - في سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) - مات إدريس في ظروف غامضة ، في فاس نفسها ، أو في ولاية ، تاركا مدينته المزدوجة يانعة مزدهرة ، كما ترك عند وفاته أطفالا كثيرين ، كان منهم على الأقل اثنا عشر ولداً تقاسموا أملاكه .

وينبغى أن نكرر هنا أننا ارتبطنا بعرض هذا الموضوع عرضاً سريعاً ، ومع هذا فإننا نجد في رواية صاحب « القرطاس » تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشاء المدينة المزدوجة ، وكذلك عن المحاولات الفاشلة التي سبقته . ونجد المؤرخ المذكور يحيط اسم فاس بقصص مبتكرة ، لا تخلو من الطرافة أحياناً . على أن مرجعه يعد ذا قيمة نادرة بفضل معلوماته الطبوغرافية فيما يتعلق برسم وتخطيط الحيين وأبوابهما ، حيث تعتبر هذه المعلومات وحيدة في بابها إذا أضفنا إليها روايات البكرى ، وهي تفيدنا في موازنة

خريطة فاس الحالية بنظائرها التي كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى .

ويؤكد مؤلف القرطاس ، كما يؤكد المؤرخون من بعده ، نقلا عنه ، كيف أن مدينتى إدريس الثانى اللتين لا يفصلهما أى فاصل طبيعى مهم ، قد نمتا وجرععتا ، ولكن هذا لم يمنع أن يكون مصير أحدهما غير مصير الأخرى . وسنراها فى القريب تعيشان عيشة مضطربة خطيرة ، فهما تارة متضادتان ، وتارة متفقتان . ثم تمضى بعد ذلك سنون عدة قبل أن يأتى من الصحراء الغازى يوسف بن تاشفين محطماً الحواجز التى تفصلهما ، وموحداً إياهما نهائياً فى مدينة واحدة .

وكان ذلك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ؛ وهنا على موقع مدينتى هذه المؤسسة الإدريسية ، بدأت تستقر منذ ذلك الحين هذه المدينة الكبرى فى العصور الوسطى ، التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام ، تزخر بمواردها العلمية والصناعية والتجارية . هكذا صارت فاس ، كما رآها المؤرخ ابن أبى زرع فى الوقت الذى وصفها فيه بحماسة .

- ٢ -

من هذه الرواية المتواترة عن نشأة مدينة فاس ، يبقى أمامنا أمران هما : نشأة مدينتين إحداهما قرية جداً من الأخرى ، وإن بقينا مستقلتين برغم هذا خلال سنة واحدة ، ثم نسبة هذا الإنشاء المزدوج إلى إدريس الثاني ، لدرجة أنه في سنة ٨٠٨ م اشتهرت عاصمة شمال مراكش بأنها بدأت وقتئذ مصيرها المجيد ، بفضل عبقرية أمير في السابعة عشرة من عمره .

وقد يكون من الجراءة إثارة الشك في القيمة التاريخية لهاتين الحقيقتين . على أن ذلك لا يمنع من أن نتساءل : كيف استطاع إدريس الثاني على الرغم من صغر سنه تنفيذ مشروع ضخم كأسس مدينتين متباينتين في مكان واحد ؟ وإذا سلطنا بأن هاتين المدينتين لم تكونا سوى حيتين لمدينة واحدة ، فلماذا جعل لكل منهما سوراً خاصاً بها بدلاً من إحاطتهما معاً بسور واحد ؟ ولم آثر إيجاد هذا التعارض العنصري والسياسي والاجتماعي لمدينتين متماثلتين ؟ وهو تعارض قد تجلى عقب وفاته بقليل .

ويبدو أننا لم نجد إجابة واضحة إلى الآن على هذه الأسئلة . فالمؤرخون — القدامى منهم والمحدثون — ممن تحدثوا عن الإدريسيين ونشأة فاس ، لم يفعلوا أكثر من أنهم سجلوا الرواية التقليدية القديمة

على أنها حقيقة لا جدال فيها منذ أمد بعيد^(١).

ولعلنا ندهش إذا رأينا أن إ. ف. جوتييه E. F. Gautier في بحثه العميق الذي كتبه عن نشأة العاصمة^(٢) ، لم ير ضرورة لذكر وجود مدينتين في مكان فاس في وقت واحد ، وذلك رغم قبوله لتلك الرواية ، على أن قراءته الدقيقة لكتاب « روض القرطاس » ، قد هدته بالضرورة إلى هذا الرأي ، إذ الواقع أن ذكره لهذه الحقيقة قد يضعف من قيمة الحجج التي ساقها ليبين كيف أن دراساته التي يعرضها لشرح معجزة فاس منذ نشأتها بسبب استيعابها ظروف الدولة

(١) عرض تفاصيل هذه الرواية منذ سنة ١٨٧٥ الأستاذ H. Fournel في كتابه الكبير :

Les Berbères, Étude sur la conquête de l'Afrique par les arabes, d'après les textes imprimés. طبعة باريس ، ١٨٧٥ ، في مجلدين ، في حجم الربع ، ورد فيهما وصف تأسيس فاس في الجزء الأول من ص ٤٦١ — ٤٦٦ .

وأما عن قيمة هذا الكتاب فانظر :

W. Marçais : Le passé de l'Algérie Musulmane

وهو الذي ورد في كتاب :

Histoire et historiens de l'Algérie, collection du centenaire de l'Algérie

طبعة باريس ، ١٩٣١ ، من ص ١٦٨ — ١٦٩ . أما كتاب :

Gaillard : Une ville de l'Islam : Fès

طبعة باريس سنة ١٩٠٥ عن فاس ، فلم يزل أحسن كتاب يقرأ إلى الآن عن العاصمة المراكشية . وقد تمسك هو الآخر بصحة رواية « القرطاس » .

(٢) Les siècles obscurs du Maghreb من ٢٨٢ وما يليها .

الشرقية وانطباقها عليها ، وكأنها كانت «معجزة التكيف بظروف الدولة الشرقية» ، وذلك بفضل تشعب قنوات نهيرها .

ولقد كان للبحاث م. هنرى تيراس M. H. Terrasse^(١) فضل التنبيه إلى هذا الازدواج في المدينة ، وما به من طابع شاذ^(٢) ، وذلك بإشارته إلى ذلك بدلا من تفاديه ما ينطوى عليه هذا الوضع من صعوبات ، إذ حاول أن يشرح هذا الازدواج مستعينا بأمور كان يمكن أن تقنع الباحث ، لو أن الأمر كان على هذا النحو ؛ وهو ليس كذلك .

وأمام هذا الوضع ، نجد أن المشكلة ستكون فيما بقي من المسائل صعبة الحل بغير الاتجاه إلى الافتراضات الضعيفة ، ما دما لا نملك المعلومات التي تبينها لنا كتب التاريخ عن نشأة فاس ، مما يمكن التعويل

(١) انظر : H. Terrasse : Villes Impériales du Maroc

طبعة جرينوبل ، سنة ١٩٣٧ ، ص ٢٨ ، ونجد في نفس الكتاب ص ١٨ مناقشة نظرية E. F. Gautier

ونحن ننفق تماما مع M. H. Terrasse في تقرير أن « هناك أسبابا أخرى - فيما عدا ذلك الهدوء الجبل لنهير فاس - قد أثرت في حياتها ومولدها » .

(٢) لا يمكن الاستناد إلى أكثر من ذلك في حالة تلسان التي تكونت من تقابل مدينتين متجاورتين ولكنهما بنيتا الواحدة بعد الأخرى بزمان طويل ، وما أجادير Agadir وناجرارت Tagrart . فالأولى كانت موجودة فعلا على موقع يوماريا Pomaria الرومانية سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) ، عندما غزاها إدريس الأول . أما الثانية - وتقع غرب أجادير - فهي مؤسسة المرابطين ، وكانت في موقع معسكر يوسف بن تاشفين منذ سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، انظر :

W. & G. Maçais : Les monuments arabes de Tlemcen

طبعة باريس ، ١٩٠٣ ، ص ١٤ - ١٦ .

عليه . ولكن لدينا منذ عهد بعيد الدليل المادى الذى يثبت أن ماورد
فى كتب التاريخ أمر يبعث على الرية ، ولم نقد من هذا الدليل شيئاً ،
مع أنه ثابت لا سبيل إلى دحضه ، لأنه مبنى على وثائق لا يرقى إليها
الشك ، ونعنى بذلك النقود المورخة .

ففى المكتبة الأهلية بباريس درهم كان قد ضرب فى مدينة فاس
فى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) ، أى قبل التاريخ المتواتر عن تأسيس مدينة
إدريس الثانى بسنتين .

وقد أشار لافوا Lavoix ^(١) ، الذى نشر هذه القطعة فى سنة ١٨٩١ ،
إلى وجود درهم آخر فى متحف مدينة خاركوف ^(٢) ، ضرب فى فاس
وعليه تاريخ عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) .

وبعد لافوا نبه ل. ماسينيون L. Massignon فى سنة ١٩٠٦
إلى هذا الشذوذ ^(٣) ، وذلك فى نفس الوقت الذى ذكر فيه السنة التى

(١) انظر هـ . لافوا H. Lavoix فى كتابه :

Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque
Nationale, Espagne et Afrique

طبعة باريس ، ١٨٩١ ، ص ٤٤ من المقدمة ، رقم ٨٩٩ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٨ : « نشر الأستاذ Tiesenhausen درهماً من مجموعة
متحف جامعة خاركوف نقلا عن مخطوطات Froehn . وقد ضرب هذا الدرهم
فى فاس سنة ١٨٥ - انظر :

Revue Belge de Numismatique

ج ٣١ ، ص ٣٥٨ .

(٣) انظر ل . ماسينيون :

عينها ليون الإفريقي Léon l'Africain^(١) لهذا الإنشاء : وهي سنة ١٨٥ هـ . أضف إلى ذلك أنه في هذا التاريخ الذي ضربت فيه عملة في فاس ، كان إدريس الثاني يبلغ من العمر عشر سنوات على الأكثر ، وكان اسمه يظهر فعلا على قطع ضربت في وليله وتُدغّه ، تحمل التواريخ المتتابعة لسنوات ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ .

وهناك حقيقة أخرى لا تقل اضطراباً ، ويبدو أنها لم تبحث إلى الآن إطلاقاً ، وهي إيقاف ضرب العملة منذ السنة التي قيل إن فاس قد تأسست فيها على يد إدريس الثاني ، وأن كلا من المدينتين

L. Massignon : Le maroc dans les premières années de XVI e siècle, tableau géographique d'après Léon l'Africain
 طبعة الجزائر ، ١٩٠٦ ، ص ٢٢٣ و ٢٣٨ . وقد لاحظ حديثاً ج . س . كولان Q. S. Colin في مقاله المذكور ص ١٢٠ وحاشيتها رقم ٢ ، أن المتناقضات في التواريخ الإدريسية ، كما أوردها المؤرخون ، أو بحسب العملات النقدية مايلي : « تسمح البيانات الدقيقة المستتجة من العملات بالكشف في بعض التواريخ التي أوردها المؤرخون التأخرون بـ عدة قرون ، عن حوادث يحكونها ، ثم قبلت بعد ذلك بدون تحقيق إلى الآن » .

(١) انظر حنا ليون الإفريقي Jean Léon l'Africain في كتابه :

Description de l'Afrique, tierce partie du monde

طبعة شفر Schefer ، باريس ، ١٨٩٧ ، ج ٢ ، ص ٥٧ حيث ورد ما يلي :

« بنى مدينة فاس كافر في عصر البابا آرون Aron ، وكان ذلك في سنة مائة وخمس وعشرين من الهجرة » . انظر :

Marmol : Description General de Affrica

طبعة غرناطة ، ١٥٧٣ ، ج ٢ ، ورقة ٨٤ خلف ، وفيه يذكر سنة ١٨٥ هـ أيضاً ، وإن كان ذلك مقترنا بالتاريخ الخطأ وهو سنة ٧٩٨ ميلادية .

— لو صدقنا « روض القرطاس » ، — كانت تمتاز بدار خاصة للسكة ،
 بما يجعلنا نتساءل عما إذا لم تكن توجد قطع إدرسية مضروبة في فاس
 بعد سنة ٨٠٨ م من بين القطع التي ظهرت إلى الآن ؟
 أما عن القطعتين الوحيدتين المعروفتين في هذا الشأن فالمظنون
 أنهما ترجعان إلى سنتي ١٨٥ و ١٨٩ هـ . وأما بالنسبة لحكم إدريس
 الثاني ، فعظم القطع التي تحمل اسم هذا الأمير كان مقر ضربها مدينة
 العالية . وقد ذكر لافوا في المصنف الذي وضعه عدة دراهم ضربت
 في مدينة العالية ، تحمل اسم إدريس الثاني في سنوات ٢٠٤ و ٢٠٧
 و ٢٠٨ و ٢١٠^(١) . وأنا شخصياً أقتنى منها أربعاً لم تنشر بعد ، وترجع
 بالتوالي إلى سنوات ١٩٨ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٤ هـ . والقطعة الأخيرة
 ينبغي الإشارة إليها في هذا العرض ، وهي ترجع إلى تاريخ متأخر
 سنة عن وفاة إدريس الثاني ، كما هو معروف .

ومن حيث أن اسم العالية يعني بدقة معنى قولهم « المرتفعة » ،
 لهذا نتساءل : أليس من المعقول أن ما افترضناه آنفاً^(٢) ، لا ينطبق
 إلا على إحدى المدينتين المنشأتين على موقع فاس في العهد الإدريسي ؟

(١) انظر : هـ . لافوا H. Lavoix في كتابه المذكور ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .
 وقد ذكر أيضاً أحد دراهم سنة ٢٠٨ هـ المضروب في العالية في متحف برلين في كتاب :
 H. Nützel : Katalog der Orientalischen Münzen
 طبعة برلين ، ١٩٠٢ ، ج ٢ ص ٢٠٥ رقم ٨٤٨ .

(٢) انظر : هـ . لافوا H. Lavoix في كتابه المذكور ص ٣٧٧ وكذلك :
 ل. ماسينيون L. Massignon في كتابه المذكور ص ٢٢٣ . وهذا مع احتمال
 إمكان إطلاق هذا الاسم على « ضفة الأندلسيين » .
 (م ٢ — دراسات في المغرب والأندلس)

ويمحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى تسمية رسمية سوف تطلق فيما بعد على العملات الخاصة بالأسرة الإدريسية حتى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ - ٨٤٥ م) ، ثم تختفي بعد ذلك نهائياً من تعداد أماكن ضرب العملة في بلاد المغرب ، ولا يورد المؤرخون والجغرافيون العرب أى إيضاح عنها . ويمكن بوجه عام ربطها باسم الجد الأكبر لإدريس ، وهو « على » ، وفي هذه الحالة لعل الأمر يتعلق بتحريف لفظ العالية عن العلوية ، أو لعل الأقرب إلى الذهن أن هذه للصفة ، ما هي إلا صفة « الحضرة العلوية » ، وهو تعبير شائع على السنة أهل المغرب من المتصلين بالقصر ، وقد ينصرف المعنى إلى ارتفاع أو علو المدينة بالنسبة لما جاورها ، ويتجلى هذا بوضوح في فاس مدينة القرويين بالنسبة إلى مدينته الأندلسيين .

وتهض بعد ذلك بكثير تحت حكم بنى مرين مدينة جديدة هي فاس الجديدة عند وادى فاس الأعلى ، إلى الغرب من الموقع الذى كان محتلًا فعلاً حيث تسمى بعد ذلك رسمياً باسم « المدينة البيضاء » ، كما تسمى أيضاً باسم « فاس العليا » .

ومهما تكن قيمة هذا الفرض الأخير ، فإنه لم يبق له إلا بعض روايات قديمة عن نشأة فاس ، قد أضيف إليها أمران آخران فيهما يقين ، لأنهما مبنيان على الحقائق المستمدة من النقود . فقد كانت فاس مركزاً لسك العملة قبل سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) ، إذ يختفى هذا الاسم منذ سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ - ٨١٤ م) وما بعدها ، ويظهر بدلاً منه اسم

العالية . ولا يعود اسم فاس إلى الظهور بعد هذا في العملة المراكشية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ - ٩٨٠ م) ، على درهم فاطمي ، ثم يعود بعد ذلك على قطع أموية مضروبة ، تحمل اسم هشام الثاني ، ومؤرخة في فترة تراوح بين سنتي ٣٧٧ هـ (٩٨٧ - ٩٨٨ م) و ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ - ١٠٠٨)^(١) .

هل في تقرير هذه الحقائق جرأة ومجازفة ، اعتماداً على صفتها الحقيقية التي لا تجحد ، وذلك على فرض أن مدينتي موقع فاس - اللتين يعد وجودهما المتوالي الطويل حقيقة تاريخية ثابتة - ليست كما اعتقدنا إلى الآن متقاربتين في النشأة بمدة سنة ، ولكن إحداهما بنيت قبل الأخرى منذ طفولة إدريس الثاني ، بل وفي عهد أبيه إدريس الأول ؟

هذا الفرض الذي يحل المشكلة الغامضة للتأسيس المزدوج المتقابل ، بالإضافة إلى دراسة عدد معين من النصوص التاريخية التي لم يأبه

(١) انظر خاصة : ف . كوديرا F. Codera في :

Cecas Arabigo - espanola

طبعة مدريد ، ١٨٧٤ ، ص ٥٠ - ٥١ هـ . لافوا H. Lavoix في كتابه المذكور ص ٩١ رقم ٣٢٨ - ٣٢٩ (ستة ٣٨٨ هـ) ، هـ . نوتزل H. Nützel في كتابه المذكور ص ٥٤ - ٥٥ رقم ٣٩٠ - ٣٩٨ (سنوات ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٢ هـ) . وكذلك :

A. Prieto y Vives : Numismatica Africana : Los Fatimitas en Fez المنشور في :

Homenaje a D. Francisco Codera

طبعة سرقطة ، ١٩٠٤ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

لها النقاد إلى الآن لمخالفتها الفكرة الشائعة ، كل هذا يؤيد ذلك الحل
كل التأييد ، بل إنه ليجله إلى تأكيد لا نقاش فيه ولا جدال .

• • •

ومؤلف أول هذه النصوص هو القرطبي أبو بكر أحمد بن محمد
الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وهو أقدم مؤرخي العرب
للأندلس^(١) . على أن كتابه نفسه لم يصلنا ، ولكن الاقتباسات
الكثيرة التي أخذتها عنه الروايات التالية ، وبخاصة ما ورد في كتاب
« الكامل » لابن الأثير^(٢) ، تسمح بوضع تاريخه في المقام الأول .
وعلى هذا نسوق إليك خلاصة ما ورد في كتاب « الحلة السيرة »
لابن الأثير^(٣) ، في سياق خبر عن إدريس الثاني :

(١) انظر مقال في دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ من ص ١٢١٥ - ١٢١٦ تحت
مادة الرازي .

(٢) انظر دراسة :

Cl. Sanchez-Albornoz - Rasis fuente de Aben Alatir

الوارد في مجلة Bulletin hispanique ج ٤١ سنة ١٩٣٩ ص ٥ - ٥٩ .
هذا وينبغي بهذه المناسبة ملاحظة أن ابن الأثير لا يذكر شيئاً عن تأسيس فاس .

(٣) في الجزء من هذا الكتاب الذي نشره :

M. J. Müller : Beiträge zur Geschichte der Weltlichen Araber
طبعة ميونخ سنة ١٨٧٨ ص ٢٠١ . ولم تغل هذه الفقرة من الحلقة من يد فورنل
Fournel ، حيث ذكرها في كتابه ج ١ ص ٤٦٤ حاشية ٤ ، نقلاً عن غزيري
Casiri . غير أن البيانات التي ذكرها قد وضعها هو نفسه لأنها لا تتفق مع
الروايات المتواترة .

ذكر الرازي أن إدريس بن عبد الله — أى إدريس الأول — دخل المغرب سنة ١٧٢ هـ فى شهر رمضان (فبراير ٧٨٩ م) ، وذلك بعد أن هرب للخلاص من تعقب أبى جعفر له ، حيث يقف فى بقعة تدعى ولبه قرب وادى الزيتون ، حيث اجتمعت حوله قبائل البربر ، واتخذته زعيماً لها ، فأسس مدينة فاس التى كان موضعها بركة مغطاة بالأعشاب . وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا فى حفر أساسها وجدوا فأساً فى موضع الحفر ، وسكنها البربر . ولم يطل حكم إدريس الأول إذ انتهى فى سنة ١٧٤ هـ (٧٩١ م) حيث ترك أمةً حاملاً منه ، وضعت بعد وفاته ابناً سمي إدريس ، وهو الذى صار بعد أبيه ملكاً على مدينة فاس ، وكان حكمه طويلاً . وقد مات فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ (مايو — يونيه ٨٢٨ م) . وكان ميلاده فى شهر ربيع الثانى سنة ١٧٢ هـ (أغسطس ٧٩١ م) .

هذه العبارة ليست أكثر وضوحاً ولا أكثر دقة ، إذ أنه بناء على ما ذكره الرازي تبدو مدينة فاس منشأة مدنية من صنع إدريس الأول وترجع على أكثر تقدير إلى سنة ١٧٢ هـ ، وهى سنة وصوله إلى مراکش ، كما لا يتأخر تاريخ إنشائها تبعاً لهذا عن سنة ١٧٤ هـ التى تولى فيها . وعلى هذا يكون إدريس الأول المؤسس الأصيل لها ، كما تعد هذه المؤسسة — التى تأخذ منذ عهده اسم فاس — مدينة بربرية .

وهناك شهادة أخرى لابن سعيد المغربي^(١) — الذى استقى معلوماته بوجه عام من مصدر وثيق لا يقل عن سابقه فى الأهمية .
وهاهو ذا نصه كما ورد فى « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العُمَرى^(٢) ، وفى « صبح الأعشى » للقلقشندي^(٣) :

« قال ابن سعيد فى المغرب : وهى مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله (أى إدريس الأول) ، أحد خلفاء الإدارة بالمغرب ، وتعرف بعدوة الأندلسيين ، والآخرى بُنيت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين . »

(١) لا نملك مع الأسف هذا الجزء من المغرب لابن سعيد الخامس بمراكش .
والنسخة التى بخط المؤلف المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة لا تحوى غير أجزاء عن مصر وإسبانيا . [المترجم : نشرت هذه الأجزاء]

(٢) انظر ترجمة M. Gaudetfroy Demombynes فى كتابه :

L' Afrique moins l'Egypte

طبعة باريس ، ١٩٢٧ ، ص ١٥٩ .

ونجد على نفس الصفحة فى الحاشية ٣ ترجمة مستخرج من كتاب « الروض المطار » لابن عبد المنعم الحميرى متعلقة بتأسيس فاس كما أورده « صبح الأعشى » ، وإن لم يكن هذا أكثر من مجرد نقل روايات عن البكرى وكتاب « الاستبصار » .
أما باقى الحاشية عن فاس ، فنجد فى كتاب ابن عبد المنعم الحميرى . انظر لى بروفنسال E. Lévi-Provençal فى كتابه :

La peninsule ibérique au 'moyen-âge d'après Le Kitab ar-Raud Al Mi'tar

طبعة ليدن ، ١٩٣٨ ، والحاشية المذكورة لا تقدم أى معلومات جديدة .

(٣) طبعة القاهرة (دار الكتب المصرية) ج ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

أولمست هذه البيانات هي التي ذكرها الرازي ، وهي تثبت أن مدينة فاس التي تنسب إلى إدريس الأول هي تلك التي أطلق عليها فيما بعد عدوة الأندلسيين ؟

أما عن المدينة التي أطلق عليها اسم عدوة القرويين ، فهي من إنشاء إدريس الثاني ، وفيما عدا ذلك فهي هو الدليل :

لم يفعل البكري (١) أكثر من وصف فاس في عهده ، فقدم بعد وصفه لها ملحوظة قيمة عن تاريخ الإدارة ، هذه الملحوظة التي استعان في ذكرها بمؤرخ ضاع كتابه ، ونعني به أبا الحسن النوفلي الذي ورد ذكره في كتب التاريخ المغربي في العصور الوسطى ، حيث يصرح هذا المؤرخ — فيما نقله عنه خاصة الجغرافي الأندلسي (٢) — بأن إدريس الثاني وفد سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) للاستقرار في مدينة فاس على « عدوة الأندلس وظل فيها شهرا ، . حدث هذا في نفس الوقت الذي قتل فيه أبو ليلي إسحق زعيم الأوربيين ، وهذا مما يدل على أن مدينة فاس كانت موجودة فعلا في هذه الفترة . ويقرر نفس المؤلف بعد ذلك مباشرة ما نصه (٣) :

(١) انظر : البكري : « وصف ... » النص ص ١٢٣ .

(٢) الفقرة التالية توجد نصاً في ابن عذارى « البيان المغرب » ج ١ طبعة دوزي Dozy ليدين ١٨٤٨ ص ٢١٨ ترجمة Fagnan طبعة الجزائر ١٩٠١ ص ٣٠٤ . وهذا هو كل ما ذكره هذا المؤرخ الصبور عن تأسيس فاس . وقد جمع تاريخه عن المغرب الإسلامي في سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) ، انظر مجلة Hespéris ج ١٨ سنة ١٩٣٤ ص ٥ وحاشية ٥١ .

في هذه اللحظة (وهذا ما حدث فعلاً بعد ذلك) ، كانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها بيوت زواغة ، فأرسلوا إليه ، ودبر في البناء عندهم ، فكان ابتداء بناء فاس سنة مائة وثلاث وتسعين . (٨٠٩ م) .

وقد نقل هذا الرأي ابن الأبار في كتابه ، الحلة ، نقلاً عن التوفلي (١) ، عند كلامه على ثاني الإدريسين ، ويلاحظ أنه لم يشر إلى مدينة فاس ولا عدوة الأندلسيين ، : فقد ذكر أن البربر أعلنوا لإدريس الثاني أميراً عليهم يوم الجمعة من شهر ربيع الثاني سنة ١٨٧ هـ (إبريل ٨٠٢ م) ، وكان عمره أحد عشر عاماً ، فأسس مدينة القرويين ، في سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) ، ثم رحل إلى نفيس في المحرم من سنة ١٩٧ هـ (سبتمبر — أكتوبر ٨١٢ م) ، ثم جرد بعد ذلك حملة على نفزة في بلاد تليسان ، ومات في سنة ٢١٣ هـ ، (٨٢٨ م) وعمره ثلاث وثلاثون سنة .

فهذه الفقرات الأربع التي أوردناها هنا ، تكفي تماماً لاستشهادنا ، ولنصف إليها فقرة خامسة — على الرغم من اللبس في التاريخ بين إدريس الثاني وابنه القاسم — تحتفظ لنفسها على الأقل بقيمة ما . وهي توجد في مجموعة متفرقات تاريخية لمؤلف مجهول كتبها في فترة متأخرة نسبياً ، ولكنها كتبت في الواقع في القرن الرابع عشر في عهد

(١) انظر M. J. Müller في كتابه المذكور ص ٢٠٠ .

دولة بنى نصر ، ملوك غرناطة ، وعنوانها « الزهرة المنشورة في الاخبار الماثورة »^(١) ، حيث تبدو الملاحظات الواردة بها ، وهى كثيرة عن الغرب الإسلامى ، منقولة غالباً عن تاريخ الرازى . وقد تناولت الزهرة الخامسة والسبعون تاريخ الثوار القرطبيين الذين طردهم من عاصمته الأمير الأموى الحكم الأول .

والمعروف عن هؤلاء الثوار أن جزءاً منهم لجأ إلى مدينة طليطلة في إسبانيا نفسها ، ولجأ جانب آخر إلى الإسكندرية ، ثم بعد هذا إلى كريت^(٢) ، وهاجر فريق ثالث إلى مراکش . ويذكر المؤرخ المجهول أن « هذا الفريق قد اتجه إلى شمال إفريقيا في بلاد البربر ، حيث استقر على « عدوة الأندلسيين » ، وهى جزء من مدينة فاس . وهنا أخذت هذه الضفة ذلك الاسم ابتداء من وقت استقرار تلك

(١) نقل عنه المقرئ في « نفح الطيب » وأمدت مما نقله في كتابي :

L' Espagne Musulmane au Xe Siècle. Institutions et Vie Sociale

طبعة باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٨٥ .

(٢) انظر . ا . لى بروفنسال :

Un Echange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au 4X siècle .

الوارد في مجلة Byzantion ج ١٢ سنة ١٩٣٧ ص ٨ - ٩ وحاشية ١ (أدنى ص ٨٩) .

حاشية — ترجمنا هذا البحث في هذا الكتاب — المترجم .

الهجرات ، وبدأت تسميتها منذ ذلك التاريخ باسم «عدوة الأندلسيين» .
ثم عمرت هذه العدوة بالسكان ، بفضل مجيء هذه الهجرات ، حتى
واعت عددًا عديداً من المستوطنين ، واتخذت شكل مدينة ،
(أى تمدين) . حدث هذا في سنة ٢٠٢ هـ .

وكان أمير الإقليم في ذلك الوقت القاسم بن الأمير إدريس بن
إدريس المهاجر إلى المغرب ، وهو الذي كان ابناً لعبد الله .
وقد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الأندلسيين ،
وبين تأسيس مدينة فاس القديمة . وحقيقة الأمر أن مدينة فاس قد
بنيت في سنة ١٧٢ هـ ، عند ما دخل المغرب جد القاسم — وهو
إدريس بن عبد الله — هارباً من تعقب أبي جعفر المنصور له ، حيث
التف حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم ، وبنوا له مدينة
فاس على موقع مستنقع عشبي . وعندما حفر الأساس ، استكشفت
فاس في الأرض ، وهكذا سميت المدينة باسم مدينة فاس . وبطول
الكلام لو استطردنا في سرد تفاصيل هذا الموضوع .

فهذا النص الذي نقل بدون تغيير في جزئه الأخير نصّ الرازي
الذي أورده هنا ابن الأبار ، والذي نقلناه آنفاً ، هو النص الوحيد
الذي يمدنا بمعلومات دقيقة عن استقرار القرطبيين في فاس ، ثم إنه
يؤكد نسبة مدينة فاس إلى إدريس الأول ، وفيه إشارة إلى أن هذه

المدينة أنشئت نحو سنة ١٧٢ هـ ، أى قبل قدوم جماعة اللاجئين
الأندلسيين بثلاثين عاماً .

وهذه النصوص السابقة التى لم يولها أحد أهمية حتى الآن ،
مع أنها تؤيدها النقود ، تؤدى بالضرورة إلى افتراض تاريخ جديد
لإنشاء المدينتين . وهناك ثلاث مراحل متعاقبة متميزة وهى :

(أولاً) مدينة على الطراز البربرى أسسها ، أو تأسست
لإدريس الأول فى الجزء الواقع شرقى فاس الحالية فى سنة ١٧٢ هـ
(٧٨٩ م) ، وتسمى باسم مدينة فاس ، وقضرب فيها النقود
ابتداءً من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ هـ
(٨٠٥ م) .

(ثانياً) يمضى إدريس الثانى فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨ - ٨٠٩ م) ،
أى بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، إلى المدينة المؤسسة فى الفترة القصيرة
من حكم والده ، وهى التى كان يحتلها البربر وحدهم . ونظراً لأن إدريس
الثانى كان مولعاً بالتجديد — وهو ولع نجد منه أمثلة كثيرة لدى الحكام
فى التاريخ الإسلامى فى جميع العصور — فقد بنى هو الآخر فى الجزء
الواقع إلى الغرب من نفس الموقع ، والذي وجده الأفضل ، مدينة

جديدة على الطراز الشرقى ، أو إذا شئنا على الطراز الإفريقى . هذه المدينة أطلق عليها رسمياً اسم « العالبة » ، ولعلمهم سموها أيضاً فيما ذكر اليعقوبى ^(١) باسم « إفريقية » ، وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذى انتهى به الأمر إلى أن صار شائعاً على ألسنة الناس ، فقالوا « مدينة القرويين » ، أو « مدينة القيروانيين » .

(ثالثاً) بعد ذلك بتسع سنين ، فى سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧-٨١٨ م) ، كان حضور القرطبيين المعروفين باسم « ثوار الرّبض » ، إلى إدريس الثانى مؤدياً إلى إضعاف الصبغة التى اتّسمت بها مؤسسة أيّه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها . وقد أنشأوا مدينة فاس على النمط الأندلسى ، وما لبثوا أن أعطوها طابعاً جديداً لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم « مدينة الأندلسيين » أن حل محل الاسم القديم وهو « مدينة فاس » ، فصار يطلق بعد ذلك على كل الإقليم والمدينتين القائمتين فيه .

والآن وقد استقر الرأى على هذا التاريخ ، لم يبق أمامنا إلا بيان كيف أن التاريخ الخطأى ^{بسنى} ١٩٢ هـ و ١٩٣ هـ - وقد ظل معترفاً

(١) يميز هذا المؤلف على عهده بين مدينتين كانتا موجودتين فعلاً على موقع فاس : وهما مدينتا إفريقية من ناحية ومدينة أهل الأندلس من ناحية أخرى . وكانتا منفصلتين إحداهما عن الأخرى بنهر اسمه فاس . وتؤكد قراءة كلمة إفريقية أيضاً المخطوط الذى استخدمه De Goeje لطبعاته لليقوبى ، وهو يذكر لفظاً يمكن مع التسامح اعتباره قريباً من اللفظ البربرى « أفرج » Afrag وجسمها لإفرجان Ifergan المذكورة قديماً بمعنى « حى به معسكر الحاكم » .

به لدى الناس كافة - قد استقر في الرواية القديمة عن إنشاء مدينة فاس ، وحل محل التاريخ الحقبى عن طريق كثير من المؤرخين منذ عصر متقدم .

ولا تعوزنا الحجج لتوضيح هذه النقطة . فأولا من المحقق أن كبسا قد وقع بين إنشائين : هما إنشاء مدينة فاس ومدينة إدريس الثاني الجديدة ، وخاصة منذ أطلق اسم فاس على مجموع المنشأتين معا . وينبغي أيضا مراعاة الظروف القليلة المذكور في حوليات التاريخ الإسلامى عن حاكين متالين يحملان نفس الاسم : فتشابه الإدريسين قد زاد اللبس . ولعل أساس هذا اللبس التاريخى يرجع إلى خطأ يسير في القراءة . ويمكن أن تعد هذه الحجة قاطعة دافعة ، لاسيما إذا كان منها عندنا أمثلة كثيرة بسبب ضعف الخبرة في المخطوطات العربية ، ويرجع ذلك إلى تشابه الألفاظ ، كلفظى «سبعين» و «تسعين» .

فعند ما ينقل ناسخ تاريخ سنة ١٧٢ هـ الخاص بتأسيس مدينة إدريس الأول نجده يحرفها بحسن نية إلى ١٩٢ هـ ، وهو لا يعتقد أو يشك في أنه قد حدد بذلك مبدأ الرواية قد صارت مع الزمن تحمل طابع الحقيقة التاريخية . فنجد اللحظة التى يصرف فيها النظر عن سنتى ١٧٢ و ١٩٣ هـ كتاريخين لتأسيس المدينتين ، إلى سنتى ١٩٢ و ١٩٣ هـ ، فلا مجال للحديث عن إدريس الأول . وهكذا نرى أن الإنشامين لا يفصل بينهما غير عام واحد ، وليس واحداً وعشرين عاما ، بحيث

أصبحتنا بالضرورة منذ ذلك الحين تعتبران من إنشاء إدريس الثال .

- ٣ -

ويبدو لنا بعد هذا التحديد الزمني الجديد - كما استخرجناه من النصوص العربية التي ظلت غامضة إلى الآن - أن العرض الطويل الذي أورده « روض القرطاس »، يعتبره بعض القصور . ومن هذه الأسس الجديدة تتضح لنا تفاصيل جديدة تتفاوت في أهميتها ، وإن كان يصعب استخراجها . هذا ما يهنا عرضه الآن .

وأول هذه الأمثلة الفقرة الواردة في الرازي وقد ذكرناها آنفاً ، والتي أوردها أيضاً كتاب « الزهرة المشورة » ، فيما يختص بأسطورة الفأس التي كشفت في أثناء حفر إدريس الأول لأسس مدينته ، تلك الأسطورة التي حكاهما أيضاً ابن أبي زرع الذي يحكى بدوره أنه أخذها عن كتاب « الاستبصار » ، حيث لانبجدها على الرغم من ذلك ، أو على الأقل في النص الذي نُشر . ألا يمكن والحالة هذه أن نفترض حدوث عدة تخريجات أخرى مماثلة من « روض القرطاس » ، حيث نجد إدريس الثاني يتدخل فيها كشخصية رئيسية أقحمت على أصل إنشاء مدينة فاس على يد إدريس الأول كما رواها المؤرخون السابقون ؟

ويقل احتمال تحقيق هذا الفرض أو تأكيده في يوم من الأيام عن طريق كشف المصادر التي نقل عنها ابن أبي زرع في فصله

الخاص عن أصول المدينة . ومع هذا فإن هذه المصادر قليلة العدد .
ومع أن كتاب « القرطاس » ، يذكر البكرى كثيراً في معرض شرحه
للنشاط السياسي للأدارة الأولى ، إلا أنه لا يذكر أبداً مرجعه
الذي أخذ عنه ، عند ما يتعرض لتأسيس فاس :

وفي هذا الموضوع نجده يستفيد خاصة من كتاب مؤرخ يدعى
ابن غالب يختلف فيه الروايات التاريخية ، ولكنه يبدو أنه ترك تاريخاً
لفاس عنوانه « المقياس » ، نسخه عنه عبد الملك الوراق^(١) ،
في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . ولا نعلم كثيراً عن هذا المؤرخ
الآخر الذي لا ينبغي خلط اسمه بسميه الأقدم منه محمد بن يوسف
الوراق^(٢) ، المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، ومؤلف عدة

(١) لا توجد لدينا بيانات أخرى عن اللذة التي طاش فيها أكثر مما يذكره
هو نفسه في معرض حديثه عن المسجد الإدريسي في تلمسان (نص « روض القرطاس » ،
ص ٢٧ من طبعة تورنبرج Tornberg ، قلة الجزائري في « زهرة الأس » ، ص ٢٢ ،
وترجمته ص ٦٠) : « قال أبو مروان عبد الملك الوراق : دخلت مسجد تلمسان
سنة خمس مائة وخمس وخمسين (١١٦٠ م) . ومع ذلك يمكن ملاحظة أن في بعض نسخ
« القرطاس » تاريخاً آخر وهو سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) .

(٢) انظر عن هذا المؤرخ :

Pons Boigues : Ensayo bio-bibliográfico sobre los
historiadores y geógrafos arábigo - españoles

طبعة مدريد ، ١٨٩٨ ، رقم ٣٩ ، من ص ٨٠ - ٨١ ، والمراجع المذكورة به ،
وكذلك :

R. Brunschvig : Un aspect de la littérature historico-
= géographique de l'Islam

مؤلفات من بينها رسالة جغرافية عن شمال إفريقيا ، التي كانت المصدر الرئيسى للبكرى . ولا يبدو المقباس ، لابن الوراق مذكوراً في « القرطاس » ، إلا عن طريق ابن غالب . وهذه بغير شك هي نفس حالة ابن أبي زرع عندما نقل هو أيضاً بطريق غير مباشر شهادة مؤرخ آخر يدعى البرنسى . ولا يعلم عنه إلا أنه كان يسمى بالضبط باسم محمد بن حمدوه البرنسى ، وأنه كان من مدينة سبّنة ، وأنه عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر (١) ، وأنه وضع تاريخاً عن المغرب والأندلس عنوانه « المقابس » .

ذكرنا آنفاً أن مدينة فاس في عصر إدريس الأول ، كانت لا تبدو أكثر من أنها مدينة بربرية صغيرة . ولم يزل بمراكش أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يحمل طابع القرى الرعوية خاصة . وهي تكون غالباً تكتلات قليلة الكثافة إلى حد ما ، تنشأ في طريق جبل أو في الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصيناً بدائياً ، حيث نجد لها متراصة بوجه عام ، على سفح ينحدر إلى بطن أحد الأودية ، ويمكن

== مستخرج من : Mélanges Gaudet - Démombynes

طبعة القاهرة ١٩٣٧ ص ١٥١ - ١٥٢ .

- (١) كانت تليداً لقاضي عباس البعصي السبتي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ - ١١٥٠ م) . انظر R. Brunschvig في كتابه المذكور ص ١٥٦ حاشية ٢ عند كلامه على مؤرخ آخر اسمه مشابه . وقد ذكر المؤلف المجهول لكتاب « مفاخر البربر » كتاب « المقابس » كما ذكره ابن عذارى في كتابه « البيان » والقرى في كتابه « أزهار الرياض » .

إقامة سوق متنقلة تحت حوائطها مرة كل أسبوع . أما في الداخل فيلاحظ - فيما عدا البيوت ذات المظهر الفقير جدا - وجود مراعى للماشية ، وفي بعض الحالات يلاحظ وجود مخازن جماعية ، تكون مخصصة لاختزان حبوب الأهلين . هذه المخازن الجماعية أو الأجادير ، تأخذ أحيانا مظهر قلاع حقيقية : وهى لم تزل للآن كثيرة جنوبى مراکش حيث بحثها الباحثون ^(١) ، وإن وجدت أيضا فى مراکش الوسطى .

وقد اختفى كثير من هذه المدن الصغيرة على مر الزمن ، غير أن البكرى فى القرن الحادى عشر ، بل وليون الإفريقى أيضا فى مطلع القرن السادس عشر يقرران وجود قليل من مثل هذه المدن الصغيرة المحصنة فى كل الجزء الغربى من بلاد البربر ، محاطة بحيطان من الأحجار . وقد ازدهر بعضها وصار مدنا حقيقية ، كما حدث فى مدينتى أغمات ونفيس عند قاعدة الأطلس الكبرى ، وهما اللتان هدمتا منذ زمن طويل ، ومثل المدينة المتسعة ، التى كانت مكناس البدائية ^(٢) . هذه كانت بلا شك فاس العتيقة .

(١) انظر :

. Montagne : Un magasin collectif de l'anti atlas l'Agadir des Ikounka

الوارد فى مجلة Hespérís ج ٩ سنة ١٩٢٩ ص ١٤٥ - ٢٢٦ . انظر خاصة نفس المرجع ص ٢٠١ - ٢٠٢ فيما يختص بالعوامم الجماعية فى شمال مراکش .
(٢) يرجع الفضل فى الحصول على بيانات واقية عن أصول مكناس إلى السكتيب = (م ٣ - دراسات فى المغرب والأندلس)

وإنه ليتطرق إلينا الشك على الأقل عندما نفحص عن كُتب
البيانات التي أوردها « روض القرطاس » ، بصدد التأسيس الإدريسي
الأول ، حيث نقرأ فيه أن إدريس بدأ بإقامة خيامه على الحافة الشرقية
للموقع الحالي للمدينة ، وأنه أحاط معسكره بجدار (جَدْر) من جذوع
الشجر والغاب .

وكان في داخل هذا الجَدْر — وهي كلمة كما أوردها المؤرخ ،
لا يمكن أن تكون غير مجرد نقل عربي للاسم القديم البربري الفينيقي
أجادير " — يجتمع مجلس مشايخ البربر ممن كانوا بقية اللاجئين

= الصغير ادى كتبه ابن غازي المتوفى سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) والسمى :
« الروض المثلون في أخبار مكناسة الزيتون » (طبع حجر في فاس سنة ١٣٢٦ هـ ،
ترجم جزءاً منه :

O. Houdas : Monographie de Mequinez

الوارد في Journal Asiatique ، ١٨٨٥ ، مجلد ١ ص ١٠١ — ١٤٧ .
انظر كتابي :

Historiens des Chorfa (من ص ٢٢٧ — ٢٢٩) والتعليقات التي ذكرها
المؤرخ المعاصر عبد الرحمن بن زيدان التلوي في المجلد الأول من تاريخه عن مكناس
المسمى « إتحاف أعلام الناس » ، طبعة رباط ١٩٢٩ .
انظر أيضاً :

H. Terrasse : Villes impériales du maroc

ص ٢٠ و ١٣٠ — ١٣٢ .

(١) تحولت إلى أجدير Adjdir في بعض أسماء المواقع بمنطقة الريف . انظر :
R. Montagne في كتابه المذكور آنفاً ص ٢٠٢ وحاشية ٤ ، فيما يتعلق بجَدْر
— أجادير djadr-agadir : انظر فيما يتعلق بأجادير تلمسان كتاب : =

إلى الشرق . ولا يزال يسمى إلى اليوم احد مجالس إقليم الريف باسم
أجراو Agrau^(١) ، وهى كلمة باقية من ذلك العهد تشير إلى موقع هذا
المعسكر الذى سمي فى القرن الرابع عشر ، ولا يزال يسمى اليوم
أيضا ، غارواوا Garwawa .

وحتى جامع مدينة فاس الفطرى الذى لا نعرف عنه غير قليل
من المعلومات ، يحمل هو أيضا فى نفس تسميته طابع البربرية ،
وهو اسم « مسجد الشيوخ » ، أى شيوخ البربر وهم الإغمارين

J. L. Bargès : Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce ==

طبعة باريس ١٨٥٩ ص ١٥٢ - ١٥٣ وكذلك كتاب :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen

ص ١٢ حاشية ٢ .

(١) انظر :

R. Montagne : Les Berbères et la Makhzen dans le Sud
du Maroc

طبعة باريس سنة ١٩٣٠ ص ١٧٥ وحاشية ١ . والريب أن اليزق ذكر هذا اللفظ
منذ القرن الثانى عشر واستعمله فى المعنى العربى « مجلس » فى صدد الحديث عن نوار
غزوله ، واتحادهم السابق لذبحهم على يد الخليفة عبد المؤمن فى سنة ٥٣٩ هـ
(١١٤٥ م) . انظر :

E. Lévi-Provençal : Documents inédits de l'histoire almohade

طبعة باريس ١٩٢٨ النسخ ص ٩٥ وترجمته ص ١٥٥ . انظر أيضاً ص ٢٣٢ .
وهذا الاستشهاد القديم إلى هذا الحد بكلمة لاتزال إلى الآن مستعملة فى شمال مراكش
يبدو أنه لم يذكر فى :

G. Marçais : Les phrases berbères des « Documents Inédits
d'histoire almohade »

الوارد فى مجلة Hespéris ج ١٤ سنة ١٩٣٢ ص ٦١ وما يليها .

Imgharen الذين اعترفوا بزعامة إدريس ، ورافقوه في رحلاته .
 هذا الجامع بلا شك - شأنه شأن كل المنشآت في هذه المدينة الصغيرة
 البدائية - لا بد أنه كان شيئا بالغاً غاية التواضع ، فالماء اللازم
 للوضوء فيه كان يستخرج من بئر ، ولم يكن هناك أحد فكر بعد
 في حفر قنوات مائية تأخذ من النهر القريب . كما أن الأحياء الخاصة
 بالفروع القبلية من السكان لم تنشأ إلا فيما بعد ، وهى أحياء صنهاجة
 واللواتة ومصمودة وآشنيخن Ashnikhen .

ويمكننا استنتاج أن مدينة فاس ، بعد وفاة إدريس الأول ، عاشت
 في تراخٍ ودعةٍ تامة داخل حدودها ، وإن كان رشيد قبل تولية
 إدريس الثانى نفسه فى سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤ م) قد أقام عليها ممثلاً ،
 أو مندوباً عن حكومة المخزن فى وليلة . وعلى أى حال نكرر
 القول بأنه قد ضربت فيها العملة فى سنة ١٨٥ هـ ، أى قبل هذه التولية
 بثلاث سنوات ، ثم فى سنة ١٨٩ هـ ، أى بعد ذلك بسنة أيضاً .

ولم يجد البربر القاطنون فى وليلة هذه مناصاً من ترك هذه
 البقعة للعرب . وكتاب « روض القرطاس » يصف لنا كيف تم
 هذا . وفى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) نجد إدريس الثانى - وقد أتم سنته
 الرابعة عشرة - يستقبل فى حفل من خمسمائة فارس عربى يصلون
 من إفريقية وإسبانيا ، حيث يجتمع ممثلو نخبة الأراستقراطية العربية ،

عن ينتمون إلى قبائل قَيْس والأزد ومَذْحِج ويَحْصَب^(١) والصَّدِف^(٢).
ويظن أن هؤلاء كانوا ساخطين على الحكم الأموي في بلاد
الأندلس أو حكم الأغالة في إفريقية ، بحيث عد مجيئهم كَسْبًا نادرًا ،
وذلك لأن إدريس كان يشعر بالعزلة والوحدة في الوسط البربري
الذي أحاط به منذ ولادته ، وأخذ يستغل وجود هذا الفريق المهم
من العرب المُخْلِص من حوله للتخلص تدريجاً من البربر المحيطين به .
ولا يلبث أن يصبح له بلاط عربي بحت ، له وزير وكاتم سر وقاض
منتخبون من أفاضل الوافدين الجدد . ولا يلبث أن يقرر بناء
على مشورتهم — وإن كان ذلك من غير الكياسة بل وربما من غير
الصواب أيضاً — أن يحتفظ بمقامه في قلب أَوْرَبَة Awraba التي لم
يكن يثق بها ، رغم ترحيب رجالها بأبيه ، وإقامتهم إياه أميراً عليهم
منذ عدة سنوات مضت .

صار هذا القرار لافر منه منذ اللحظة التي قتل فيها في سنة ١٩٢ هـ
الزعيم الحقيقي لحلفائه البربر وهو أبو ليلى إسحق . وعلى هذا يغادر
إدريس الثاني مدينة وليلة مع حلفائه العرب ، ويلجأ إلى مدينة فاس ،
لعله يأمن بأهلها ، ولا يجد فيهم الميول القبلية التي كانت لقبيلة أوره .
ومع هذا فإن ليلة لاتهمجر هجراً تاماً . إذ يعود إدريس الثاني إليها

(١) مثناة الصاد . نسبة إلى يحصب بن مالك من قبيلة حمير في اليمن . راجع
القاموس المحيط ، مادة (حصب) واكتفاء الفروع بما هو مطبوع لفنديك م ١٣٠ .
(٢) صدف على وزن كتف بطن من كنده (انظر القاموس مادة الصدف) .

ويموت فيها ، كما ورد في أحد النصوص ويبدو أنه صحيح .

وكان إدريس الثاني صغيراً جداً لا يحتمل وحده عبء قرار كهذا ، ولكنه لم يعدم وجود مشيرين من بين خلائعائه العرب ، وفي مقدمتهم وزيره عُمر بن مصعب الأزدي . وعمر هذا معروف لنا معرفة لا بأس بها ، وهو جد أسرة من فاس ، أصبحت ذات شأن بفضل صلاتها بأسرة تلتها وهي أسرة بني الملقوم .

وفي « القرطاس » رواية مفصلة عن كشف موقع فاس ، يستفاد مما ورد فيها وكذلك مما ورد في « ذكر مشاهير أهل فاس في القديم » (١) - وهي رسالة مجهولة المؤلف ترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر -

(١) يوجد بالكتبة العرفية برباط تحت رقم D. 1394 مخطوط وارد من المكتبة القديمة لبحثة العلمية بمراكش . وقد نسب هذا الكتيب الصغير أحياناً إما إلى عبد القادر الفاسي التوفي سنة ١٠٩١ هـ (١٦٨٠ م) ، الذي يقارن به كتابي : *Historiens des Chorfa* ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، وإما إلى مؤلف « روضة النبرين » وهو أبو الوليد لإسماعيل بن الأحمر التوفي في فاس سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ - ١٤٠٥ م) . ويبدو أن ثاني هذه النسبة أكثر صواباً ، على شرط أن نسمح بأن البيانات المتعلقة بحوادث تالية لوفاته ابن الأحمر ، والتي نجد مراراً في هذا الكتيب ، والمتعلقة بالقرن التاسع الهجري بأمله ، قد أدخلت عليه بعد تجميعه . انظر عبد الحى الكتاني : فهرس الفهارس ، طبعة فاس ١٣٤٦ هـ . ج ١ ص ١٠١ وكذلك :

Actes du VIIIe Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines

الوارد في مجلة Hespéris ج ١٩ ، ١٩٣٤ ، ص ١٩٦ .

أن والد عمير هذا ، واسمه مُصْعَب ، كان مقيماً بإسبانيا ، واشتهر في جهاد المسيحيين .

والظاهر أن الوزير عُمير - الذي قيل عنه أنه تزوج عاتكة ابنة إدريس الثاني (١) - قد قام بدور مهم حاسم في تأسيس مدينة « عدوة القيروانيين » . ولا شك أنه أقنع سيده الشاب بالآلا يقيم مقره في مؤسسة أبيه . مدينة فاس ، وأن يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن إنشاءها المدني الحقيقي الجدير بالمدن السورية والأندلسية الزاهرة في ذلك الوقت . فأنشأ في المدينة الجديدة قصراً للإمارة كما بنى مسجداً اسمه مسجد الأشراف ، وهو اسم يذكرنا بالسلالة النبوية للأدارسة . وأنشأ أيضاً قيسارية كذلك التي نراها في دمشق وقرطبة .

وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعاً ، وكان أحد أجيائها خاصاً بيهود استقروا فيه وتزعموا النشاط التجاري . على أن الذين كانوا من العرب أو الموالي إنما كان أغلبهم من أولئك

(١) أخذنا هذه المادة المتعاقبة بذكر مشاهير أهل فاس في القديم ، فيما ذكره عن بني اللججوم من سلالة عمير (مخطوط من رباط حميم كبير ورقة ٢ خلف) . وهذا الشخص ربما يكون قد تزوج من امرأتين أخريين ، عدا عاتكة هذه ؟ إحداهما من بني الحبر من زواغة ، والأخرى من بني بهلول أحد فروع زناتة . وزواج عمير من عاتكة ابنة إدريس الثاني يبدو أصراً غير محتمل التصديق . وعلى فرض حدوثه فلا بد أنه تم في أواخر أيام إدريس الثاني المتوفى - كما نعلم - في السادسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين من عمره .

غارين القيروانيين من وفدوا لخدمة الحكومة الاغلبية بإفريقية .
 ١١ البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه : إذ كانت لهم مدينتهم
 الخاصة ذات الطابع الذي يميز حياتهم ، وكانت قرية من منازلهم .
 ومن هذا نعلم أن إدريس الثاني قد احتفظ بمدينة فاس لكي
 تكون سكناً لجنده البربر ولضباطهم ، وهناك أيضا كان مناخ الدواب
 وخبول الفرسان . أما حاشية الأمير أو خاصته من العرب ، فقد
 استقرت معه على الضفة اليسرى من النهر .

وكل الدلائل تدل في النهاية على أنه بينما كانت مدينة إدريس
 الثاني تنمو وتزدهر ، إذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة في مضمار
 المدن العربية ، بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذلك بعدة
 سنين — عندما سمح الأمير للقرطبيين من أهل الربض بالإقامة فيها —
 لم تكن بلا شك أكبر من مجرد قرية كبيرة تقوم على بيوت متواضعة
 من اللبن ، مغطاة بفروع الأشجار . وكان على الأندلسيين أن يحسنوا
 مدينتهم سريعا ، ومع هذا فقد تركوا في أحيائها المتطرفة طابعا ريفيا
 قويا ، لم يزل باقيا إلى اليوم ، رغم مرور قرون عدة من الزمان .

— ٤ —

ولكى نستوعب الروايات المتواترة عن تأسيس فاس ، كما وردت في « روض القرطاس » ، يجب علينا أن نفحص سلسلة كاملة من الآثار والمعالم التاريخية ، وهي — على الرغم مما يحيط بها من الخرافات — قد تهدينا إلى بحث مسألة لم تظفر حتى الآن بالبحث الكافي : ألا وهي مسألة الأصول التي سبقت الإسلام في فاس .

ويتفق ابن أبي زرع مع الجزئائي في إيراد بعض الحقائق الخاصة بالمحتلين لموقع المدينة المستقبلية في وقت الاستقرار الإدريسي . وهي حقائق يؤيدها أحياناً ويكملها ذلك المصنف المجهول المؤلف الخاص بالأسر الشهيرة بفاس ، وقد أوردنا ذكره آنفاً .

ويؤخذ مما ساقه صاحب القرطاس وما تضمنته الروايات المعاصرة الأخرى عن بني ممرين أن موقع فاس في مطلع القرن العاشر كان يسكنه صنفان من بربر زناتة هما : زواغة وبنو يزغين^(١) ؛

(١) في طبقات « القرطاس » المختلفة عدة تصحيحات متباينة لاسم هذه العشيرة . وقد أخذت هنا بما ورد في كتاب « ذكر مشاهير أهل فاس » ، كما أوردته أيضاً A. Bel في ترجمته « لزهرة الآس » ص ٤٠ وحاشية ١ باعتباره الأفضل ، وذلك لقربه من اسم القبيلة البربرية الهامة الحالية في جنوب فاس وهم بنو يزغة Yazgha .

والأولون على الضفة الشرقية من النهر ، والآخرون على الضفة اليمنى .
ومن هاتين العشيرتين اشترت الأرض اللازمة لبناء المدينة .
فتنازل بنو يَزْعَنٍ أولاً عن البقعة التي أصبحت فيما بعد ، عدوة
الاندلسيين ، بثمن بلغ ألفين وخمسمائة درهم ، كما باعت إحدى عشائر
زواغة - وتدعى بنى الخير - بعد ذلك أرضها بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة
درهم ؛ وهى البقعة التي صارت فيما بعد تدعى « عدوة القيروانيين » .

من كان هؤلاء المحتلون ؟ من المؤكد أنهم سكنوا خياماً من شعر
المعز وهذا ما يجعلنا نعتقد أنهم كانوا رعاة يمتنون تربية الماشية ، بحيث
لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف الأرض التي على جانبي النهر ، حتى
ظلت كثيفة منقطعة بالعشب ، تغشاها الحيوانات الضارية والخنازير
البرية ، وليس هناك ما يغير هذه الحقيقة .

ويبدو لأول وهلة أن هؤلاء المحتلين القليلي العدد لم يكونوا مسلمين
فحسب ، وإنما كان من بينهم أيضاً يهود ومسيحيون ومجوس^(١)
أى عبدة النار . ومع هذا فإن أبى زرع يكتب عن هذا الموضوع

(١) لبحث موضوع أتباع زرادشت واعتنائهم الإسلام انظر : V. F. Büchner :

فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ من ص ١٠١ - ١٠٥ .

كتابة مقتضبة ، وكذلك الجزائى وابن خلدون^(١) . ومن المؤكد أنه فى هذه الحقبة وفى بلد لم يكن الإسلام قد انتشر فيه بعد بحدوره العميقة بدرجة كافية ، يحتمل وجود جماعات ظلت مرتبطة قليلا أو كثيراً بالعقائد المقتبسة عن اليهودية أو النصرانية كما أن وجود المجوس عباد النار أدهش الرواة الذين يصفونهم ، وزاد فى دهشتهم بناء هؤلاء المجوس لمعبد يزاولون فيه عبادتهم فى الشبوبة ، وتقع فى شمال الجزء الشرقى من تلك البقعة ، قريباً جداً من النهر .

أما ذكر مشاهير أهل فاس ، فهو أكثر دقة أيضاً فيما أورده عن أسرة بنى عبودة ، إذ نقرأ فى هذه الرسالة^(٢) : أن هذه الأسرة كان جدها يسمى عبودة ، وكان قِيماً على النار التى كان يعبدها سكان فاس ، قبل تشييد المدينة . فما أن اشترى الإمام إدريس هذا الموقع ، حتى بناه لصالح أولئك الذين يعبدون الله إلى يوم القيامة ، بعد أن هدم بيت النار . وكان هذا البيت فى البقعة المسماة باسم شبوبى ، وهى جزء من مدينة الأندلسيين . وعند ما استقر الإمام فى غارواه Garwawa دعا الناس إلى بناء بيوت لهم ، وكان من بين النازلين فيها من يعتنقون دين المجوس عبدة النار ، والنصارى عبدة الصليب ، واليهود أصحاب

(١) أدخل هذا المؤرخ قصة قصيرة عن تأسيس فاس فى الفصل الخامس من كتابه بر « التلميح بتاريخ الإدارة » .

(٢) حاشية رقم ٦٣ حجم كبير ورقة ١٢ خلف ، من مخطوط الرباط .

عقيدة التجسم ، كل أولئك تحولوا إلى الإسلام . وكان عبودة من بين أولئك الذين أسلموا على يد الإمام إدريس ، وكان أصلاً من عشيرة بني يزغَن الذين كانوا من البربر .

وإذا كان وجود هؤلاء المجوس في مكان فاس يبدو لنا صعب الاحتمال ، فإن وجود تجمعات يهودية يعتبر أكثر قبولاً ، إذ أن وجودهم كان مؤكداً في كل شمال إفريقية — فضلاً عن باقي بلاد البربر — في وقت ظهور الإسلام . كما يبدو أنه لا مانع من الاستنتاج دون خشية أو حرج أن جانباً من الجالية اليهودية التي احتوتها فاس دائماً منذ القرون الأولى لوجودها ، يمكن ربط أصولها بهذه المجموعة المتهودة من البربر الزناتيين^(١) . وهل تحول هذا الفريق — كما تقول الروايات المتواترة — إلى الإسلام على يد الأمير العربي؟ قد يكون هذا موضع شك ، وعلى أي حال فالقرطاس ، يلاحظ أنه منذ ولادته ، والمؤسسة المدنية الجديدة تجتذب إلى داخلها أفواجا من اليهود . فقد خولهم إدريس الثاني حق بناء حى في الجزء الشمالى من الموقع الغربى ، وذلك نظير دفع ضريبة الرأس المحددة سنوياً

(١) لا يمكن الوثوق تماماً في المؤلفات الخاصة بأصول يهود مراکش تأليف

N. Slouch في Archives Marocaines ج ٤ و ٦ بعنوان :
Etude sur l'histoire des Juifs au maroc.

وكذلك ج ١٤ بعنوان :

Hebréo - Phéniciens et Judéo - Berbères. Introduction à
l'histoire des Juifs et du Judaïsme en Afrique.

بمبلغ ثلاثين ألف دينار . وتعطى ضخامة هذا المبلغ فكرة عن عدد المهاجرين اليهود الكبير نسبياً .

وكذلك لاداعي للشك — دون تثبت — في وجود جالية مسيحية — أو المسيحية ذاتها — في آخر القرن الثامن في موقع فاس ، أو ما حولها . دون فحص أو تمحيص . وهناك عدد من التفاصيل التي تبدو مؤيدة لهذا الرأي ، رغم ورودها بشكل أسطوري واضح . والمعروف أنه ليس من النادر أن نجد في روايات تأسيس المدن الإسلامية ما يصوره شاهد عيان بصورة روائية ، مصحوبة باستشارات فلكية وتوضيحات دينية ، بل كانوا يلجأون أيضاً إلى تنبؤات عن الحظ المنتظر للمدينة المقبلة .

ونذكر من هذا القبيل فيما يختص بالغرب الإسلامي ، روايات استفاضة في إسبانيا ، في نهاية القرن العاشر عن مقر الزهراء والزاهرة ، المنشأتين غربي قرطبة وشرقيها على يد الأمويين والعامريين (١) .

ففيما يختص بتأسيس فاس ، لم نعدم وجود روايات مماثلة قبل مؤرخو العصور الوسطى بعضها . ولقد لاحظنا الآن بحق كيف أن اغتيال اللص الزنجي علون بأمر إدريس الثاني ، أمكن

(١) انظر خاصة :

E. Lévi-Provençal : La péninsule ibérique au moyen-âge d'après le Kitab ar-Rawd al mi'tar.

تأويله بحسب رواية القرطاس « باعتباره تضحية حقيقية في سبيل البناء »^(١) . ولا يقل عن هذا دلالة ما ورد في نفس الكتاب من تفصيل يتصل بمقابلة مؤسس فاس لأحد الرهبان المسيحيين . هذا الراهب الذي عاش زاهداً في صومعته^(٢) ، يقال إنه تنبأ للأمير العربي نبوءة خاصة به ولم يكن يعرفها أحد سواه ، كما يقال إن زاهداً آخر عاش في نفس الدير ، أسر إليه بأن حاكماً مسلماً اسمه إدريس ، سوف يقيم المدينة التي كانت مهدمة من زمن طويل ، وكانت قائمة في نفس البقعة من قبل باسم ساف .

ولعل إدريس قد مال إلى الاحتفاظ لمؤسسته باسمها القديم الذي كانت تحمله لتأثره به ، وذلك بالتجائه إلى قلب الحروف ، مما نتج عنه اسم فاس . ويؤكد ابن أبي زرع حدوث هذا الاشتقاق في تسمية المدينة ، ويعتبر ذلك — في نظره — الرأي الراجح !

وهناك اشتقاق آخر لاسم فاس ، يجب ذكره ، فيما يتعلق بكشف فأس وجدت مدفونة في الأرض ، أثناء عمليات حفر وبناء أحد أحيائها . ولم يكن هذا هو الكشف الوحيد ، إذ يورد « القرطاس »

(١) انظر : A. Bel في ترجمته لـ « زهرة الآس » ص ٥٤ حاشية ٣ .

(٢) انظر : R. Dozy في كتابه :

Supplément aux dictionnaires arabes.

ايضاً ما ذكره البرنسي ، وذلك أن يهودياً استخرج في أثناء حفره
 لأساسات بيته — في أرض كانت مغطاة إلى هذا الوقت بالاشجار —
 تمثالاً لامرأة من الرخام يحمل نصوصاً محفورة بحروف غامضة
 حميرية أو هندوسية^(١) . وقد حلت رموز هذه النصوص ، فجاء
 فيها أن « هذا موقع حمام حار كان مأهولاً منذ ألف سنة ثم دمر ،
 وأقيم في مكانه بيعة للعبادة » .

وهنا ندرك بسهولة أنه من العبث ، ومن غير المجدي أن نبحث
 في القيمة التاريخية لكل من هذه الروايات القصصية الثانوية
 عن تأسيس فاس . وإذن أفليس من الأجدي أن ننظر إلى هذه
 الروايات على اعتبار أنها تصور رواية عملية غامضة غدتها العناصر
 القصصية لم يستطع دخول الإسلام في مراکش أن يمحوها تماماً
 من ذاكرة الناس ؟ ومع هذا فلو ارتضينا هذه الروايات وماتوحي به
 لخرجنا منها بأنه قد وجدت مدينة قديمة في نفس البقعة التي بنيت عليها
 فاس وسط البراري والمياه الجارية ، لتخرج للعالم الإسلامي إحدى
 عواصمه الزاهرة .

(١) خطل الجزنائي في كتابه الخط الهندي ببارة القلم المسند التي أوردتها
 « القرطاس » (انظر « زهرة الآس » - النسخ ص ١٨) ، وهي غالباً ما تستعمل
 كدلالة على حروف الكتابة في جنوب بلاد العرب — وقد جهلها الرحالة المسلمون
 كذلك فلم يدركوها وصارت كالمبروغليفية .

وأى اعتراض يمكن أن يرد على هذا الفرض ؟ أهو الافتقار إلى شواهد أثرية ؟ ولكننا نقسامل : هل كشفت أرض فاس ، أو هل كشفت أراضي ما حولها من الحدائق ؟

من المسلم به اليوم أن مر تازة قد استخدم مدة من الزمن — على الأقل — ليكون طريقاً يصل في العهد الرومانى بين مدينتى موريتانيا Maurétania : تنجيتان Tingitane وقيسارية الواقعتين بين ويلة ومنازل بوماريا Pomaria (تلمسان) وألتافا Altava ، (لاموريسيير) Lamoricière . وتحمل الكشف التى تمت منذ عهد قريب فى شمال وجنوب منطقة فاس فى آودور Aoudour وأنوسير Anoceur على اعتقاد أن التوسع الرومانى قد بلغ هذا الممر الذى كان يعد من النقاط الاستراتيجية الهامة ، كما يثبت ذلك من بقايا نص وجد فى وادى بوجلو^(١)

وحينئذ يكون موقع فاس ، بصفته موجودا على الحد الغربى لهذا الممر ، ملائماً جد الملاءمة لتأسيس مركز مدنى ، أو على الأقل ثكنة

(١) انظر : L. Chatelain : Les centres romains du maroc

المنشور فى :

Publications du service des antiquités du maroc

ملزمة رقم ٣ ، طبعة باريس ، من ص ٢٧ — ٣٨ .

انظر أيضاً قائمة المراجع المذكورة فى نفس الكتاب ص ٤١

عسكرية على جانب من الأهمية ، إذ كان له ميزة السيطرة عن كسب على سهل وادى سبو ، والقرب من واحة خولان ذات البنابيع الحارة ، التي كانت ذات أهمية خاصة لاستعمال الرومان ، حيث اعتبروا دائماً من أكبر هواة المياه الحارة . وقد يكون من الفضول أن نستطرد أكثر من هذا في تلك السلسلة من الاحتمالات ، ومن بدرى فلعل الحظ يسمح يوماً بتقصي هذه الاحتمالات بناء على أساس ثابت ؟

على أن الحجج لا تعوز من يريد الدفاع عن وجود منشأة مسيحية ظهرت بعد ذلك على موقع هذه المدينة الرومانية المفترضة . ونعلم منذ كشفت سلسلة من النقوش المتأخرة في قولوبيلس Volubilis أن المسيحية قد ظلت مدة طويلة في شمال مراکش ، كما كانت في غرب الجزائر بعد الانهيار النهائي للحكم الروماني . وقد وجدت نقوش ضئيلة في الأطلال المجاورة لولاية ترجع إلى سنوات ٥٩٩ و ٦٠٥ و ٦٥٥ ميلادية^(١) ، أي إلى حقبة

(١) انظر :

J. Carcopino : Note sur une inscription chrétienne de Volubilis المنشورة في مجلة Hespéris ج ٨ سنة ١٩٢٨ من م ١٣٥ - ١٤٥ وكذلك :

R. Thouvenot : Note sur deux inscriptions chrétiennes de Volubilis.

ونفس المصدر ج ٢١ سنة ١٩٣٥ من م ١٣١ - ١٤٠ وخاصة في الآخر ، وكذلك :

J. Carcopino : Note sur une inscription chrétienne de Volubilis

المنشورة في : Revue de Philologie ج ١٠ سنة ١٩٣٦ من م ١٠٥ - ١١٢ .

(م ٤ - دراسات في المغرب والأندلس)

لم تكن كما نرى انبعد كثيرا عن الحقبة التي استطاع فيها راهب فاس ، كما تقول الأسطورة ، أن يشجع إدريس على تأسيس مدينته ، ويتنبأ له بازدهارها اللامع .

وإذا قبلنا في هذه الظروف الرأي القائل بوجود دير مسيحي في فاس في آخر القرن السابع ، فقد يكون من السهل أن نفهم كيف أن أحد الأبواب في أول الأحياء الإدريسية الذي كان يفتح في قلب الشرق ، كان يحمل اسم باب الكنيسة ، وهو اسم لا يمكن تفسيره تفسيراً آخر . والعجيب أن هذه التسمية الجريئة لا تبدو في كتاب « القرطاس »^(١) وقد وردت فيه الرواية بعد أن شوهدت الأسطورة ، بل إنها تبدو أيضاً في كتاب البكري الذي لم يكتبها بمحض المصادفة . فهذا الأندلسي كان يعلم جيداً معنى الكنيسة ، إذ عن طريقه عرفنا وجود كنيسة في زمنه في مدينة تلمسان^(٢) . فهل كان لفاس القديمة أيضاً - مثلاً - كان لتلمسان الأولى - كنيسة وجاليتها المسيحية ؟ هناك من الأدلة ما يشجع على ذلك . وهكذا تبدو عاصمة شمال مراکش ، منذ بدء تاريخها الإسلامي ، واثرة مباشرة ومخالصة لماض طويل من الحضارة .

(١) « جزائري مزغنة » أو Description de l'Afrique Septentrionale

ص ١١٦ .

(٢) نفس المصدر — ص ٧٦ . وهو يقول بوجود أطلال آثار عديدة قديمة بها ، كما توجد بقايا شعب مسيحي ظل بها إلى اليوم . كذلك توجد بها كنيسة لا يزال المسيحيون يشيرون إليها الآن .

انظر : J. J. L. Bargès : Tlemcen, p. 175 وكذلك :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen, p. 14.

الفصل الثاني

ملاحظات عن أسماء المواقع الإسبانية المغربية

أسماء البوابات : باب الشريعة ، والشريعة في مدن المغرب الإسلامي في العصور الوسطى .

ظهر هذا المقال في هويلات معهد الدراسات الشرقية بجامعة

الجزائر ، الجزء الثاني سنة ١٩٣٦ ، من ص ٢١٠ - ٢٣٤ .

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université d'Alger

لم تطبق إلى الآن على المدن الكبيرة في إسبانيا الإسلامية والمغرب العربي طرق البحث المسماة باسم الطبوغرافية التاريخية ، تلك الطرق التي أدت منذ سنوات عديدة إلى نتائج باهرة عن بعض مدن الشرق ^(١) . وقد هدفت بعض البحوث الحديثة

(١) انظر خاصة :

J. Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas

النشور في : Revue des Etudes Islamiques طبعة باريس سنة ١٩٣٤

ص ٤٢١ وما يليها ، وكذلك :

L. Massignon : Explication du plan de Kûfa (Irak)

النشور في : Mélénges Maspero الجزء الثالث من مجموعة

ج ٦٨ ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٥ ص ٣٣٧ وما يليها ، وكذلك :

=

عن عواصم العصور الوسطى خاصة ، ومنها قرطبة على وجه التحديد^(١) ، إلى تحديد المواقع التي تعززها الوثائق القديمة في نطاق الخطة الحالية للبلد . غير أن معلوماتنا لا تزال محدثة عن معظم المدن الكبرى لبلاد المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ، وبخاصة العواصم الإسبانية . ولا شك في فائدة البحوث التي من هذا القبيل . والامر في هذه البحوث أيسر بالنسبة للمدن المراكشية منه بالنسبة للبلد الإسباني .

وقد كان يحدث دائماً — في زمن حركة الاسترداد المسيحي في شبه جزيرة أيبيريا — أن تنهض مدينة مسيحية على أطلال مدينة قديمة النشأة واصطبغت بالصبغة الإسلامية عند الفتح العربي ، أو مدينة نشأت في العهود الأولى من الفتح الإسلامي وهذا نادر الوقوع ؛

J. Sauvaget : Alep; essai sur le developpement d'une =
grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^e siècle,
طبعة باريس سنة ١٩٤١ .

(١) انظر :

R. Castéjon y Martínéz de Arizala : Córdoba califal.

المنشور في :

Boletin de la Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles
Artes de Córdoba.

الجزء الثامن ، رقم ٢٥ ، طبعة قرطبة ، ١٩٢٩ ، من ص ٢٥٥ — ٢٣٩

وكذلك :

E. Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au X^e siècle :
Institutions et vie sociale.

طبعة باريس ، ١٩٣٢ ، من ص ٢٠٢ — ٢١٠ .

ومع ذلك فإن الجانب العمراني لم يكن يتغير تغيراً سريعاً بلا شك . أما في العصور الحديثة ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، فقد دخلت عليها تعديلات عامة جعلت عمل المؤرخ والأثرى شاقاً إلى أبعد حد . فقد أخذت المدينة الانتماسية تفقد -- شيئاً فشيئاً -- ارتباطها بماضيها الإسلامي ، مما أدى بأسماء اللواقع القديمة المستعملة في العصور الوسطى إلى أن حلت محلها أسماء جديدة لم تكن مجرد تحويل إسباني لأسماء عربية قديمة .

والأمر على العكس من ذلك في المدن المراكشية ، فلم تطرأ عليها إلا تغيرات طفيفة ، حتى لقد احتفظ بعضها بنسبة كثافة السكان التي كانت لها في العصور الوسطى ، في حين قل السكان في مدن أخرى ، بحيث صارت مغلقة في أحباء متسعة ، ومع هذا فإن عدداً كبيراً من أسماء شوارعها الحالية وبواباتها يرجع إلى خمسة قرون أو ستة . وقد شهدت مدن أخرى - بفضل ظروفها السياسية في القرون الأخيرة - تطوراً جديداً حدث في صورة توسع لمناطقها العمرانية ، مثل مراكش عاصمة السعديين ، ومكناس التي ما لبثت أن صارت مدينة ملكية في عهد مولاى السلطان إسماعيل بن العلويين . وعلى العكس من ذلك شهدت فاس - مقر بني مرين الذين جعلوها في القرن الرابع عشر - اضمحلالاً سياسياً شديداً بعد سقوطهم الذي كان قد أثر في وقوف التطور العمراني ، بحيث تحولت هذه المدينة

إلى مكان عادي يختلف تمام الاختلاف عن الوصف الذي وصفها به
ليون الإفريقي في فترة تالية مباشرة لأعظم عهدها ازدهاراً .
على أن لدينا ، فيما يختص بتاريخ أسماء الأماكن في هذه المدينة
العتيقة ، وثائق أدبية وأثرية كثيرة جداً ، هذا إلى الصفحات القيمة
التي كتبها منذ عدة سنوات الأستاذ لويس ماسينيون^(١) ،
في معرض تحقيقه لمواقع هذه المدن حتى القرن السادس عشر ،
كل ذلك مما يعين على الانتفاع بالمواد التي اكتشفت أو نشرت بعد
بحثه ، والانتفاع كذلك بالبحوث التي أجريت في نفس هذه المواقع ،
وبنيت على دراسة طبوغرافيتها المستعملة لهدنا هذا^(٢) ، مع مقارنتها
بنظيرتها من أسماء المواضع في العصور الوسطى ، على نحو ما تهدينا إليه
الشواهد في بعض المؤلفات^(٣) ، أو بعض النقوش^(٤) .

(١) انظر :

L. Massignon : Le Maroc dans les premières années du
XVI^e Siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain.

طبعة مدينة الجزائر سنة ١٩٠٦ من ٢١٩ — ٢٣٦ .

(٢) يمكن أن نجد سجلاً لها ، في كتاب ل. لتورنو من مدينة فاس عند فرض
الحماية الفرنسية على مراکش .

(٣) انظر خاصة « روض القرطاس » لابن أبي زرع و « زهرة الآس »
للجزائري و « سلوة الأنفاس » للشكثاني .

(٤) وخاصة نقوش القرن الرابع عشر المتعاقبة بنظم الحبوس الموقوفة على المدارس
والمساجد والمستشفيات . وقد نشر الأستاذ أ. بيل جانباً كبيراً منها في :

Inscriptions arabes de Fès المستخرجة من : Journal Asiatique
بازيس سنة ١٩١٩ ، هذا ولا بد من تقصي سجلات إدارة الحبوس وهي كثيرة ،
وبعضها يرجع إلى عهد بني مرين .

والدراسات المقارنة لهذه الأسماء القديمة وهي تنصب على المدن الرئيسية الإسبانية والمراكشية في العصور الوسطى ، لا تعدم ما لها من دلالة ومغزى بل إنها تعد بالضرورة تمهيداً لكل بحث طبوغرافى تاريخى إسباني مغربي على أننا إذ نقف على الشواهد التي يسوقها الجغرافيون والمؤرخون وما يذكر في كتب التراجم في عبارات عامة دون الحرص على التدقيق الطبوغرافى تعرض لنا بعض الملاحظات . فنلاحظ أولاً أنه كان يوجد في الألفاظ الدارجة تعبيرات دالة على التكتل العمرانى الذى كان شائعاً في بلاد المغرب وفي إسبانيا ، وفي شرق البحر الأبيض المتوسط بطبيعة الحال ، وإن كان ذلك بنسبة أقل .

ويلاحظ أيضاً أن بعض أسماء الأعلام ، كانت تتردد هي بذاتها في المدن القائمة بالعدوتين عدوة المغرب وعدوة الأندلس ، وبخاصة أسماء بوابات الأحياء في هذه المدن .

وسنعرض فيما يلي تلك التسميات الأخيرة مع مراعاة ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وذلك قبل أن نفصل القول في اسم باب الشريعة الشائع في مدن المغرب الإسلامى .

ليس من الضروري أن يكون هناك اسم واحد^(١) لأحد أبواب أى مدينة ، إذ ربما تعددت أسماء بوابة من البوابات أقيمت على حى معين . فتطلق عليها أسماء عدة فى وقت واحد . أو على العكس من ذلك تتعاقب عليها هذه الأسماء ، فالباب الواحد يمكن أن يكون له اسم رسمى واسم شعبى فى وقت واحد . وعندما فتحت بوابات جديدة فى القرن العشرين فى أحياء بعض المدن المراكشية ، لم تهتم السلطات المدنية دائماً بتسميتها : وكان الجمهور نفسه أسرع منها فى خلق تسميات تعوض هذا النقص . وكثيراً ما كان هذا الجمهور يرتجل أسماء براقية لا يلبث مدلولها إذا لم يلاحظ أن ينسى أو يفضى إلى تأويلات خاطئة .

فمن منالاً ينصرف ذهنه لأول وهلة إلى تفسير « باب التركية » ، وهو أحد أبواب طنجة ، فتح سنة ١٩٢٠ وسمى منذ ذلك الوقت بهذا الاسم — بباب تركيا؟ والواقع أنه أطلق عليه منذ ذلك الوقت باب التركية أى باب الذرة ، وذلك لأنه فى نفس تلك السنة ، استبدل أهل طنجة المسلمون الذرة بالقمح ، بسبب سوء محصولهم . والذرة تسمى التركية فى لهجة أهل المغرب^(٢) . ولا شك أن العصر الوسيط

(١) أمثلة عن قصد فى هذا البحث مناقشة أسماء أبواب القصور الملكية والمساجد الكبرى .

(٢) انظر :

E. Michaux-Bellaire : Villes et Tribus du Maroc.

مجلد ٧ ، عن « طنجة ومنطقتها » طبعة باريس ، ١٩٢١ ، ص ١٣٤ .

شهد تسميات مماثلة، ولا شك في أن أسماء بعض الأبواب كانت تشير إلى أشخاص أو حوادث قد فاتنا تأريخها، وربما فاتنا ذلك إلى الأبد^(١).
ومن المسلم به بوجه عام أنه غالباً ما كانت تسمى أبواب الأحياء باسم المدينة التي تتجه إليها الأبواب، لتفتح الطريق المباشر بين هذه المدينة والمدينة التي تقابلها.

وهكذا وجدت بوابات مسماة على هذا النحو في جميع المدن الإسلامية بالمغرب والمشرق، كما حدث ذلك أيضاً في أوروبا ولا حاجة بنا إلى ذكر أمثلة لذلك في إسبانيا ومراكش. وقد يحدث أنه بدلا من إطلاق اسم مدينة ما على أحد الأبواب أن يطلق عليه اسم قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم: مثل باب إفريقية، الواقع في أول حي إدريسي بفاس^(٢). ولكن يبدو أن هذه التسميات

(١) من نافلة القول أن نذكر أن موقع أى باب تهدم بسبب توسع المدينة قد يظل يحمل اسم ذلك الباب القديم: كما هو الحال في باب السلسلة في فاس، وهو نفس الموقع الذي يحتله اليوم ميدان صغير يدعى باب السلسلة.

(٢) انظر خاصة الجزائى: «زهرة الآس» نشر وترجمة إ. بيل، طبعة الجزائر سنة ١٩٢٢ ص ٥٤ وحاشية ١، ومثل ذلك يقال عن باب الأندلس الذي ذكره البكري في مدينة تاهرت في كتابه «جزائر بني مرغة» نشر دى سلان بعنوان: Description de l'Afrique Septentrionale الطبعة الثانية، بالجزائر سنة ١٩١١ ص ٦٧، ترجمة الناشر نفسه، وكذلك الطبعة الجديدة بالجزائر سنة ١٩١٢ ص ١٣٨.

لم يتخذها الجمهور في شبه جزيرة أيبيريا ، أو على الأقل في فاس ،
إذ لم تعيش هذه التسميات بوجه عام ، إلا بجانب تسميات أخرى
أكثر شيوعاً ويجب أن يستثنى من ذلك مدينتان إسبانيتان هما :
غرناطة حيث كان الباب الرئيسي الذي ظل يسمى دائماً باسم باب
إلبيره^(١) وفي المربية باب بجانة^(٢) . على أن بقاء هذين الاسمين يعزى
بلا شك إلى الذكرى التاريخية أكثر مما يعزى إلى الحقيقة الواقعة .
إذ أن إلبيره وبجانة كانتا قد اضمحلتا ، وهجرتا تقريباً ، وحلت محلهما
المدينتان المجاورتان لهما .

(١) ذكر هذا الباب كثيراً في معرض الكلام على مقبرة غرناطة الكبرى -
التي كانت خارج المدينة - في روايات المؤرخين الأندلسيين ، وبخاصة في كتاب
«الإحاطة» لابن الخطيب ، كما ورد ضمن أبواب غرناطة التي ذكرها ابن فضل الله العمري
في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» . وقد ترجم جزء منه الأستاذ :
Gaudefroy-Demombynes : *L'Afrique moins l'Egypte*
طبعة باريس سنة ١٩٢٧ ص ٢٢٩ وحاشية ٣ . وأيضاً في القوائم القديمة التي نشرها :
Marmol & de Heriquez de Jorquera.

انظر أيضاً :

F. J. Simonet : *Descripción del reino de Granada.*

طبعة غرناطة سنة ١٨٧٢ من ص ٣٧ - ٧٤

(٢) كان يفضى إلى مقبرة المربية الرئيسية ، كما ورد ذكره كثيراً في التراجم التي
نقلها ابن القاضي عن ابن خاتمة في كتاب «درة البحال» نصر علوش رباط
١٩٣٤ - ١٩٣٦ . انظر أيضاً ابن بشكوال في كتابه «الصلة» نصر كوديرا
مدريد سنة ١٨٩٣ من ص ٤٢٠ - ٥٠٠
وأيضاً : ابن الأبار في كتابه «تكملة الصلة» نصر كوديرا مدريد ١٨٩٩ ص ٣٢٩
والجزء الذي نشره بيل وبني شنب بالجزائر سنة ١٩٢٠ ص ١٠٣ .

وقد يحدث أحياناً أن أسماء الأبواب تذكر باتجاهها الجغرافي . كما هو الشأن في بوابات مرقطة حيث ظل أهم أبوابها يسمى دائماً في العصر الإسلامي باسم باب القبلة ^(١) . كذلك كان الشأن في أبواب الشمس في غرناطة ^(٢) وفاس ^(٣) . وكان لبعض المدن من ناحية أخرى ما يسمى باسم « الباب الجديد » ، تلك التسمية التي كانت تختلط أحياناً بسبب تشابه الكتابة في الحروف العربية مع باب الحديد ^(٤) . فهذا الاسم الذي سواء أكان قد وضع رسمياً أم غير رسمي

(١) انظر ابن القزقي : « تاريخ علماء الأندلس » نشر كوديرا مدريد سنة ١٨٩١ — ١٨٩٢ الجزء الثاني ص ٨٨ ، وابن بشكوال في كتاب « الصلة » ص ٥٦ ، وابن الأبار في « تكملة الصلة » كوديرا ص ٤٩ والفسي في كتاب « ضبة الشمس » نشر كوديرا ورييرا بمدريد سنة ١٨٩٥ ص ٢٦٥ . وقد أطلق نفس الاسم على باب الحى القديم في فاس .

انظر الجزنائي : « زهرة الآس » والقرعة ص ٥١ و ٥٣ .

(٢) يرد هذا الاسم ضمن أبواب غرناطة التي ذكرها :

Francisco Henriquez de Jorquera المنشور في :

Anales de Granada طبعة A. Marin Ocete سنة ١٩٢٤ ج ١ ص ١٥ . على العكس من ذلك نجد أن باب الشمس الشهير Puerta del Sol بمطبعة ويذكر بهذا الاسم في الوثائق التي نعرها A, Gonzalez Palencia والمنشور في :

Los Mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII

في مجلدين بمدريد سنة ١٩٣٠ . وكانت هناك أيضاً باب الشمس Puerta del Sol في لشبيلة ذكره الونسو مورجادو .

(٣) انظر الجزنائي : « زهرة الآس » ، ترجمة بيل ص ٨١ حاشية ١ .

(٤) على الرغم من وضع عبارة « فيما يتصل بالإضافة » في الحالة الثانية ، انظر فيما يلي متعلقاً بالأبواب المسماة باسم باب الحديد .

منذ بدء التأسيس ، أمكنه أن يظل قائماً رغم مرور السنين .
كما هو شأن ، الباب الجديد ، الذى فُتح فى عهد الحكم الربضى فى
القرن التاسع ، والذى لم يكن ليبعد عن الزاوية الجنوبية الشرقية من
قرطبة ^(١) ، وذكرها ظل يحمل هذا الاسم فى نهاية القرن التاسع ^(٢) .

(١) كان يحدث خلط دائماً عن هذا الباب الموجود فى الحى الإسلامى بقرطبة
بسبب تشابهه فى الكتابة مع باب الحديد ، الذى يظهر فى قاعة أبواب قرطبة التى نقلها
المقرئ عن ابن بشكوال فى «فتح الطيب» طبعة ليدن ج ١ ص ٣ ٣ سطر ٢١ وهو
نفس «باب عبد الجبار» الذى يقابل Puerta del Hierro بعد سقوط قرطبة فى
أيدى المسيحيين . وكان هناك باب آخر يدعى باب الحديد فى منطقة القصر بقرطبة . انظر
كتابى : *Espagne Musulmane du X é Siécle* من ص ٢٠٥ — ٢٢٣ .

غير أن وجود باب الحديد ، قد شهدت به فلا المصادر العديدة للمفتيس لابن حبان
فى أثناء كلامه على « ثورة الرضى » الشهيرة أيام الحكم الأول . وكان موقع هذا
الباب فى أقصى الجنوب من الأسوار الشرقية للمدينة بجوار الوادى الكبير مباشرة .
وعكذا تحدد موقعه جيداً ، وإن كان ذلك مشوباً بتحريف اسمه إلى باب الحديد
فى بحث : Manuel Ocâna-Jiménez المسمى : *La puerta Medina de Cordoba*
Crónica arqueologica de la Espana Musulmana فى مجلة *Al-Andalus* ج ٣ سنة ١٩٣٥ من ص ١٤٤ — ١٤٧ .
وأما النصوص المذكورة فى كتاب « المفتيس » فتؤكد بها جيداً العبارة الواردة فى :
Primera Cronica General نشر R. Menendez Pidal بمدرسة سنة
١٩٠٦ ص ٣٥٤ الجزء الأول من ص ٤٠ — ١٤١ .

(٢) يقرر ابن الأبار فى الواقع لفظ « الباب الجديد » بدقة نسبية فى مجمله طبعة
كوديرا (B. A. H. IV) ص ٢٨ (فى الرضى الشرقى عند الباب الجديد) وذلك
فى معرض كلامه عن وفاة إحدى الشخصيات الكبيرة سنة ٤٩٧ هـ .

وكان هناك باب يدعى هذا الاسم أيضاً في عصور متفاوتة في مدينتي
مُرْسِيه^(١) وسَبْتَه^(٢) .

وقد توجد أبواب ذات طابع روماني أو قوطي غربي في المدن
الإسبانية . وحينئذ وبما ذكر اسمها بصفة من الصفات أو بحلة
زخرفية في بنائها ترجع إلى العصور القديمة . وعلى الرغم من وجود
تمثال العذراء ، صاحبة قرطبة ، فوق باب القنطرة ، في العاصمة
الألموية ، فإنه يبدو لنا أنه لم يكن له أى تأثير على التسمية . وكذلك
الحال في تمثال مماثل مجهول الاسم^(٣) أقيم على سبيل المحاكاة عند باب
بجانه . غير أن المؤرخين الأندلسيين يشهدون بوجود «باب القنطرة»

(١) انظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٥٨٠ .

(٢) انظر ابن عبد الملك الأنصاري : « اختصار الأخبار » نشر

E. Levi-Provençal : Une description de Ceuta Musulmane
au XV^e siècle

المنشورة في مجلة : Hespéris ج ١٢ سنة ١٩٣١ ص ١٦٤ .

(٣) انظر أيضاً كتابي : Espagne Musulmane au X^e Siècle

ص ٢٠٥ وحاشية ١ والفقرة الهامة جداً في « البيان » لابن عذارى ج ٣ نشر لبني
بروفندال ، يياوليس ، سنة ١٩٣٠ ، ص ١٤ : « ومع العذراء صاحبة قرطبة التي
أودع أقادم حكمائهم صورتها فوق باب مدينتها القبلية وهو باب القنطرة » .

في بلنسية ^(١) وباب العقاب في المرية ^(٢) . ويحتمل أن تكون الحلية الزخرفية القائمة على هذا الباب من عمل صناع العهد الإسلامي ؛ وقد كان هذا بلا شك شأن . باب الأسد ، في غرناطة ^(٣) ، وباب السبع ^(٤) في فاس . كما كان في داخل قرطبة — إذا أخذنا بما ذكره ابن عذارى ^(٥) — . باب الشكال ، (أى باب الأشكال) في بداية القرن الحادى عشر .

ولقد كان لبعض المدن الإسبانية أسماء رومانية يحتمل أن تكون متفقة مع أسماء الأحياء المبنية في داخل أو خارج الأسوار . فكان

(١) ورد ذكره كثيراً . انظر الفتح بن خاقان : « ثلاث العيان » طبعة باريس ، ١٢٧٧ هـ ، ص ٧٣ سطر ٣ . وابن الأبار : « تكملة الصلة » نصر حكوديرا ص ٢٦٨ و ٢٩٩ و ٣١٠ و ٣٣٧ و ٤٩٩ و ٥١٨ . ونشر بن شنب ص ١٤٨ في Misc. de Est. y textos arabes بمدرسة ١٩١٥ م ص ٤٧٠ الخ . انظر أيضاً : J. Ribera : Disertaciones y opúsculos : بمدرسة سنة ١٩٢٨ ج ٢ ص ٢٦١ وحاشية ٣ وكذلك :

R. Ménendez Pidal : La Espana del Cid

بمدرسة سنة ١٩٢٩ ، ج ٢ ص ٥٠٨ و ٥٣٩ و ٥٤٠ .

(٢) ذكره المقرئ : « فتح الطيب » ج ١ ص ١٠٢ كما يلي : « ومن أبوابها باب العقاب ، عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر » .

انظر أيضاً : Simonet : Description del reino de Granada : ص ١٣٩ . (٣) انظر Simonet في كتابه المذكور ص ٧٥ رقم ١٣ ، وقد ذكر ذلك أيضاً

Henriquez de Jorquera.

(٤) لا يزال إلى اليوم اسم باب بفاس الجديدة انظر الكتاني : « سلوة الألفاس »

ج ٣ ص ١٨٥ وكذلك : Massignon : Le Maroc ... , p. 227

(٥) في ج ٣ من البيان ص ٨٩ و ٥٦ .

في مالقة . باب فتنالة ، المذكور في مواضع كثيرة^(١) ، وفي بلنسية
 « باب يبطاله »^(٢) ، كما أن أحد أبواب إشبيلية الحالية المسمى باسم
 Puerta de Macarena قد عرف بنفس الاسم وهو « باب المقارنة »
 في العصر الإسلامي . ويمننا ابن الأبار بما يعزز ذلك حيث يتحدث
 عن مقبرة دفن فيها أحد الأعلام سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣) وكانت المقبرة
 خارج هذا الباب^(٣) .

وقد تطلق أسماء بعض الأشخاص — سواء كانوا من الأعلام
 أم من المغمورين — على أبواب المدينة ، ولدينا أمثلة كثيرة لذلك ،
 فمنها « باب عجيزه » ، و « باب الفتوح » ، في فاس^(٤) ، وكذلك بابا

(١) كله يفتح على الحى القى يحمل هذا الاسم ويذكره الإدريسي . انظر :
 مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب البيان ص ٩٢ ، ط المعارف . وانظر
 ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر بيل ص ٢٧٤ كوديراس ٢٦٢ وطبعة Misc ص ٥٩٤ .
 (٢) انظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر Bel & Bencheneb ص ٤٣ ،
 وطبعة كوديراس ص ١٩٨ و ٣٣٣ و ٣٠٠ وطبعة Misc ص ٤٣٧ و ٤٥٨ و ٥٩١ .
 انظر أيضاً : J. Ribera : Distractions y opusculos ج ٢ ص ٢٦١ ،
 وهو الباب المسمى باسم : Porta de Boatella المنشور في باب :

Repartimiento del reino de Valencia

(٣) انظر : « تكملة الصلة » ، نشر بيل ص ٢٠٠ .

(٤) يسمى اليوم باسم باب جيزه وباب فتوح . وترجع تسميتهما كذلك إلى ولدين
 الأمير الزناني دُناس بن حمادة بن المعز بن عطية قبضا على زمام الحكم في فاس
 سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، أى قبل خضوع هذه المدينة لسلطان المرابطين بزم من
 وجيز : انظر خاصة الجزناني ، « زهرة الآس » — الترجمة من ص ٧٤ — ٧٥ والمراجع
 المذكورة به والحاشية .

« عبد الجبار » ، ^(١) ، « باب عامر » ، ^(٢) في قرطبة ، و « باب رزق » ، في
إستجة ^(٣) و « باب جهور » ، في إشبيلية ^(٤) ، و « باب حمزة » ، في
الجزيرة الخضراء ^(٥) ، و « باب موسى » ، في المرية ^(٦) ، و « باب
ابن أحمد » ، في مدينة مرسية ^(٧) .

وشاع أيضاً في المغرب . كما شاع في سائر أنحاء العالم الإسلامي ،
تسمية أحد الأبواب التي تفتح إلى داخل الأسوار ، مؤدية إلى حي
من أحياء المدينة — باسم مرتبط باسم هذا الحي : الذي يتفق أن

(١) انظر : Esp. Mus. du X é Siècle : ص ٢٠٥ وحاشية ٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ وحاشية ٤ .

(٣) انظر :

E. Lévi-Provençal : La péninsule ibérique au moyen-âge
d'après le Kitab ar-raud al mi'tar ... d'Ibn Abdel Mun'im al
Himyari

طبعة ليدن ، سنة ١٠٣٨ ، ص ٢١ .

(٤) انظر بصفة خاصة ابن صاحب الصلاة في :

M. M. Antuna : Sevilla y sus monumentos arabes

الإسكوريال ، سنة ١٩٣٠ ص ٨٧ و ٩٠ و ١٣٠ و ١٣١ .

(٥) انظر :

La péninsule ibérique au moyen âge, p. 93.

(٦) انظر : ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٢٢٢ .

(٧) انظر خاصة ابن الأبار : « تكملة الصلاة » نشر كوديرا ص ٢٣٦ و ٣٥٨

و ٤٢٩ و ٥٧٥ .

يكون حيا تجاريا خاصا بالعطارين مثلا فيسمى «باب العطارين»^(١)، كما في قرطبة، أو خاصا بأولئك التجارين يومية بالمنتجات الغذائية، فيسمى «باب السويقة»، كما في «إسْتِجَّة»^(٢)، و«طليطلة»^(٣)، و«تلسان»^(٤)، وحتى اليوم في رباط الفتح وتونس، حيث يوجد بها «باب سويقة»، وقد يكون الحى خاصا باليهود كما في قرطبة فيقولون «باب اليهود»، وقد سمي «باب الهدى» بعد أن استقبحوا باب اليهود وراعوا تجانس لفظي اليهود والهدى °، وكذلك الشأن في حى اليهود بطليطلة^(٥) و«سرقسطة»^(٦) و«نكور»^(٧). وربما كان الحى

(١) انظر : Esp. mus. du Xe Siècle, p.205

(٢) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 21

(٣) انظر :

A. Gonzalez Palencia : Los mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدى ص ٧٦ .

(٤) انظر :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen

طبعة باريس سنة ١٩٠٣ ص ١٣٥ .

(٥) انظر كتابي : Esp. mus. du X e Siècle. ص ٢٠٥ وحاشية ٧ .

قال القرطبي : «واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى» - الفج ٩٨/١ ط ليدن.

(٦) انظر :

A. Gonzalez Palencia : Los mozárabes de Toledo

المجلد التمهيدى ص ٧٥ و٧٦ و٧٧ و٨٠ .

(٧) انظر : ابن الفرضي : «تاريخ علماء الأندلس» - الجزء الأول ص ١١١

(في غرب المدينة) .

(٨) انظر : البكري . «جزائر بني مرغنة» أو

Description de l'Afrique Septentrionale ص ٩٠ .

(م ٥ - دراسات في العرب والاندلس)

خاصا بجماعة من الصناع أبعدا عن قلب المدينة ، لحاجتهم إلى مكان
 فسيح ، أو لأن عملهم في منتجات كريمة الرائحة تؤذي السكان ،
 كما حدث في حالة البياغين ، حيث « باب البياغين » ، في طليطة ^(١)
 وغرناطة ^(٢) ومراكش ^(٣) . وصناع الزيت (باب الزيادين) في مدينة
 المرية ^(٤) . والفخارين . وصناع الطوب وباتعي الطوب (باب الفخارين
 وباب الطوايين) في غرناطة ^(٥) وباب القرمدين في تلمسان ^(٦)
 ومحضري الطفل (باب الحلالين) في طليطة ^(٧) :

(١) يسمى اليوم Adabguim - اظفر :

A. González Palencia : Los Mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدي - من ص ٦٤ و ٤٠ .

(٢) اظفر خاصة ابن قنبل الله - ترجمة Gaudelroy - Demombynes

ص ٢٢٠ وحاشية ١٠ .

(٣) نفس أنصتر ص ١٨٩ وحاشية ٦ .

(٤) اظفر ابن الأبار : « تكة الملة » ، عمر كوديرا ، ص ٢١٤ .

(٥) اظفر خاصة ابن قنبل الله ترجمة Gaudelroy-Demombynes ص ٢٢٠

وحاشية ٦ و ص ٢٢١ وحاشية ٩ .

(٦) اظفر :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen

ص ١١٦ و ١١٧ و ١٢٤ و ١٢٥ وحاشية ٩ .

(٧) اظفر :

A. González - Palencia : Los Mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدي ص ٨٠ .

وكان أيضا مما يحدد تسمية أحد الأبواب ، مجرد وجود اسم مادة طبيعية أو خاصة ما ، ترتبط بالمدينة ، وترد إليها من باب معين من أبوابها . فإن صح هذا الفرض ، جاز أن يفسر لنا ذلك تسمية « باب الكحل » ، في إشبيلية^(١) بهذا الاسم ، وفي غرناطة^(٢) وفي مراكش^(٣) و « باب الرُب » ، في مراكش^(٤) وفاس^(٥) ، وربما « باب الحديد » ، أيضا في فاس^(٦) ، الذي كان يفتح بالضبط في اتجاه إقليم غنى بمعدن الحديد ، وقد ظل المسلمون يستغلونه في جميع الأزمان^(٧) .

(١) انظر : ابن صاحب الصلاة في كتاب :

M. M. Antuna : Sevilla y sus monumentos arabes

ص ٨٦ و ٩٠ و ١٣٠ و ١٣١ .

(٢) انظر ابن فضل الله — ترجمة Gaudelroy - Demombynes ص ٢٢٩

وحاشية ٤ (وهي التي يرادفها ترجمة كلمة « باب السماء ») .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩ وحاشية ٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٦ وحاشية ٣ .

(٥) يبدو أن باب فاس هذا لم يذكره Marmol في كتابه L'Afrique

ترجمة Perrot d'Ablancourt طبعة باريس سنة ١٦١٧ ج ٢ ص ١٥٨ « باب

روب » ، على هامش ذكر « باب الصنوبر » « Porte du résiné » .

(٦) تعدد ذكر اسم هذا الباب في مواضع كثيرة ، وهو لا يزال يحمل نفس الاسم

إلى اليوم .

انظر على الأخص : الجزنائي : « زهرة الآس » — من ص ٨١ و ٥٥ .

(٧) وذلك على الرغم من أنه لا يمكن الجزم بصحة هذا الفرض ، إلا أنه من

العجيب ملاحظة أن « روض القرطاس » ، طبعة فاس ، ص ٢٢ (انظر Massignon :

Le Maroc, p. 221 بشأن تخطيط فاس الإدريسية) يؤكد فيما يتعلق بهذا الباب ،

استناداً إلى رواية ابن غالب ، أن هذا الباب ، كان يؤدي إلى الطريق الموصل بين فاس

وجبل فزاز ومناجم موام .

ويجب أيضا إضافة بعض أسماء الأبواب ذات الصبغة الرسمية ،
التي يغلب رجوعها إلى عهد المرابطين ، بل إلى عهد الموحدين ، مثل :
« باب البنود » ، بغرناطة ^(١) ، ومراكش ^(٢) ، وتلمسان ^(٣) و « باب
الطبول » ، في مراكش ^(٤) .

وهناك أسماء أخرى — وإن كانت نادرة إلى حد ما — تشير إلى
مناسبات والظاهر أنها ظلت تدل على بوابات قصور ملكية أو مساجد .
نذكر منها على سبيل المثال « باب الفرج » ، بطليطلة ^(٥) ، ومثله بمدينة
مرسية ^(٦) ، وفاس ^(٧) لأنها تذكر بنتيجة حصار لهذه المدن ، وإن كانت
تعوزنا الأدلة المادية على ذلك .

(١) انظر خاصة ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٢٢١
وحاشية ٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٢ حاشية ١ وص ١٩٠ حاشية ٣ .

(٣) انظر :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen

ص ١١٧ حاشية ٣ وص ١٧١ حاشية ١ .

(٤) انظر ابن فضل الله : ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ١٨١ ،

حاشية ٢ وص ١٩٠ حاشية ٣ .

(٥) انظر : A. Gonzalez - Palencia : Los mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدي من ص ٧٦ و ٨٠ — ٨١ .

(٦) ذكره ابن الأبار في « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

(٧) انظر خاصة الجزنائي : « زهرة الآس » — الترجمة ص ٥١ .

وقد أثار الاسم القديم لهذا الباب — في أثناء زوال استعماله شيئا فشيئا — نشأة
مذهب أحد الأولياء ، كان له نفس الاسم وهو سيدى فرج .

انظر : A. Bel : Inscriptions arabes de Fès

ص ٧٥ — ٧٦ .

كذلك لم يحل الأمر دون وجود أبواب في المدينة ذات تسمية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بشكلها الواقعي أو بوظيفتها المميزة لها، في حالة الحرب . فمثلاً نجد في كثير من المدن الإسلامية بإسبانيا والمغرب الأقصى والأوسط باباً يسمى باسم « باب الخوخة » ، ولهذا الاسم شاهد في لشونه^(١) ، وفي الجزيرة الخضراء^(٢) ومالقة^(٣) وفاس^(٤) وتلمسان^(٥) ، بل وإلى الشرق من ذلك أيضاً في مدينة تنس^(٦) ، وهذا عدا عدة مدن أخرى بإفريقية ، حتى وفي الشرق أيضاً . وقد اقترح الباحثون عدة تفسيرات لهذا اللفظ^(٧) ، ولعل الأمر

= وهناك من آخر لتطور المعنى الأصلي ، والنطق القوي الشعبي ، وهو خاص بأحد أبواب طليطلة القديمة ، وهو ما يسمى في الأسبانية Bibmardom (أى الباب المردوم) أو المهدم ، ومرادفه الإسباني Puerta del Mayordomo . انظر :
A. Gonzalez Palencia : Los Mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدى ص ٨٠ .

(١) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

(٢) نفس المصدر ص ٩٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٤ .

(٤) انظر خاصة الجزئان : « زهرة الآس » ، ص ٥٢ وحاشية ٢ وص ٧٩ .

(٥) انظر البكرى في Description النص ص ٧٦ والترجمة ص ١٥٥ وكذلك :

W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen

ص ١١٥ وحاشية ٢ .

(٦) انظر : البكرى في Description النص ص ٦٢ والترجمة ص ١٢٩ .

(٧) انظر خاصة : Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes

ج ١ ص ٤١١ حيث يقول إنه « باب يؤدى إلى بحر (أى خوخة) موصلة إلى حارة »

وكذلك : W. & G. Marçais : المصدر المذكور آنفاً ، ص ١١٥ وحاشية ٢ .

يتعلق في سائر هذه الأحوال بباب كانت تفتح فيه خوخة ، أى باب صغير أو نافذة ^(١) ، وهذا التفسير تؤيده أسماء المواقع الإسبانية نفسها التى اقتصرت على الترجمة الحرفية للفظ العربى . ويوجد إلى الآن في سرقسطة ما يسمى باسم باب الخوخة Puerta del Portillo ، وكذلك سمي أحد أبواب طليطلة في القرن الثانى عشر — إذا أخذنا بالوثائق التى ترجع إلى عهد المستعربين ^(٢) « باب البورتبال ، Puerta del Portial الذى لا يعدو أن يكون صيغة لاتينية لاسم باب الخوخة ، وكذلك « باب النقبة » ^(٣) و « باب الفاصل » ^(٤) وكلما اللفظتين استعملتا للتعبير عن فتحتين أو ثغرتين في مدينة فاس ، وتدخل في عداد ألفاظ التحصينات وهما تدلان على (باب السر) و (الباب المؤدى إلى

(١) انظر الإيضاحات الواردة للتسمية الأسبانية العربية في :

Vocabulista, p. 529. S. v.º porta : posticus in medio porte
وانظر :

P. de Alcala : p. 354 a : postigo de puerta principal

(٢) انظر : A. Gonzalez Palencia : Los mozarabes de Toledo

في الجزء التمهيدي من ٧٠ وحاشية ١ .

(٣) انظر خاصة الجزئائى : « زهرة الآس » من ٥١ و ٥٤ من الترجمة حيث

ترجم P. de Alcala من ٣٥٢ بكلمة نقبة بمعنى باب الحائط Portillo de Muro .

(٤) انظر « زهرة الآس » من ٥١ و ٥٤ .

الحائط الأمامي) . وقد يقولون باب الغدر^(١) ولا يعد هذا الاسم علماً عليه ، وإنما يحتمل جداً أن يكون مدلوله باباً سرياً منخفضاً يقع في جدار ، وعن طريقه يفر أمير المدينة مثلاً إلى الريف إذا وقع حصار ، في نفس اللحظة التي يخرق فيها العدو مدينته^(٢) .

يبقى بعد ذلك أن نبحث الطائفة الأخيرة من تسميات أبواب المدن ، وربما كانت هذه من حيث الترتيب أهم التسميات ، بعد التسمية الخاصة بالأسماء التي من نوع باب البيرة . ونعني بها الفتحات أو الثغرات الخاصة بالحى ولاسمها علاقة بموقع أو عمل قى ، أو بناء ذى فائدة اجتماعية ، مما يكون على مقربة مباشرة من الباب ، لافى داخل الأسوار بل فى خارجها ، ومن هذا القبيل باب البحر ، فى لشبونة^(٣) ،

(١) وعلى هذا يعتبر Bib Algodor أو Puerta de Siete Suelos الموجود فى الحمراء بلا شك باباً صغيراً فى أصله . انظر فيما يتعلق بتونس : R. Brunschvig فى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٨٤٤ ب . ونعتبر هذ التسمية فنية وليست علماً بحيث استعملت فى صيغة الجمع . انظر وصف مدينة سبتة فى مجلة Hespéris ج ١٢ سنة ١٩٣١ ص ١٦٥ حيث ذكرت عبارة « وعدد أبواب الغدر ... » ضمن أسماء فتحات أخرى ثانوية كالتقوية بمعنى ممرات تحت الأرض .

(٢) ويمكن أن نتساءل أيضاً : ألم يكن معنى باب الدرف و غرناطة أصلاً باب الدفوف المتعددة (انظر ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy - Demombynes p 22٦, 231 وحاشية ٣) وشاع تفسيره بباب الدفوف (Puerta de Los Panderos انظر Simonet : Desc. p. 75) وصيغة الجمع دَفْ قد أوردتها Pedro de Alcala بمعنى باب الحُشْب .

(٣) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

وباب الوادي في قرطبة^(١)، ومالقة^(٢) وفاس^(٣). ثم « باب الرملة »
 في غرناطة وقد احتفظ باسمه في الإسبانية فهو Bibarrambla^(٤)،
 الذي ذكر فعلا في هذه المدينة في عصر المرابطين^(٥). ومن هذا القبيل
 باب المخاضة^(٦) في طليطلة و« باب الحمة »^(٧) في لشبونة و« باب القوارة »^(٨)
 في فاس وفي إسبانيا خاصة عدة أبواب كل منها يدعى باسم

(١) انظر : L'Espagne Musulmane au X è siècle, p. 205

(٢) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 214

(٣) انظر : الجزنائي : « زهرة الآس » ص ٨١ وحاشية ١ .

(٤) انظر خاصة ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy-Demombynes ص ٢٣٠

وحاشية ٤ . والمرادف الإسباني لكلمة « رملة » نراه غالباً في أسماء المواقع الحالية
 في المدن الإسبانية المشيدة فوق مجارى المياه . ولعل هذا يصدق أيضاً على ريف شَبَلار
 الواقع في غرب قرطبة . (انظر : Esp.Mus. X è Siècle, p.207, et Note3)
 وإلى هذا ذهب Simonet في كتابه : Glosario de Voces ibéricas y lantias
 usadas entre los mozarabes طبعة مدريد سنة ١٨٨٩ ص ٥٧٤ .

(٥) انظر كتاب المؤلف : Documents inédits d'histoire almoravide

(٦) انظر : A. Gonzàlez Palencia : Los mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدي ص ٨٠ .

(٧) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

(٨) انظر : الجزنائي : « زهرة الآس » ص ٥١ وحاشية ٢ وص ٨١ حاشية ٣ .

«باب القنطرة»، كما في قرطبة^(١)، وإستجة^(٢) وطليلة^(٣) وبلنسية^(٤) وأوريولة^(٥). وكان يقوم في ظاهر بعض المدن الكبرى ما يعرف باسم «ربض المرضى»، وفي غرناطة^(٦) كان يؤدي إليه باب يسمى باسم «باب المرضى». وفي فاس «باب المطمر»^(٧)، وفي لشبونة «باب المقبرة»^(٨) ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة «باب الشريعة» في إسبانيا ومراكش الذي سنبحثه تفصيلاً.

* * *

-
- (١) انظر : L' Esp. Mus. de X è Siècle, p. 204
 (٢) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 21
 (٣) انظر : A. González Palencia : Los mozarabes de Toledo
 المجلد النهميدى ص ٨٠ .
 (٤) انظر ابن الأبار : « تكلّة الصلة » طبعة كودبرا ص ١٨٩ و ٥٣٨ .
 (٥) نفس المصدر ص ٢٢٣ .
 (٦) أقترح بناء على هذا أنه يجب أن نقرأ في تعداد أبواب غرناطة الوارد في ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy-Demombynes ص ٢٣٠ وحاشية ٢ «باب المرضى» بدلا من اللفظ المحرف . انظر فيما يتعلق بكلمة المرضى وما يتعلق بها نهائياً من أسماء المواقع العربية بالغرب : E. Lévi-Provençal : Le Traité d'Ibn' Abdun : المنشور في : Journal Asiatique عدد أبريل — يونيه ١٩٣٤ ص ٢٩٤ وكذلك : Seville musulmane au début du XII è Siècle طبعة باريس ، ١٩٤٧ ، ص ١١٢ (مقبرة ١٦٤) و ص ١٥٧ .
 (٧) انظر خاصة الجزائى : « زهرة الآس » ترجمة Bel ص ٨٠ وحاشية ٣ .
 (٨) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

أشهر الأبواب التي أطلقت عليها تلك التسمية لم يزل قائما الآن ، وهو الباب الأثري الكبير للحمراء في غرناطة ، الذي يقرأ اسمه دائما على النقش الجميل الخاص بالإنشاء ، وهو مكتوب بحروف أندلسية في أعلاه ، ومؤرخة عام ٥٧٩ هـ (١٣٤٨ م) كما يلي : أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة - أسعد الله به شريعة الإسلام . . .^(١) . فهذا الباب هو بلا شك الوحيد من بين الأبواب التي تحمل تلك التسمية ، بالإضافة إلى باب آخر في مدينة مرسية ، ورد ذكره في إسبانيا في النقوش ، وفي الأدب العربي . هذا إلى أن المؤلفين المسلمين ، كثيرا ما يذكرون لنا أسماء ثلاثة أبواب كل منها يدعى : « باب الشريعة ، في مراکش ، وهي أبواب « فاس ، و « تازة ، و « مراکش . .

ولقد كان بناء باب الشريعة في مدينة فاس ، الذي لم يلبث أن سمي « باب المحروق ، - وهي تسمية قائمة إلى وقتنا هذا ، بما ألم به فريق من مؤرخي مراکش في العصور الوسطى^(٢) فهم يقررون ، فيما يختص بالتجديد الذي أحدثه الموحدون في فاس وذلك على عهد السلطان

(١) انظر : E. Lévi-Provençal : Inscriptions arabes d'Espagne :

طبعة ليون وباريس سنة ١٩٣١ م ١٥٦ - ١٥٨ .

(٢) انظر ابن أبي زرع : « دوض القرطاس » ، طبعة فاس ، ص ١٤٩

و « الذخيرة السنية » نشر بن شنب ، بالجزائر سنة ١٩٢٠ م ص ٣٨ ، والجزائري « زهرة الآس » ، ترجمة ص ٥٢ و ٧٩ و ٨٠ وحاشية ٢ ؛ والمقرئ : « نفع الطيب » ، طبعة بولاق ، ج ٣ ص ٨٥ ، وابن القاضي : « جذوة الاقتباس » ، =

يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ - ١١٩٩ م) وقد آتاه ابنه وخليفته الناصر ، أن هذا - أى الناصر - أمر في سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ - ١٢٠٤ م) ببناء باب سمى باب الشريعة ، وقد بلغ من ارتفاعه - فيما يذكر صاحب زهرة الآس - أن الفارس الذى يحمل العلم المرتفع المنتصب وكذا الرماح المسلح بحربة طويلة ، كان في مقدورهما اجتيازه ، دون إمالة العلم ، أو خفض الرمح ^(١) .

وأما عن تحريف هذا الاسم ، فقد ذكر في المدونة التاريخية المعروفة باسم الذخيرة السنية ^(٢) ، ما يلي : « أول حدث حدث بالمغرب في أول عام ستمائة ، قيام العبيدى بجهال ورغبة من أحواز مدينة فاس ، وادعى أنه الفاطمى المهدي الذى ينصر الإسلام ، ويملا الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه ، وجميع جبال غمارة : فظفر به ، فقتل ، وحمل رأسه إلى الناصر ، فأمر أن يرد إلى مدينة فاس ، ويعلق رأسه على بابها ، ولا يزال أبدا ، فعلق رأسه على باب الشريعة من أبوابها ، وأحرق جسده في وسط الباب المذكور ، بعد أن صلب عليه خمسة عشر يوما ، وكان حرقه

== طبعة فاس ، ص ٢٧ ، والكتاني : « سلوة الأنفاس » طبعة فاس ، ج ٣ ص ١٨٦ ، والسلاوى : « كتاب الاستقصاء » ، طبعة القاهرة ، ج ١ ، ص ١٩١ ، ترجمة إسماعيل حامد ، باريس ١٩٢٧ (ضمن مجموعة Archives Marocaines مجلد ٢٢) ج ٣ ص ١٩٤ .

(١) ص ٨٠ .

(٢) نقل الكتاني هذه العبارة في « سلوة الأنفاس »

في اليوم الذي تم فيه سور المدينة المذكورة بالتجديد والبناء والإصلاح.
وتم الباب المذكور بالبناء ، وركبت مصاريحه ، فسمى به باب المحروق
لأجل حرق العبيدى في وسطه يوم تمامه ، ^(١).

وعلى الرغم من هذا التحريف في اسمه ، نجد المؤرخين يسمون
الباب الذى بناه الناصر الموحدى باسم « باب الشريعة » ، وذلك في
معرض ذكرهم لثوار خرجوا في ٨ رجب ٦٤٨ هـ (٦ أكتوبر ١٢٥٠ م)
على الحكومة المرينية ، وعلقت رءوسهم على أسوار فاس ^(٢) .
وقد ورد ذكر باب المحروق في معرض الحديث عن مصرع
الوزير الحسن بن عمر التودودى في سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) بأمر
السلطان أبى سالم المرىنى ، فذكر ابن خلدون أن جسده قد صلب

(١) نجد أحياناً تفسيراً آخر لأصل اسم باب المحروق في فاس ، وهو أن ابن
الخطيب الصغير ، المتول في هذه المدينة عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) قد دُفن في القبرة
المشيدة بجوار هذا الباب . وقد استخرج رقبته في اليوم التالى ، وأُحرق ، ومن هذا
جاء اسم « باب المحروق » . غير أن هذه التسمية المتأخرة ، لا ترتكن إلى أى أساس
— كما لاحظ المقرئ : « نفع الطب » ، طبعة بولاق ، ج ٣ ص ٨٥ .

نظر أيضاً الكتاني : « سلوة الأناس » ج ٣ ص ١٨٦ و ١٩٠ ، ولنذكر بهذه
لناسبة اسماً لباب آخر بنفس الاسم ، موجود بالقاهرة يدعى باب درب المحروق .
انظر خاصة : « تاريخ خطة القاهرة » في دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مقابل
ص ٨٤٠ .

ويمكن أيضاً ملاحظة وجه التشابه بين كلتي باب محرق ومحرق الموجودين بمدينة
صراكش من ناحية ، والذين ذكرهما ابن فضل الله .

انظر ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٨٨ أوحاشية ٣ ، وبين باب
المحروق في فاس من حيث أصل تسميته .

(٢) انظر : « الذخيرة السنية » ص ٨٤ والسلاوى : « الاستقصاء » .

على أسوار فاس ، على مقربة مباشرة من باب المحروق ^(١) . وفي سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ - ١٤١٠ م) سُمِّرت على نفس الباب ^(٢) رأس الدعي الحفصي أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا .

هذا وقد وجدت منذ القرن السابع الهجري على الأقل ، مقبرة خارج باب الشريعة في فاس ، دفن فيها قاضي مدينتي بالنسبة رجبان ويدعى على بن محمد بن أبي عَشاره ^(٣) . وقد توفي عام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ - ١٢٤٤ م) . ودفن في نفس هذه المقبرة بعد ذلك بثلاثمائة عام ، آخر سلاطين بني نصر ملوك غرناطة وهو أبو عبد الله محمد الحادي عشر ، واللاجئ إلى فاس عقب اعتزاله — حسبما ذكره السلاوي ^(٤) فقد ذكر أنه دفن بجوار المصلى ، خارج باب الشريعة في فاس وقد توفي في هذه المدينة سنة ٩٤٠ هـ (١٥٢٣ - ١٥٢٤ م) . أما فيما يتعلق بباب الشريعة ، بمدينة تازة فلا يوجد عنه لدينا غير أخبار خاصة بحادث واحد ، وهو أنه في رجب سنة ٦٨٥ هـ (أغسطس - سبتمبر ١٢٨٦ م) قتل أبوزيان الأمير المري ، بناء على أمر أخيه السلطان أبي يعقوب ، مع بعض أقاربه الثائرين الهاربين

- (١) انظر ابن خلدون : « البر أو تاريخ البربر » ، ج ٢ ص ٤٥٢ و ٤٥٨ ،
والسلاوي : « الاستقصاء » ج ٤ ص ٣٨٠ .
(٢) انظر : السلاوي : « الاستقصاء » — الترجمة ج ٤ ص ٤٦٢ .
(٣) انظر : « الذخيرة السنية » ص ٦٦ .
(٤) انظر : السلاوي : « الاستقصاء » — ج ٤ ص ٥٣٠ .

إلى تلسان ، والذين قبض عليهم ، وأحضروا مكبلين في السلاسل إلى تازة ، حيث قتلوا خارج باب الشريعة بهذه المدينة ^(١) .
 أما المعلومات الخاصة بباب الشريعة بمراكش ، فهي قليلة .
 وأقدم هذه المعلومات ما ذكره البيذق في مذكراته التي تشهد بوجود باب هذا الاسم منذ عهد استيلاء الموحد بن علي المدينة سنة ٥٤١ هـ ،
 ذلك أن المرابطين المحاصرين في أثناء اجتيازهم لهذا الباب ، فشلوا في الخروج منه ، قبل هزيمتهم ^(٢) ، ولم يكد عبد المؤمن في نفس السنة يتولى سلطته على مراكش ، حتى واجهته ثورة عمر بن الحيساط الذي ما لبث أن هزمه أبو حفص فقتله ، ونقل جثته على بغل حيث صلبها على باب الشريعة ^(٣) .

وفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ — ١١٥٤ م) قام أبو حفص ، بحملة لإخضاع ثوار جنوب العاصمة . ويحكى البيذق بعد هذا أن الغنائم وصلت إلى مراكش ، وبيع منها عدد باب الشريعة نساء غزوله ولتمته ، بالإضافة إلى ما بيع من جمال ، وأبقار ، وغنم ^(٤) . وفي العام التالي ، نشبت بالمدينة ثورة بني أمغر الأشقاء الحقيقيين للبهدي بن تومرت .

(١) انظر : ابن أبي زرع : « روض القرطاس » — ص ٢٥٣ والسلاوي : « الاستقصاء » — ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) انظر : Documents inédits d'histoire almohade ص ١٦٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٥ و ٢٠٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٤ .

وقد قُمت هذه الثورة بشدة وجلب الأهلون جثث الثوار ، وعلقوها على باب الشريعة ^(١) .

وقد أعيد بناء هذا الباب حوالي سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) في عهد الخليفة الموحد أبي يعقوب المنصور . وقد ذكر ابن خلدون بعد هذا باب الشريعة بمدينة مراکش أثناء حكم بني مرين في معرض كلامه على استقلال السلطان أبي يوسف يعقوب على مدينة تينملال في سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧١ م) ، واقيد آخر الموحدين ممن كانوا بها إلى مراکش ، وبدا من قتلهم بمصارعهم في باب الشريعة ، قطعت رؤوسهم ، وصلبت جثثهم ^(٢) .

وقد ذكر هذا الباب الواقع بمراكش ، مع بعض التفاصيل ابن فضل الله العمري ، في وصفه للعاصمة الموحدية ، وأنه كان يفتح - كما تقول المصادر التي استقى منها هذا المؤرخ - على ساحة مواجهة لمصلى العبدن . وكان يمتد بين الباب نفسه ، والمصلى ساحة رحة خالية ، كان بها سوق الخيل ^(٣) .

ومن هذه التفاصيل التي ذكرناها يمكن الوقوف على معالم الأبواب الثلاثة المسماة باسم باب الشريعة بمراكش في العصور الوسطى .

(١) عسى المصدر من ١٩٧ .

(٢) انظر ابن خلدون : « البر أو تاريخ البربر » - المجلد ٢ ص ٢٨١ والبلادي : « الأحياء » ، ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) انظر ابن فضل الله : ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ١٨٧ - ١٨٨ وحاشية ٢ وقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى باب الشريعة في مراکش كما ورد فيها بعد .

فالباب في فاس ومراكش يفتتح في براح فسيح من الأرض
تقام فيها سوق ، وثقته تفضي إلى مقبرة وإلى مصلى حيث كان
الأهلون يجتمعون في أول أيام العيد لتأدية الصلاة يؤمهم السلطان
أو من ينوب عنه كما جرى العرف بذلك إلى يومنا هذا في مراكش .
وبما يؤيد وجود علاقة بين « باب الشريعة » والسوق — أن
« سوق الخميس » ، تقام خارج باب الشريعة القديم ، غير بعيد
عن الجبانات القديمة ، التي لم تزل تستعمل إلى حد ما ، كما أن المصلى
الرئيسي في فاس من جانب آخر ، وهو المسمى اليوم اسم « مصلى
السلطان » ، تميزه عن « مصلى الباشا » ، ويقع جنوبي المدينة ، يوجد
فعلا على امتداد سوق الخميس إلى الغرب منه . ومع أنه الآن أقرب
إلى فاس الجديدة منه إلى فاس القديمة ، فهو يقع على محور باب
المحروق ، وهو الذي لا بد أنه كان يعتبر الباب المفضى إلى المدينة ^(١) ،
قبل عهد بني مرين .

(١) كان امتداد المدينة نحو الجنوب ، تحت حكم الموحدين من ناحية باب
الفرجة ، ويذهب ديمومين إلى أنه كان يقع في السور الجنوبي الغربي غير بعيد من
موقع مسجد الكتبية ولم أستطع كما كنت أظن في كتابي Doc. inédits ، المطابقة
بينه وبين باب الخميس الذي يفتح إل شمال المدينة نفسها . وعبارة ابن صاحب الصلاة ،
التي سوف يأتي ذكرها فيما بعد ، تعتبر حاسمة ، فيما يخص بموقع باب الفرجة بمراكش .
ويمكن أن نقرر كذلك وجود باب يقال له باب الخميس في المنصورة قرب تلمسان —
وكان يفتح مباشرة إلى أسفل مصلى مقر بني مرين .

انظر W. & G. Marçais : Les Monuments arabes de Tlemcen :

أما في مدن مراکش الثلاث التي نعرف في كل منها بابا يسمى باسم باب الشريعة ، فيلاحظ أن هذا الباب نفسه أو ما حوله كان يتخذ مكانا تعلق عليه الرؤوس المقطوعة وتصلب الجثث .

وقد ظل باب المحروق في مدينة فاس حتى بعد العصور الوسطى وإلى عهد ليس يبعد عنا ، المكان التقليدي الذي استمرت تعرض فيه رؤوس الثوار الذين نكل بهم جند السلاطين لإرهاب الجماهير .

واتخاذ باب الشريعة مكانا للعدالة يعتبر — كما يوحى بذلك نداعى المعاني — تعليلا طبيعيا جداً لتسميته باب العدالة أو باب الشريعة ، والشريعة بمعنى الحدود التي توقع على من وجبت عليه ، وإلى هذا مال المقرئ فيما نقله عنه صاحب سلوة الأنفاس حيث قال : « وسمى باسم باب الشريعة ، لأنه معدود لإقامة حدودها به على من وجبت عليه » (١) .
ولسنا في حاجة إلى أن نذكر أن هذا التعليل يبدو أيضا في الترجمة الإسبانية ، وهي ترجمة قديمة ، لاسم الباب الكبير بقصر الحمراء المسمى باسم Puerta de la Justicia أو Puerta Judicaria وكان القضاة يجلسون عنده للحكم على عهد بني نصر كما تدل على ذلك الأخبار المتواترة بين أهل غرناطة . هذا إلى أننا نجد — كما سبق أن لاحظنا (٢) —

(١) انظر : الكتان : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ١٨٦ .

(٢) انظر كتاب المؤلف nscriptions arabes d'Espagne, p. 158 وقد تساءلت فيه في الحاشية ١ من هذه الصفحة ، مع عدم اقتناعي تماماً ، ألا يمكن أن يكون اسم باب طليطلة الذي لم يزل يسمى إلى اليوم باسم Puerta Visagra تحريفاً للاسم العربي « باب القريفة » . غير أنه تراءى لي منذ ذلك الوقت أن =

أن أقدم النصوص التي تضمنت وصف الحمراء بعد سقوط المدينة في أيدي المسيحيين ، لا تذكر هذا الباب بغير اسم باب الشريعة . وهذه قرينة إن أعوزتنا قرائن أقوى دلالة ، على أن لفظ الشريعة يدل على مكان ، اكتسب الباب اسمه منه .

والشريعة — كما يؤخذ من النصوص العربية التي سيرد ذكرها — ليست إلا مرادفا أندلسيا مغربيا للفظ مصلى في العربية الفصحى ، وقد رأينا فيما سبق أن المصلى يجاور باب الشريعة في مدن مراکش . ويبدو أن دوزي كان أول من جمع عددا من عناصر المشكلة التي نتجت عن لفظ باب الشريعة ، دون أن يقترح حلولا لها فنجد ذلك العالم الهولندي — في معرض تقريره للحوادث التي تابعت على غرناطة سنة ١١٦٢ هـ — يبين أثناء سرده لهذه الحوادث ، كيف أن ابن الخطيب كان سابقا إلى

== الفرصة قد سنحت لنا أكد من عدم فائدة هذه المحاولة التفسيرية . ويؤخذ من دراسة الوثائق التي جمعا : Mozárabes de Toledo (المجلد التمهيدى ص ١٠٧) — أن هذا الباب سمي في العصور الوسطى باسم باب شافرة أو Porta de la Sagra ، لأنه كان مؤديا إلى الطريق الموصل إلى منطقة مُسماة بهذا الاسم ، على بُعد عدة فراسخ من شمال شرق طليطلة . وقد ذكر هذا الباب ابن بشكوال في كتاب العلة (نشر كوديرا ص ٢٣) ، وبه على أنه كان موجودا في ريش طليطلة سنة ١٤٠٠ هـ . ثم إن ياقوت أشار إلى هذا الموضع في معجم البلدان ط وستيفلد ٢/٢٣٧ في معرض كلامه على حصن وأمش^{هـ} في ناحية شافرة شرق طليطلة .

استعمال لفظ « ربض آلبازين » ، وقد ساق العالم الهولندى كلامه على هذا النحو ، قال ^(١) « يعبر ابن الأثير بعبارة أخرى إذ يذكر أن ابن مَرْدَنِيْش ، نزل في الشريعة بظاهر غرناطة » ^(٢) ، ومعنى هذه الكلمة في اللغة العربية الفصحى : المكان الذى يستقي منه الماء ، ولكنها تطلق اسما لبعض الأحياء في المدن المغربية دون أن أعلم سبب هذه التسمية ، فابن صاحب الصلاة يذكر في معرض حديثه عن مرا كش أن البراح الموجود خارج باب الشريعة كان مجاوراً للشريعة القديمة .

وفي كتاب دوض القرطاس (ص ٢١) طبعة تورنبرغ ذكر باب بفاس يدعى « باب الشريعة » ، وقد أمدنى الأستاذ إجيلاز Eguilaz بحقائق نادرة عن باب الشريعة بغرناطة . ومن ذلك فقرة في مقطوعة من الشعر الشعبي يرد فيها ذكر لبعض المواضع في غرناطة ، وعنوان هذه المقطوعة Zaide ha prometido fiestas Romancero de وقد وردت في ديوان الشعر الشعبي المعروف بـ Romancero de romances moriscos طبعة Duran (مدريد ١٨٢٨) ص ٤٢ — ٤٣ وفي ديوان Romancero Castellano طبعة Depping & alcala-galiano (ليبرج سنة ١٨٤٤ ج ٢ ص ٢٧٩) .

وهاك ترجمة هذه الفقرة الشعرية عن الإسبانية :

Récherches sur L'histoire et la littérature de l'Espagne (١)

pendant le moyen - âge الطبعة الثالثة ، باريس وليدن سنة ١٨٨١ ، ج ١ ص ٢٨٢ — ٣٨٤ .

(٢) انظر كتاب الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٢٧ ط الأزهرية .

بعضهم يعدو وبعضهم يصبح
 وآخرون يقولون :
 انتظموا واذهبوا جميعا
 إلى شارع القصة
 وآخرون يقولون إلى الشريعة
 لا تتركوها ولا تتركوا رحبتها

ويقول بعد ذلك ، إنه وجد ضمن أحد مخطوطات مدريد (تحت
 رقم Cod.G. 72 de la Bibl. nac.) أن ذلك كان في الشريعة ،
 وليس في موقع باب البنود ، كما ذكر مارمول في كتابه : Rebellion
 de los moriscos (ورقة ٢٨ عمود ٤) من أن الحاجب فيلاسكو
 دى برينونيو قد قتله المورسكيون من أهل حى البيازين في
 سنة ١٤٩٩ ، ثم يورد بعد ذلك عبارة أخذها من نفس المخطوط ،
 وهي أنه في سنة ١٤٩٩ ، ذهب الملك الكاثوليكيان (فردناند
 وإيزابيلا) إلى غرناطة حيث استقبلا استقبالا حافلا ؛ وكان أعظم
 ما ينبغي مشاهدته يومئذ منظر اجتماع أكثر من ثلاثين ألف مسلم ،
 مرتدين كلهم عباةاتهم البيضاء في شريعة البيازين وما يليها في جميع أنحاء
 ذلك السهل حتى سان لازار ، وكان ذلك منظرًا رائعًا .

يتضح من ذلك أن الشريعة كانت جزءاً مما سمي بعد ذلك بحى
 البيازين ، ويمكن التوفيق بين العبارتين بقولنا إن جزءاً من الجيش
 عسكر فيها ، وأن الحى كله كان يقع فوق التل المذكور .

وقد ذهب إلى هذا التفسير للفظ شريعة بمعنى مصلى منذ حوالى
عشرين سنة بكثير من العبقرية العالم الإسباني المغفور له خليان رييرا
في فصل قيم تضمنه المجموع الذى نشره لحسن الحظ تلاميذه^(١) .
ويبدو أن رييرا — ولم يطلع على ما ذكره دوزى فى كتابه
Recherches — لم يعتمد إلا على نصوص مسيحية ، تكرّر فيها ذكر
اسم الشريعة فى بلنسية ، حيث وردت عدة مرات فى صيغ مختلفة مثل
Exerea و Exedrea وخاصة صيغة Xarea . ويستنتج من ذلك أنه كان
يوجد هناك باب شريعة^(٢) فى بلنسية كما كان فى فاس ومراكش ،
وذلك إبان الحكم الإسلامى ، وفى المدة التى تلت سقوط هذه المدينة
نهائياً فى أيدي المسيحيين ، وأن هذا الباب كان يفتح نحو وسط السور
الشرقى للمدينة وهو الذى كان يمكن الوصول إليه من وسط المدينة ،
عن طريق شارع يسمى باسم طريق الشريعة ، أيضاً . أما البرّاح
فلم يلبث أن قامت به مبان جديدة بحكم امتداد العمران ، ومن هنا سمى
الحى بحى الشريعة Barrio de la xarea ؛ وكان يمكن رييرا أن يستشهد
تأيداً لرأيه فى تفسير لفظ شريعة بمصلى بعبارة وردت فى المدونة

(١) انظر : J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y opusculos
طبعة مدريد ، ١٩٢٨ ، ج ٢ من ص ٢٢٦ — ٢٢٩ بعنوان : La xarea de
Valencia musulmana وهو المقال الذى نشره المؤلف فى سنة ١٩٢٧ فى مجلة
Almanaque de los provincias انظر أيضاً نفس المصدر ص ٢٦٢ — ٢٦٣
فى مقال نشر فى مقدمة : El Archivo de Dénia فى سنة ١٨٨٦ .
(٢) خبر نس أيد به رييرا تفسيره ما ورد فى :

Repartimiento del reino de Valencia. (illam exeream qu-
est inter illa duo molendina ad portan de Exerea).

التاريخية الأولى Primera Crónica General ^(١) خاصة بمدينة بلنسية في سنة ١٠٨٦ إذ هدد الحاجب المنذر بن المقتدر من بني هود مدينة بلنسية فسار من شاطبة أسفل أسوار تلك المدينة ، ونص عبارة المدونة ما يلي : "poso en un lugar que era oratorio. o los moros fazien oracion en sus fisstas, et dizienle en su arabigo axerea". ومعناها : نزل في مكان كان يستخدم مصلى ، يصلى فيه المسلمون في أعيادهم ، وكانوا يسمونه في لغتهم العربية باسم الشريعة .

وكان يمكن العالم الإسباني المذكور ، أن يجد في بعض النصوص العربية عن المغرب في العصور الوسطى ما يؤيد هذا التفسير ؛ ومن ذلك ما ذكره البيذق - الرقيق المخلص لابن تومرت - في معرض كلامه على مرور ابن تومرت ببجاية قادما من المشرق إلى المغرب من أنه ورد المدينة في شهر رمضان وفي عيد الفطر اختلط الرجال بالنساء في الشريعة فأقبل الإمام في وسطهم وراح يفرقهم بعضاه ^(٢).

فإذا كانت إذاً تلك الشريعة ، التي كانت تكتظ بأهل مدينة بجاية يوم عيد الفطر ، غير كونها المصلى الخارجي ، الذي كانوا يفدون

(١) نشر R. Menendez Pidal ص ٥٥١ ب سطر ٣٠ - ٣٣ . انظر : R. Menendez Pidal : La Espana del Cid طبعة الأولى ، ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) انظر : Documents inédits d'histoire almohade ص ٧٩ و ٢٥٩ (حيث اقترحت ترجمة لفظ شريعة بمعنى « رعية » خارج المدينة ، وهي التي كان يعقد فيها سوق المدينة الأسبوعي) .

إليه لإقامة الصلاة فيه في الفضاء ؟ وما يشهد أيضا بأن معنى الشريعة ، هو هذا الفضاء ، ما أورده منذ القرن الحادى عشر الجغرافى أبو عبيد البكرى في وصفه للجزائر المسمى (جزائر بنى مزغنة) حيث يذكر أن هذه المدينة كان بها كنيسة كبيرة بقى منها جدار فى عقد دائرى ، يتجه من الشرق إلى الغرب ، قال : وهو اليوم قبلة الشريعة للعبيدين ^(١) ، أو بمعنى آخر أن هذا الجدار — من حيث صلته بصلاة العبيدين الجماعة فى العراء فى مدينة الجزائر — كان يستخدم قبلة . وهناك فقرة أخرى قيمة من كتاب الاستبصار ، وهى خاصة بفاس ، وتؤكد أيضا نفس هذا المعنى الخاص بلفظ شريعة فى المغرب الإسلامى ، وفيها أن لكل من عدوتى هذه المدينة — ونعنى بهما عدوة القيروانيين وعدوة الأندلسيين — شريعة لخطبة العبيدين ^(٢) .

ولنا أن تتساءل الآن عما إذا كانت نفس اللفظة مستعملة بهذا المعنى فى باقى أنحاء العالم الإسلامى الناطق بالضاد .

ويبدو أنه لا بد من الإجابة سلما على هذا السؤال ؛ أما أنا فلم أستطع الوقوف على ذكر لكلمة باب الشريعة فى الشرق اللهم إلا مرة واحدة حين جرى بها قلم الرحالة الأندلسى ابن جبير ، الذى أطلق هذا

(١) انظر : جزائر بنى مزغنة لأبى عبيد البكرى ، ص ٦٦ . ونقل عبارة البكرى صاحب الاستبصار ص ٢٣ ط فينا ١٨٥٢ .
(٢) الاستبصار ٧٠ .

الاسم على أحد أبواب المدينة^(١) ، في رحلته إلى الحج ، وهي الرحلة التي كتبها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ؛ ومن العجيب أن نفس العبارة لم ترد في أى مرجع آخر - فيما أعلم - وذلك على الرغم من وجود أوصاف مفصلة عن هذه المدينة المقدسة ، كما هو الحال في كتاب « وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى » ، للسهمودي . فهل يفهم من هذا أن ابن جبير قد أطلق هذه التسمية من عنده ، باعتبارها مألوفة لديه في بلاده ، حتى صارت في نظره تعبيراً فنياً شائعاً يمكن إطلاقه أيضاً على باب المدينة الذي كان ينبغي اجتيازَه فعلاً لبلوغ المصلى النبوي ؟

على أن لفظ الشريعة بمعناه الخاص ، الذي كان يمثلُه في العصور الوسطى في بلاد المغرب الإسلامي ، يظهر أنه لم يعد اليوم مستعملاً في جميع أنحاء المغرب العربي^(٢) ، وإذا جاز وجوده في بعض الأنحاء ، فإنما يطاق على أسماء بعض الأماكن فقط ، قد خلده ذكر الناس له على مر القرون .

(١) انظر رحلة ابن جبير طبعة W. Wright & De Goeje في لندن ولندن سنة ١٩٠٧ من ١٩٨ سطر ٤ والترجمة الإيطالية للأستاذ Schiaparelli طبعة روما سنة ١٩٠٦ من ١٨٤ حيث ترجمها Porta dell abbeveratorio ويجوز في المعجم الحق بطبعة Wright لفظ الشريعة مفسراً بعبارة : « مكان الاجتماع » ، في معرض كلام ابن جبير (ص ٢٩٥ ، والمعجم ص ٣٧) على وصف مشاهد الجنازات في دمشق .
 (٢) لا أدري علام اعتمد الأستاذ ريبيرا في أن « أهل شمال إفريقيا وخاصة أهل المغرب يطلقون الشريعة على المصلى الواقع في المراء » والفقرة الواردة في : Archives Marocaines ج ١١ ص ٢٥٧ ، التي يحيل إليها كتاب : = Pedro Longas

وعما يصور معناه الحقيقي أن باب الشريعة يجاور أحيانا في المواضع المغربية مرادفه لفظ المصلى ، وكلا اللفظين يطلق على مصليات ريفية قديمة ، بحيث أحيطا بهالة أسطورية غامضة واكتسبا شكلا دينيا مقدسا في العقائد الشعبية^(١)

بقي أمامنا بعد هذا مسألة أخيرة يجب توضيحها : وهى لماذا كانت أبواب الشريعة ، وملحقاتها الخارجية المباشرة في المدن المراكشية في العصور الوسطى غالبا أماكن جرى العرف على اتخاذها لإقامة الحدود فيها ؟ أيرجع هذا في سهولة إلى أن المصلى في أصوله الإسلامية كان يستخدم مكانا تقام فيه الحدود ؟^(٢) ، كما تدل على ذلك الأحاديث

Vida religiosa de los moriscos طبعة مدريد سنة ١٩١٥ من ١٣٣ حاشية ١ لم تذكر غير عبارة (مصل) فقط . ولفظ شريعة الذى لم يفسره دوزى وفينان غير تعبيرات ناقصة وخاطئة ، لم يبق موجوداً فيها أعلم إلا في وهران بمعنى (كتاب ريفي) انظر خاصة : W. Marçais : Quelques Observations sur le dictionnaire de Beaussier publié en l'honneur du XIV^e congrès des Orientalistes Recueil de Mémoires et de Textes : الوارد في طبعة الجزائر سنة ١٩٠٥ من ٤٤٦ حيث ورد المعنى : «خيمة مدرسية عند البدو» . ويمكن أن نفهم أنه إذا كان Vocabulista لا يورد في معنى لفظ oratorum شريعة فإنه يذكر إلى جانب لفظ المصل لفظا مشتقا من الأصل الذى درسناه هنا وهو مشرع .

(١) انظر خاصة التقارب العجيب بين لفظي شريعة ومصلى في :

J. Desparmet : Ethnographie traditionnelle de la mittidja, la calendrier folklorique الوارد في : Revue Africaine ج ٧٧ ، المجلدان الثالث والرابع من سنة ١٩٣٥ من ١٩٣ وقد جاء فيه أن الباحثين سيجدون عددا كبيرا من هذه الأماكن المسماة شريعة (أى مكان العدالة) أو مصل وهى أماكن سرعية .
(٢) انظر خاصة A. J. Wensinck في دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ من ٧٩٧ تحت لفظ مصل وما ورد من مراجع البخارى والطبرى .

الواردة عن عصر الرسول منذ هجرته إلى المدينة المنورة ؟ (١) .
 وهل تجددت هذه السنة في المغرب الإسلامي خاصة على عهد بني
 عبدالمؤمن بن علي ، القوامين على مذهب الموحدين ، وصاحبه المهدي بن
 تومرت الذي عرف عنه شدة تمسكه بالسنة النبوية ؟ هذا الفرض الذي
 لا يخفى ضعفه تتجلى قيمته في عدم إبراز المفهوم العادي للفظ شريعة بمعنى
 الحدود ، وفي الاقتصار على المدلول الإسباني المغربي للفظ بمعنى « مصلى
 في العراء » . على أنه ليس هناك ما يمنع من أن هذا المدلول ، وقد تجاوز
 حقيقة استعماله في المغرب ، صارت الحاجة معه ماضية إلى ربط معناه
 بفكرة « العدالة » ، (٢) .

(١) انظر المراجع التي جمعها فنسك في A Handbook of early Moha-
 mmadan Tradition ليدن ١٩٢٧ ، ص ١٧٣ في لفظ مصل و ص ٢٠١ لفظ
 punishment.

(٢) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، عند الأستاذ لويس سكودي
 لوسينا في باب : Crònica Arqueològica de la Espana Musulmana
 من مجلة الأندلس مجلد ٧ سنة ١٩٤٢ ص (٤٣٨ — ٤٥٨) ، دراسة شاملة
 عن أبواب غرناطة في القرن الرابع عشر عنوانها : Las puertas de la cerca
 de Granada en el siglo XIV. ثم إن الأستاذ ليوبولدو طوريس باليس ،
 نشر في الباب نفسه دراسة رائعة ، عن المصليات الخلوية في إسبانيا الإسلامية
 بعنوان : "Musalla" y "sarià" en la ciudades hispanomusulmanas.
 (مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، سنة ١٩٤٨ ص ١٦٧ — ١٨٠) .

الفصل الثالث

تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن التاسع
الميلادي

ظهر هذا البحث في مجلة Byzantion ج ١٢ ، طبعة بروكسل ،
سنة ١٩٣٧ ، ص ١ - ٢٤

كان ر. دوزى R. Dozy فى تاريخه عن مسلمى إسبانيا ، من أوائل من نوهوا بقيام علاقات دبلوماسية عارضة بين الأمويين فى عصر الإمارة ، ثم فى عصر الخلافة بقرطبة ، وبين أباطرة بيزنطة ^(١) ؛ غير أن هذا العالم الهولندى وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده — لم يوضحوا هذه العلاقات إلا بإيجاز ، فدوزى نفسه قد فاته أن يذكر أن أكبر حكام إسبانيا الإسلامية وهو عبد الرحمن الناصر ، استقبل سفارة رسمية واحدة على الأقل من القسطنطينية ، كما ورد ذكرها فى الروايات العربية القديمة التى نقلها المؤرخون المسلمون فى القرن الرابع عشر ، وإن لم يتفقوا على تاريخها بالضبط ^(٢) .

والمعروف أن الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦ م) ، جدد هذه العلاقة مرة على الأقل . عندما أرسل إلى نفقور فوقاس Nicéphore Phocas وفداً لإحضار صانع مختص فى الفسفساء إلى إسبانيا ، يشرف على زخرفة الأجزاء الجديدة من المسجد الجامع

R. Dozy : Histoire des musulman d'Espagne. (١)

طبعة جديدة ، راجعها وجمدها E. Lévi-Provençal طبعة ليدن ، سنة ١٩٢٢ ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ طبعة دوزى ص ٢٢٩ و ٢٣١ و ٢٤٦ — ٢٤٧ و ٢٤٨ . وابن خلدون : كتاب العبر طبعة بولاق ج ٤ ص ١٤٢ — انظر خاصة عن هذه السفارة والسفارات التى تليها :

É. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane

ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٢٧٦ — ٣٨٢ .

بقرطبة في ذلك الحين ^(١) . وقد لحظ الباحثون بحق ذلك التأثير الذي لا يمكن إغفاله لبينظفة وفنائها على الفن الخزفي لآثار قرطبة في القرن العاشر ، مما لا يمكن فصله بحال من الأحوال عن العلاقات السياسية ، التي يعتقد أنها قامت أو استمرت في نفس المدة بين الإمبراطوريتين ^(٢) .

والمعروف أن هذه العلاقات ظلت - رغم ذلك - ضعيفة أو متباعدة ، إذ أن قرطبة ، عاصمة الخلافة ، بحكم الأوضاع القائمة ، قد اهتمت بالغرب أكثر مما اهتمت بشرق أوروبا . وينبغي ألا ننسى أن الأمويين بإسبانيا كانوا من سلالة سورية ، أي شرقيين ، حتى إن هذا الأصل كان سبب فتلهم وارسقراطيتهم ، التي استطاعوا استغلالها من ناحية أخرى ، غير أن مصير وطنهم الأول ، والخلافات التي قامت بين الحكام المسلمين في الأسرة التي خلفتهم وهم العباسيون ، وبين أباطرة المسيحيين بالقسطنطينية ، لم يكن لها منذ البداية ، غير آثار طفيفة على السياسة الشخصية للحكام الأندلسيين . وقد ساعد الزمان وبعد المكان على

(١) انظر خاصة : E. Lévi-Provençal : l'Espagne Musulmane

au X é Siécle, P. 217.

(٢) انظر : G. Marçais : Manuel d'art musulman : l'Archite-
cture (Tunisie, Maroc, Espagne, Sicile)

باريس سنة ١٩٢٦ ج ١ ص ٢٠٨ وكذلك :

H. Terrasse : L'art hispano-mauresque

باريس سنة ١٩٣٢ ص ٩٧ - ١٠٣ وكذلك :

E. Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne musulmane

الجزء الأول ص ٣٧٩

زيادة العداء المعهود بين الأمويين بإسبانيا ، وبين خلفاء بغداد ، بحيث بدأ الشام يفقد في نظرهم صفة الفردوس المفقود ، بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها نفس المميزات والثراء والخصوبة والطبيعة التي لا تقل عن الشام تنوعاً وانسجاماً . وإذا صرفنا النظر عن المشاغل العديدة التي سببتها لهم في محسكتهم ثورات المستقرين ، والمحاولات الهجومية الإمارات المسيحية الواقعة إلى الشمال من شبه جزيرة إيبيريا — فإن الخطر الأجنبي الذي كان على أمراء قرطبة مواجهته ، لم يكن خطراً عباسياً ، وإنما كان هناك خطر أقرب إليهم وأكثر قسوة عليهم ، ألا وهو خطر الفاطميين وأتباعهم الأقوياء بشمال إفريقيا القريب منهم . ثم إن بيزنطة — لما لها من جاه سياسي في أقصى الناحية الأخرى من البحر الأبيض — لم يكن لها إلا أن تظل قليلة الاكتراث بالأمويين في إسبانيا .

ولم يكن هذا شأن الحضارة البيزنطية ، بالنسبة للثقافة الإسبانية ، فقد رسخت بقوة في المجتمع الإسباني الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، على نحو لم تعهده من قبل ، شأنها في ذلك شأن حضارة العباسيين في العراق ؛ وضعف ولاء هذا المجتمع للتقاليد الشامية إلا ما كان من ولاء لذكريات قديمة ، لم تستطع البقاء أو مقاومة الزمن .

ومهما كان من أمر هذه العلاقات الرسمية ، ومن ظهورها بهذا

المظهر الضعيف ، الذي كان قائماً بين قرطبة الإسلامية وبيزنطة ، فإنها
- نظراً لندرة النصوص الأصلية المتعلقة بها - جديرة بالبحث
المستفيض ولعل في الصفحات المقبلة ما يعين على هذا البحث .

• • •

في كتاب نفح الطيب للمقرئ عبارتان : انفراديهما ^(١) عن قدوم
سفارة من قبل الإمبراطور توفلس Théophile إمبراطور الأسرة
العمورية إلى قرطبة ، في غضون عام ٢٢٥ هـ (٣٩ / - ٨٤٠ م) على الأمير
عبد الرحمن الأوسط ، الذي امتد حكمه من سنة ٨٢٢ م إلى سنة ٨٥٢ م ،
وعن الوفد الذي أرسله الأمير في نفس السنة إلى القسطنطينية .
على أن ما أشار إليه المقرئ في هذا الصدد لم يظل "خافياً" ^(٢) ، غير أن

(١) المقرئ : النفح ١/ ٢٢٣ ، ٦٢١ وما يليهما ، طبعة ليدن .

(٢) انظر :

Dozy : Recherches sur L'histoire et la littérature de
l'Espagne pendant le moyen age.

الطبعة الثالثة ، باريس - ليدن ، ١٨٨١ ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ وكذلك :

A.A. Vasiliev : Byzance et les arabes.

الجزء الأول بعنوان :

M. Canard La dynastie d'Amorium طبعة فرنسية للأستاذين م . كانار

و . جريجوار H. Grégoire ، بروكسل سنة ١٩٣٥ ، ص ١٧٧ - ١٨٨ وكذلك :

Ch. Diehl & G. Marçais : Le monde oriental de 395 à
1081, Vol VII : Histoire du moyen-age

مجموعة G. Glotz باريس ١٩٣٦ ص ٣١٢ (مع البس في إطلاق لقب خليفة على

عبد الرحمن الأوسط) .

ضالة مادته لم تسمح لمؤرخى العلاقات العربية البيزنطية ، باستخلاص شيء كثير منها . على أن الكشف الحديث لنصوص عربية أكثر وضوحا من روايات المقرئ والناقلين عنه الميايين الإيجاز — تفيدنا اليوم بعكس ما كان قبلا ، وتمدنا بعلوم أكثر تفصيلا عن هذه السفارة المزدوجة

وقد وردت هذه النصوص الجديدة مجتمعة فى مخطوطة عثر عليها بين مخطوطات مهمة كثيرة أخرى فى مكتبة جامع القرويين بفاس ؛ وهذه القطعة الخاصة بالأمويين فى اسبانيا الإسلامية إبان القرن التاسع ، تؤلف جزءا من كتاب « المفتبس » ، لأبى مروان ابن حيان مؤرخ الأندلس ؛ ويبنى أن نذكر بهذه المناسبة أن هذا النص قد أمدنا بمعلومات جديدة مهمة عن طبيعة الزيادات التى أدخلها عبد الرحمن الأوسط على المسجد الجامع بقرطبة ^(١) فى النصف الأول من القرن التاسع .

وقد جرى ابن حيان فى كتابه هذا على ما جرى عليه غيره من مؤرخى العرب حيث يعرض الحوادث مرتبة على حسب السنين ،

(١) انظر دراسة ا. لامبير E. Lambert المبنية على الوثائق التى أعرتها

له بعنوان :

L'histoire de la grande mosquée de Cordoue aux VIII et IX e Siècles d'après des textes inédits.

النشور فى :

Annales de l'Institut d'Etudes orientales de l'Université d'Alger.

ثم إذا عرض حادث له أهمية في خلال سنة من هذه السنين ، يورد شواهد أدبية وعبارات لمن سبقه من المؤرخين . ومن ثم فإن الرواية الخاصة بالسفارة المزدوجة فيما بين سنتي ٨٣٩ و ٨٤٠ م ، قد اقتبسها ابن حيان من مؤرخين عاشوا في نهاية القرن العاشر ، وهما الحسن بن محمد بن مفرج ^(١) ، وعيسى بن أحمد الرازي ^(٢) .

وسنذكر فيما يلي ما ذكره هذان المؤرخان ، سواء ما اتفقا عليه أم ما اختلفا فيه أحدهما الآخر ^(٣) .

يقرر هذان المؤرخان أن سفيراً من لدن الإمبراطور توفلس Théophile ، ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية ، ، قد وصل في سنة ٨٢٥ هـ (٨٣٩ — ٨٤٠ م) إلى العاصمة الإسبانية ، وكان هذا رجلاً بالبلاط البيزنطي اسمه قراطيس الرومي Kartiyus ، . وكان يحمل هدايا إلى أمير الأندلس ، ورسالة رسمية يطلب فيها توفلس من عبد الرحمن الأوسط مواصلته ، ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق ،

(١) انظر من هذا المؤرخ المتوفى في سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) :

F. Pons Boigues : *Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles.*

طبعة مدريد ، ١٨٩٨ ، ص ١١٩ رقم ٨٦ .

(٢) انظر É. Lévi-Provençal في دائرة المعارف الإسلامية ج ٣

ص ١٢١٦ .

(٣) فيما يختص بالسفارة المزدوجة في ٨٣٩ — ٨٤٠ م انظر أيضاً :

É. Lévi-Provençal : *Histoire de l'Espagne Musulmane*

ج ١ : ص ١٧٥ — ١٧٨ .

(م ٧ — دراسات في الغرب والأندلس)

ويطلب منه أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويضيف أحد المؤرخين إلى ذلك أنه قد تعهد له في نفس الوقت بأن يستعيد له ميراث أجداده الأمويين في الشرق ، أي الشام ، وهو الذي كان العباسيون قد انتزعوه ، كما طلب هو لنفسه في النهاية جزيرة كريد ، وكانت قد وقعت في أيدي مغامرين من أصل إسباني . وواضح أن كلا من المؤرخين الأندلسيين لم يحاول إيضاح الدوافع التي حدثت بالإمبراطور توفلس في تلك السنة وهي سنة ٨٣٩ م ، إلى توجيه رسالة كهذه إلى عبد الرحمن الأوسط . ومع هذا فهناك معلومات كافية عن سياسة بيزنطة الخارجية في ذلك العهد ، يمكن أن تعوض صمت المؤرخين ، وأن تجد إيضاحاً مقبولا لهذا التصرف الذي لم يكن منتظراً من جانب الإمبراطور البيوناني .

كان الخليفة العباسي في ذلك التاريخ هو المعتصم ، وقد خلف أخاه المأمون في سنة ٨٣٣ م ، وكان قد أوقف المعارك الحربية ضد بيزنطة ، ولكنها لم تلبث أن عادت سنة ٨٣٧ م تحت تأثير توفلس ، ففي غضون هذه السنة ، استولى الإمبراطور فعلا على حصن زبطرة Zapetra . وكان رد المعتصم حاسماً ، إذ اجتاح داخل آسيا الصغرى ، ونجح بعد حصار دام اثني عشر يوماً ، في الاستيلاء على موقع عمورية الحصين في ١٢ أغسطس سنة ٨٣٨ م بعد عناء شديد ، وكانت مهد الأميرة البيزنطية الحاكمة نفسها . غير أن هذا النصر العباسي كان قصير الأمد ، إذ أن جيوش المعتصم ما لبثت أن تقهقرت بعد هذا التقدم

المضنى فى قلب إمبراطورية القسطنطينية . ومنذ السنة التالية ، كان الموقف الحربى لبيزنطة قد ثبت فى آسيا الصغرى . ويبدو بناء على هذا أن وقعة عمورية لم تكن الدافع للإمبراطور توفلس على إنشاء علاقات دبلوماسية مع قرطبة . على أن سفارة إسبانيا لم تكن السفارة الوحيدة التى رأى إمبراطور بيزنطة وجوب إرسالها فى سنة ٨٣٩ - ٨٤٠ م إلى غربى البحر الأبيض . إذ أن هناك وفدين آخرين رحلا فى هذه الحقبة أحدهما إلى مدينة إنجلهايم Ingelheim حيث كان بلاط لويس الصالح Louis le Pieux (١٧ يونيو ٨٣٩ م) ، والثانية إلى البندقية (٨٤٠ م) وكانت الغاية منهما إنشاء تحالف مع الفرنجة والبنادقة ضد مسلمى إفريقيا وصقلية ممن كانوا يهددون الممتلكات البيزنطية بإيطاليا ، بنزولهم على سواحل كالابريا Calabria وأبوليا Apulia ، وباستيلائهم على تارانت Tarente ^(١) وذلك بفضل استفادتهم من الاضطرابات التى كانت سائدة حينذاك فى مدينة بنفان Bénévent . وعلى هذا كان الدافع الحقيقى لتوفلس هذه المرة هو مواجهة الخطر الإسلامى ضد ممتلكاته الغربية ، مما دفعه إلى مخاطبة قرطبة الإسلامية ، كما التجأ إلى الفرنجة وإلى البندقية المسيحية سواء بسواء . على أننا لا نفهم على أى شكل قام التدخل القرطبى ضد

(١) انظر فيما يختص بهذه السفارات : Vassiliev فى كتابه المذكور ، ص ١٧٧ وما يليها ، وص ١٨٤ (حاشية ٤) .

العباسيين ، حيث كان مسرح العمليات البعيدة عن أسبانيا . والمفهوم جيداً على أى حال هو أن توفلس يبدو على العكس من ذلك أنه كان قد سعى إلى إقناع الأمير الأندلسى بطريقة ما ، ومع استعمال المغريات له — بحق هذا الأمير ، فى احتلال مركز العباسيين فى الجزء الشرقى من المغرب الإسلامى أو بطريقة أكثر واقعية أيضاً ، وهى الاستيلاء على مركز تابعيهم اسمها ، وهم الأغالبة فى إفريقية . وقد كان هذا بلا شك الدافع الأساسى للرسالة التى حملها الترجمان قراطوبوس Kartiyus إلى قرطبة .

ويضيف المؤرخان إلى ذلك أن عبد الرحمن الأوسط قد استقبل سفير توفلس بحفاوة بالغة . وقد ملأت هداياه قلب الأمير الأندلسى سروراً ، بقدر ما بعثت فيه من كبرياء ، فلم يتوان عن إعادة الترجمان البيزنطى إلى القسطنطينية مع وفد إسلامى ، فاختار لهذا الغرض منجمين من المقربين إليه ، أى شخصيتين متخصصتين فى العلوم البحتة ، أحدهما يحيى الغزال ، الذى كان شاعراً مشهوراً يخشاه الناس لجهاته اللاذع ، ولسرعة بديهته ، وكان الثانى يسمى يحيى أيضاً ، ولعله اخترع نوعاً من الساعات مما أدى إلى تلقينه بصاحب المنقلة وقد عهد الأمير إلى هذين المبعوثين بالرد على الإمبراطور البيزنطى ، وهو أمر لم يكن منتظراً بل يعد نادراً فى تاريخ الغرب الإسلامى . وقد قل إن حيان نص تلك السفارة كاملاً ، عن الرازى ، وهو نص له ما يؤيده

ويعززه ، وسنورده فيما بعد . غير أن عدم الدقة والغموض المقصود في هذه الوثيقة يستدعى تعليقا على عباراته الجوهرية .

يرمى رد الأمير القرطبي على الامبراطور توفليس بوجه عام إلى شيء واحد هو عدم رغبته في استقبال أحد ، وهذا رد لا يعتبر دبلوماسياً في جميع الأحيان . ومع ذلك فهو يعطينا في الوقت ذاته فكرة عن مضمون الرسالة البيزنطية ، إذ أن الكاتب القرطبي الذي حرر الرسالة العربية ، قد تناول نص الرسالة اليونانية ، فقرة فقرة ، كما لو كان هو المكلف باستقبال الترجمان البيزنطي مع احتفاظه من ناحية أخرى بالرد الحقيقي على الأسئلة المطلوبة والاقتراحات التي اقترحتها حكومة القسطنطينية . ونجد الأمير القرطبي بعد أن يدخل في موضوع الرسالة التي لا تظهر فيها عبارة من عبارات المجاملات السياسية وربما ، كان الرازي هو الذي أخذ على عاتقه حذفها - يصرح بأنه فهم جيداً أن الرسالة البيزنطية قد أنبأت به بالوفاة المحزنة لجده مروان الثاني ^(١) ، سنة ٧٥٠ م ، تحت ضربات العباسيين ، وبأنه لا يجهل الطغيان الواقع على أتباعهم ، على يد خليفتهم في الشرق وهما معاصراه المأمون ^(٢) وأخوه المعتصم ^(٣) . وهما لا يذكران في الرسالة الأموية باسميهما

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٣٥ - ٥٦ مقالة

K. V. Zetterstéen

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ (نفس المؤلف) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٨٣٨ - ٨٣٩ مقال :

K. V. Zetterstéen

الحقيقيين أو بلقيهمما الشرفيين اللذين يذكران بهما عادة ، وإنما يكنى
 عنهما على سبيل التحقير بلاريب ، وربما حدث ذلك أيضا في الرسالة
 البيزنطية - باسم ابن مراجل وان ماردة . وهما امرأتان كانتا أمتين
 لهرون الرشيد ، وأنجبتهما ولدين توليا العرش من بعده . ويعلم الأمير
 القرطبي من الرسالة أن الأسرة العباسية ، كما يعتقد توفلس على الأقل
 - قد وصلت إلى نهايتها ، وأن الملحظة قد واثت - حرصاً على مجد
 الإسلام والأمويين - للانتقام منها لمخازيها العديدة ، غير أن عبد الرحمن
 الأوسط يتحفظ في موقفه بهذا الصدد ، ونشعر بأن الإمبراطور البيزنطي
 قد استهان بالقوة الحقيقية لدولة الأندلس أو لم يحط خبراً بها ، وهذا
 ما لم تشر إليه الرسالة بطبيعة الحال .

وقد حاول توفلس في رسالته محاولة أخرى لا تخلو من الدهاء ،
 وإن كانت أقل عاطفية ، وهي محاولة إقناع عبد الرحمن الأوسط
 بفائدة محالفته إياه ، ذلك أنه ، لم يكن قد انقضى بعد خمسة وعشرون
 عاما على ثورة الربض جنوبي قرطبة أيام الأمير الحكم والد
 عبد الرحمن الأوسط ، الذي فتك بالثوار فتكا ذريعاً " فاما الذين
 نجوا من القتل فقد أخرجوا من قرطبة ، فلجأ بعضهم إلى طليطلة ،
 ولجأ الآخرون إلى مراكش ، حيث عمروا جانباً من فاس ، وكان

(١) انظر :

E. Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane

الجزء الأول من ١١٣ - ١٢١ .

الأمير إدريس الثاني قد بدأ في تأميمها ، وهاجر فريق آخر من أهل الرض ، أو الربضين ، - كما يسميهم مؤرخو العرب - إلى مصر يرأسهم شيخ من بينهم يدعى أبا حفص عمر البلوطي ، وحاولوا أن يكونوا سادة على الإسكندرية ، غير أنهم ما لبثوا أن فشلوا في محاولتهم هذه ، واضطروا إلى الرحيل إلى جهة أخرى فنزلوا كريت - وكانت حينئذ تابعة لبيزنطة ونجحوا في الاستيلاء عليها سنة ٨٢٧ م ، وأنشأ فيها أبو حفص البلوطي أسرة ظلت تحكمها إلى أن استولى عليها البونانيون سنة ٨٦١ م ^(١) .

والظاهر أن تذكير عبد الرحمن الأوسط بهذا التدخل الأندلسي ، الذي لم يعد أن يكون أمراً عارضاً ، في ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية كان ضعيف الأثر في نفسه ، فتراه يقتصر في رسالته المسددة على ما يذهب إليه في شأن هؤلاء المنفيين من أنهم ثوارخونة لوطنهم الأصلي ، ولكنهم على أي حال لم يعودوا من رعاياه . ومن ثم فلا يسأل عما يفعلون ، ولذلك فهو يبيح للإمبراطور البيزنطي

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٨٩ - ٩٠ (مقال عن أبي حفص كته C. F. Seybold) وكذلك :

M. Gaspar Remiro : Cordobeses Musulmanes en Alejandria Y. Creta

المنشور في : Homenaje à D. Francisco Codera سنة ١٩٠٤ ص ٢١٧ - ٢٢٣ وخاصة Vasiliev في كتابه المذكور ص ٤٩ وما يليها (حيث ذكر فيها التاريخ الحقيقي لغزو الجزيرة ٨٢٧ - ٨٢٨) .

أن يطردهم بقوة السلاح ، ثم إنه لا يخفى دهشته من أن الامبراطور العظيم يأبه لحفنة من المغامرين إلى حد أن تثير نائره .
ولا يرد في رسالة عبدالرحمن ذكر لعلاقة أمراء إفريقية (تونس) بالخلفاء العباسيين في المشرق ، وكانت حكومة بيزنطة تضيق بسياستهم الاستقلالية .

والأغلبة هم أمراء إفريقية وعاصمتهم القيروان ، وكان أبو عقاب الأغلب بن إبراهيم أميرهم في ذلك الحين ، قد توفي بعد ذلك بعام وخلفه ابنه أبو العباس محمد ؛ والمعروف أنهم كانوا قبل ذلك بزمان طويل قد خلعوا عنهم الوصاية العباسية ، التي كانت اسمية بحجة ، ولم يكن يخفى على عبدالرحمن ، رغم بعد بلاده عن بيزنطة ، أنهم كانوا الأعداء المباشرين للسلطة البيزنطية ، التي كانت تخشى احتلالهم لصقلية وتخشى حملاتهم المتكررة على سواحل إيطاليا الجنوبية ، ومع هذا نجده لا يذكر كلمة واحدة عن هذا كله في رده ، مفضلاً بلا شك أن يبقى متحفظاً حريصاً ، لأنه كان يعلم في نفس الوقت أن ذلك من شأنه مظاهره مشترك على توسيع رقعة في دار الإسلام .

ويختتم الأمير الأندلسي رسالته بإعلانه عودة سفير الامبراطور توفلس يرافقه اثنان من الأندلسيين ، كما يدعو الامبراطور في أسلوب حريص جداً على أن يزودهما عند عودتهما بهدايا جديدة ، ثم يروى الرازي - وهو الذي نقل نص هذه الرسالة القرطبية - نبأ رحيل السفارة الإسلامية ، ووصولها إلى القسطنطينية ، واستقبال توفلس إياها ،

وتسله منها هدايا الأمير الأموي ، ثم رده الرسمي . ويزيد المؤرخ على هذا أن السفيرين الأندلسيين قد ركبا البحر بعد هذا بقليل وعادا إلى بلاد الأندلس .

وعلى نأ هذه السفارة المزدوجة بين بيزنطة والأندلس من سنة ٨٣٩ - ٨٤٠ تقتصر الوثائق الجديدة ، غير أن ابن حيان ذكر في كتابه المقتبس إلى جانب هذه الرسالة أخباراً عن يحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وكان أحد هذين الرسولين وهي أخبار لا تخلو من أهمية وهذه الشخصية تبدو من أعجب شخصيات القرن التاسع الميلادي ، في إسبانيا الإسلامية ^(١) وكان قد بلغ في ذلك الوقت سناً متقدمة ، لم تكن تسمح له بسهولة أن يقبل الذهاب في بعثة دبلوماسية كلفه بها سيده لدى الإمبراطور البيزنطي ، ولكنه ركب البحر مع رفيقه وسميه يحيى ، والترجمان اليوناني ، بعد أن تهيأ لذلك وزود أسرته التي تركها في قرطبة بما يلزمها من نفقة . ثم خرج من ميناء مرسية في تدمير ليواجه رحلة شاقة ، تعرضت فيها السفينة للعواصف ، حتى بلغ القسطنطينية في النهاية . وهناك ما لبث أن نجحت حكمته وصرامته

(١) تكلم عنه ابن حيان في الجزء الذي لم ينشر من كتاب المقتبس وهو خاص بامارة الحكم الرضى وعبد الرحمن الأوسط ، وانظر أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٩ - ٦٣٤ ؛ وكذلك : Pons Boigues : Ensayo, No. 2 : ص ٣٨ وما يليها - قلا من كتاب : Dozy : Recherches : وكذلك : E. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

فى أسلوب حديثه . ويحتوى كتاب المقتبس لابن حيان ، على عدة أحاديث تمكاد تشبه الأساطير فيما يتعلق بإنجاز مهمة البعثة ، وهى جدرة بأن نقف عندها قليلا .

فعند وصول الوفد الإسلامى إلى العاصمة البيزنطية ، حدث أن كاف موظف بيزنطى - كان مقدم السفراء - بتعريفه بأداب البلاط والاستقبال فيه ، ثم دعى الغزال لمقابلة توفلس . فاشتراط الغزال عليه ألا يسجدا له ، وألا يخرجهما عن شئ من سنتهما ، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لهما فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه ، فضيق حتى لا يدخل أحد عليه إلا راكعا . فلما وصل إليه جلس إلى الأرض ، وقدم رجله وزحف على أليديه زحفة ، فلما جاز الباب ، استوى واقفا ، والملك قد أعد له ، وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام مائلا بين يديه (١) .

ولم يملك توفلس إخفاء ابتسامة إعجاباً به قائلاً لرجال دولته المحيطين به : كان الحكماء على حق فى قولهم إن من شخصية الرسول يعرف سيده . إن هذا الأندلسى حكيم من حكماء القوم ، وداهية من داهاتهم .

وحدث مرة أخرى ، أن طلب الغزال وهو فى حضرة الإمبراطور ماء ليشرب ، فأحضروا له كأساً من الذهب المزدان بالأحجار الكريمة

فلما شرب وارتوى سكب الماء الذى بقى فى الكأس على الأرض ، وأخفى الكأس فى كم عباءته ، ورأى الإمبراطور فى ذلك ما لا يليق وصرح به على لسان ترجمانه ، فكان رد الغزال عليه : إن أمرانا الذين تبغون صداقتهم ، قد اعتادوا عند ما يطلب أحد السفراء أن يشرب فى حضرتهم — أن يطلبوا له كأساً ثميناً ، يمكنه الاحتفاظ بها بعد شربه منها . فإذا كانت عادة سادت هذه غير متبعة لديكم ، فأنى مستعد لإعادة كأسكم إليكم ، وهم السفير بإخراجها من كمه ، إلا أن توفلس بادر فأشار إليه بالاحتفاظ بها .

هذه الحكايات ليست بذات أصالة كبيرة ، إذ لا يشق على الباحث أن يجد روايات قريية منها فى الآداب الشعبية لبلاد عدة ، وهناك حكايات أخرى عن مقام الغزال فى القسطنطينية تبدو أكثر وثوقاً من سابقتها ، وتظهر فيها على مسرح الحوادث ، الإمبراطورة ثيودورا Theodora المعروفة فى الروايات العريضة بتود ، زوجة توفلس ، وابنها الأمير الطفل ميشيل ، ولعله خلفه سنة ٨٤٢ م ، أى بعد هذا بزمان وجيز جداً . ويبدو فى هذه الحكايات ، أن الغزال لم يلبث أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة فى العاصمة البيزنطية ، ذلك أنه كان يوماً جالساً فى حضرة ملك الروم وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسناً ، فجعل الغزال لا يميل طرفه

عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه ،
وأمر الترجمان بسؤاله فقال له : « عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه
الملسكة ما قطعنى عن حديثه ، فإنى لم أر قط مثلها ، ، وأخذنى
وصفها ، والتعجب من جمالها ، وأنها شوقته إلى الحور العين .
فلما ذكر الترجمان ذلك للملك ، تزايدت حظوته عنده ، وسرت
الملسكة بقوله (١) .

وحدث أن مخصص لسكن الوفد الأندلسى قصر من قصور
القسطنطينية ، سماه ابن حيان بامم (أكاديمية من مرمر) .

ويقال إن الإمبراطورة قد أنت فى مناسبة خاصة ، فى إحدى
الامسيات الشديدة الزمهرير ، لزيارة الشاعر القرطبي ، برفقة ابنا
الأمير ميشيل ، وأحضرت إليه معها نبيذا ، وقد نظم الغزال فى مناسبة
هذه الزيارة قصيدة تتمثل فيها بعض الصور الشعرية الرائعة لهذا
العصر يقول فيها :

وَأَغْيَدَ لَيِّنِ الْأَطْرَافِ رَخِصَ
كَحِيلِ الرَّفِ ذِي عُنُقٍ طَوِيلِ

ترى ماء الشَّبَابِ بِوَجْنَتَيْهِ
 يَلُوحُ كَرَوَاقِ السَّيْفِ الصَّغِيلِ
 من أبناء الغَطَارِفِ قِصْرَى الـ
 مَعْمُومَةِ حِينَ يَنْسَبُ وَالْخَوُولِ
 كَأَنَّ أَدِيمَهُ نِصْفًا يَنْصَفِ
 من الذهبِ الدَّلَاصِ أَوْ الْوَذِيلِ
 وَرَبَّتَمَا أَكْرَزَ فِيهِ طَرْفِي
 فَاحْسَبْ أَنَّهُ مِنْ عَظْمِ فَيْلٍ
 عَلَى قَدَرٍ سَوَاءٍ لَا قَصِيرِ
 فَتَحْتَرُّهُ وَلَا هُمْ بِالطَّوِيلِ
 وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ فِي اعْتِدَالِ
 كَغُضْنِ الْبَانِ فِي قَرَبِ الْمَسِيلِ
 يَحِينُ إِلَى مُضْطَارِبٍ لَشَكْلِي
 وَيُكْثِرُ لِي الزِّيَارَةَ بِالْأَصِيلِ
 أَنَّى يَوْمًا إِلَى بَرْقٍ خَرِ
 تَشْمُولِ الرِّيحِ كَالْمِسْكِ الْفَتِيلِ

ليشربها معي ويبيت عِنْدِي

فَيُثْبِتَ بَيْنَنَا وَدَّ الْخَالِيلِ

وجاءت أمه معه فكانا

كَأَمْ الْخَشْفِ^(١) وَالرَّشَا الْكَحِيلِ

تَوَصَّيْنِي بِهِ وَتَقُولُ أَخْشَى

عليه البرد في اللَّيْلِ الطَّوِيلِ

فَقُلْتُ حِمَاةَ مَيِّ وَنَوَكَا

فَدَيْتُكَ لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الشُّمُولِ

فَأَبَةُ غِرَّةٍ سُبْحَانَ رَبِّ

لو اني كنت من أهل العُقُولِ^(٢)

ويؤخذ من هذه القصيدة أنه لما وصل الغزال إلى القسطنطينية في شتاء سنة ٨٣٩ - ٨٤٠ م، كان الأمير ميشيل شاباً قادراً على معاقرة الخمر وإدمانها، حتى لقد لقب بعد ذلك «بالسكر». والمعروف أن تاريخ ميلاد الأمير الذي صار فيما بعد ميشيل الثالث كان موضع

(١) الخشف = ولد النطى .

(٢) انظر مجلة Byzantion مجلد ١٢ سنة ١٩٣٧ طبعة بروكسل ص ٢٤ .

جدل كبير ، إذ لا يعرف عمره بالضبط عندما صار إمبراطوراً غداة موت أبيه سنة ٨٤٢ م ، حيث تولت أمه الإمبراطورة تود الوصاية عليه عدة سنوات .

والمعلومات التي لدينا هنا - رغم طبيعتها القصصية - يمكن بلا ريب أن تكون ذات قيمة . وخلاصة القول فيها أنها تتضمن حجة تؤيد ما ثبت أخيراً من أن ميثيل الثالث ، كان عند ولايته الحكم في السادسة من عمره ^(١) ، ولم يكن في الثالثة أو الرابعة .

وتثير شخصية هذا الشاعر السفير في النهاية مشكلة تاريخية أخرى عن علاقات دولة بني أمية في إسبانيا بالدول الأخرى غير الإسلامية . إذ المعروف أنه بعد عودة السفارة التي كان عبد الرحمن الأوسط قد أوفدها إلى تونس ، نزلت بعض عصابات من الملاحين الإسكندنافيين ممن يسميهم المؤرخون العرب بالمجوس (أى عبدة النار) أو الأَرْدُمَانِيِّين (أى النرماند) في عدة مواضع من المنطقة الساحلية من شبه جزيرة إيبيريا في لشبونة ، ثم نزلوا بعدها في إشبيلية حتى بلغوا في صعودهم بسفنتهم أسفل الوادي الكبير .

(١) انظر Ernest Stein في مقاله بعنوان Post-Consulat في :
 Annuaire de l'Institut de Philologie et d'histoire orientales
 ج ٢ سنة ١٩٣٤ مجموعة Mélanges Bidez ص ٨٩٩ رقم ٢ وكذلك :
 A. A. Vasiliev : Byzance et les Arabes طبعة فرنسية ج ١ ص ١٩١ .
 ولا يمكن أن يكون ميثيل قد تجاوز سنة ٨٤٠ م العام الرابع من عمره .

هذا الهجوم غير المنتظر سبب للمسلمين خسائر عدة غربي الأندلس، غير أن الحكومة الأموية بقرطبة، لم تتوان في المقاومة، حتى وصلت بمجهود كبير إلى دفع المغامرين وإجبارهم على العودة إلى البحر؛ على أن عصابات نرمنديّة أخرى، ما لبثت أن أعادت الكرة على الساحل الأندلسي في نفس هذا القرن وفي القرن الذي تلاه^(١).

ويؤخذ مما ذكره ابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ١٢٣٥ م، في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب، أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قد دخل في مفاوضات مع حاكم هؤلاء الجوس، غداة رحيل الزماند، في سنة ٨٤٤ م، كما أن الغزال ورفيقه في بيزنطة، لا بد أنهما تلقيا أمرا من جديد بالرحيل هذه المرة إلى شمال أوربا، بعد عودتهما من لدن توفلس، لإحضار رسالة منها إلى الأمير. والظاهر أنهما قاما بهذه الرحلة التي ركبا فيها الأطلنطي، ثم عادا إلى إسبانيا بعد ذلك بعشرين شهرا.

ولكننا ندش إذ نجد أن المؤرخين القدامى العرب، بما فيهم ابن حبان، والمصادر التي يستند إليها، والتي توسعت كثيرا، رغم

(١) فيما يختص بالزماند في إسبانيا الإسلامية يمكن - بالإضافة إلى البحث القديم الذي كتبه دوزي في كتابه *Récherches* ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٧١ ط ٣، الرجوع إلى الكتب المذكورة في مقال بدائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٥ - ١٠٦ (نحت لفظ الجوس) وكذلك:

É. Lévi-Provençal : *Histoire de l'Espagne Musulmane*

ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٧ و ٢١٨ - ٢١٩.

ذلك في مسألة النرمند منذ سنة ٨٤٤ م — لم يشيروا إطلاقاً إلى هذه المحاولة الغريبة التي قام بها عبد الرحمن الأوسط، ومع كثرة المعلومات المسببة، التي أوردتها المؤرخون عن الغزال، فإنهم لم يسجلوا هذه البعثة الرسمية الجديدة، التي عهد بها إليه الأمير لثقتة فيه، لهذا أميل إلى الاعتقاد بأن هذه السفارة الثانية كانت خيالية بحتة، وأن رواية ابن دحية، التي وثق فيها دوزي، وترجمها كلها في بحثه عن «النرمند في إسبانيا»، لم تكن سوى تأثير متأخر للرواية الواردة عن رحلة الغزال إلى القسطنطينية؛ ومن المناسب أن نقرر - انتظارا لإمكان العثور على أدلة عن هذه الحقيقة - أن في رواية ابن دحية تفاصيل تماثل مأساة ابن حيان في صدد سفارة قرطبة للبلاط البيزنطي، ومنها «مخرجات السفير في مخالفته لقواعد البروتوكول الإمبراطوري»، عند استقبال الحاكم له، ومنها القصيدة التي نظمها في عاصفة هبت أثناء ذهابه، ثم مقابلته للإمبراطورة التي سأله بشغف وأعجبت به، كل هذا نجده هنا وهناك.

ولا شك في أن هناك تأكيدات أخرى في روايه ابن دحية، من ذلك أن الإمبراطورة تلقب باسم 'نود' (Nud) (بالنون) ألا يمكن اعتبار هذا تصحيحاً عن كلمة تود (بالتاء) وهو اسم الملكة ثيودورا في الرواية العربية؟ ويعود الغزال عن طريق «ساناجو دي كومبوستلا، أو شنت ياقب»، وهي مدينة من الصعب أن تتصور مروره بها - في

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧٨ .

رحلته إلى القسطنطينية ابل على العكس من ذلك ، تعد الرواية ضربا من الخيال الذى يصعب قبوله اليوم وهذه الواقعة ، شأنها فى ذلك شأن ما هنالك من تماثل بين الروايتين المتعلقةتين بالسفارة ، توحى لنا بأن مساعى إمبراطور بيزنطة لدى قرطبة ثم نزول الملاحين السكندنافيين على الساحل الأندلسى ، مما انطوت ذكراه على قسط كبير من العناصر القصصية - كل أولئك أدى إلى امتزاج هذه العناصر والعقائد الشعبية فى إمبرانيا الإسلامية ، حيث انتهى بها الأمر إلى تشويه الحقيقة التاريخية شيئا فشيئا ، كما يحدث عادة .

ملحق

رد أمير قرطبة ثوفلسي Theophile^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه الذي كان عليه من مضي
منكم لآوليننا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ،
وإرسال قرطوبوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك
المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما تتمسك به ،
وتتواصل له ، ونبعث رسلاً من عندنا إليك ، ليعلموك بالذي نحن
عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقدمهم
عليك مودتنا ، وتم به صداقتنا .

وفهمنا ما ذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه ،
ومن وشائج قرابتنا منه ، وآسيت لما استلب من سلطانه ، واستبج
من حرمة ، واستحل من دمه ، وما كان من النماجر أبي جعفر ترابه الله ،

(١) نشرت ترجمة إسبانية لهذه الرسالة في كتاب :

Cl. Sanchez-Albornoz: La Espana musulmana según los
autores islamitas y cristianos medievales.

طبعة بولس ليرس ، ١٩٤٦ ، ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٨ .

وجراءته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه لمحارمه ، والله قد أحصى عليه ذلك ، فأَسَفه منه ، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذى ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراحل وابن ماردة أخيه بمسده ، من إلحادهما فى نحلتهما ، وإساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما فى رعيتهما ، وشدة وطأتهما عليهما ، واستحلالهما ذماهم وأموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم ، وتأذن الله برد دولتنا ، وسلطان آبائنا ، الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل ، وأوجب لهم الإجماع ، وحازه إليهم البرهان ، والذى حضضت عليه من الخروج إليهم ، وطلب الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ، ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من أمر أبى حفص ، ومن معه من جالبة بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من أهل الإنكار لذلك والأئمة منه ، وحكيت من أمراء إفريقية فى نزعهم عن ابن ماردة ، وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته . وكل ما حكيت من ذلك وقصصته فى كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديدده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، بما كان عليه أولوك لأولينا ، فقد رغبتنا منك فى مثل الذى ذكرته من حرصك على مواصلتنا . وأن تمسك من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من

الملوك يتمسكون به ، وينحاضون عليه ، ويحفظه بعض البعض ،
ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن
الله تعالى أحب أن يكرمه ، بما انتُهك من حرمة ، ونُكث من بيعته
ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقى بذلك من ركبته منه ، ويخزيه ويعذبه
عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد ، وظله
وجراته على الله ، وإتھاكه لمحارمه ، فإن الله قد أخذ به ذنبه ، واستدركه
ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لا انقطاع له ، ولا تخلص
منه ، جزاء بما اجتراح ، وكذلك حكم الله في أهل معصيته ، وأولى
الاجترأ والاقترأ عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من
الخروج إلى ما قلته وذكركه من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ،
وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين
ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز
موعوده إيانا ، ونتمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ،
من أهل شأنا وأندلسنا وأجنادنا و **ك**ورنا وثغورنا ، وما لم نزل
نسمع ونعترف ، أن النعمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل
المغرب بنا وعلى أيدينا ، فية قطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن
شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ، ومن صار معه من أهل بلدنا ، في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته وما سألت من النظر في أمورهم ، والإنكار لفعالهم ، فإنه لم يزع إليه منهم إلا سيفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأبائهم ، وليسوا في بلدنا ولا يرتبنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة ، لما منهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرّقه من بلدك ، وإذا ترى مكانهم به من موضعك وإن الله بحوله وقوته وفضله ومِنْتَهُ رَدَّ إلينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا مارعيتك من حقنا وقت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطوبس علينا ، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، والذي يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك لتنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله .^(١)

الفصل الرابع

ألفونس السادس

والاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥ م

ظهر هذا البحث في مجلة Hesperis مجلد ١٢ ، سنة ١٩٣١ ،

ص ٢٣-٤٩ .

كان استيلاء ألفونس السادس ، ملك ليون وقشتالة ، على مدينة طليطلة ، وهو ما يحدد معظم المؤرخين المسيحيين والمسلمين تاريخه بشهر مايو سنة ١٠٨٥ م ، من أهم أحداث التاريخ الإسباني في العصور الوسطى ، إذ كان هذا تنويجا للجهود المضنية ، التي بذلت في حركة الاسترداد المسيحي ، في القرن الحادى عشر ، فقد كان له نفس الصدى الذى حدث عند سقوط هذه المدينة يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة فى أيدي المسلمين ، قبل ذلك بأربعمئة سنة ، بحيث سرى هذا الاستيلاء فى جميع أنحاء الأندلس والمغرب مسرى الألم والحسرة ، مما كان حافزا أساسيا دفع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين إلى التدخل العسكرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد ردت هذه الحملة المظفرة التى قام بها على رأس جيوشه ، بمعاونة ملوك الطوائف الأندلسية كرامة الجيوش الإسلامية . غير أن أمير المسلمين لم يستطع أن يفيد من الهزيمة التى أنزلها بالقوات المسيحية فى موقعة الزلاقة فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، إذ ما لبثت الأندلس أن شعرت بوطأة بربر إفريقيا عليها .

وتاريخ كل هذه الحقبة ، وهو لامع أحيانا ومظلم أحيانا أخرى ، ولكنه مضطرب جدا ومُعقد للغاية ، معروف لنا منذ وقت طويل . وعلى الرغم من الخلافات الواضحة أحيانا بين الروايات المكتوبة

عن هذه الحقبة أو عن القرون التالية لها ، فإن في تعاقب الحوادث ما يهديننا ، وإنما اقتصر الغموض على الظروف التي سبقت استيلاء ألفونس السادس على طليطلة من حيث تفاصيلها .

وقليل هم المؤرخون الذين عُنوا ببيان هذه الظروف ، سواء منهم من كتبوا بالعربية أو باللاتينية ، ولم يرد فيها كتبه ذكر لما ساقه ابن حيان ونقله بعد ذلك ابن بسام في كتابه « الذخيرة » ، ولكن بقي لنا موجز من ذلك في كتاب « نفح الطيب » للمقرئ (١) .

وقد أتبع لكاتب هذه السطور أن يعثر في سنة ١٩٣٠ على فصول نقلها ابن بسام عن الحوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على طليطلة (٢) . وابن بسام ذو أسلوب أدبي واضح ، وعبارات متقاة تتخللها ألفاظ صعبة . وتعتبر الرواية الطويلة التي وردت في كتابه « الذخيرة » وثيقة هامة طريفة . وسنحاول هنا أن نذكر طرفاً منها ، بعد أن قابلناها بالنصوص العربية واللاتينية .

حسبنا أن نذكر بإيجاز أن نهاية القرن العاشر وبدء القرن الحادى عشر كانت إيذاناً باضمحلال ونهاية الخلافة الأموية في قرطبة .

(١) المقرئ - « نفح الطيب » طبعة ليدن ج ٢ ص ٧٤٨ وكتاب « الذخيرة » لابن بسام المجلد الرابع ص ١١٦ - ١٣٢ .

(٢) « الذخيرة » لابن بسام ج ٤ ص ١١٦ - ١٣٠ وكتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب طبعة الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٢٠٧ - ٢١٠ .

فبعد العهد الزاهر الذى كان يشمل الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر، لم تلبث السلطة أن انتقلت فى عهد هشام الثانى — الذى لم يكن له من الخلافة إلا اسمها — إلى العامريين الذين أخضعوا إسبانيا الإسلامية عدة سنوات لنظام دكتاتورى خالص. وكان من أثر ذلك تجزئة إسبانيا الإسلامية، وقيام بمالك صغيرة مستقلة، عرفت باسم مالك الطوائف، آتس بعضها أمراء البربر، والبعض الآخر أمراء الصقالبة. وكان أهم هذه الممالك فى الشمال دولة سرقسطة وأصحابها بنو هود، ودولة بلنسية وأصحابها العامريون، ثم دولة طليطلة وأصحابها بنو ذى النون.

وكان أهم ملوك هذه الدولة الأخيرة وأطولهم حكماً أيضاً المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون، خلف أباه إسماعيل الظافر سنة ٤٣٥هـ (١٠٨٣ م). وكان هذا أول الملوك الثلاثة فى هذه الأسرة، استقر أجداده فى إسبانيا منذ القرن التاسع على الأقل، وهم من أصل بربرى، ونسبتهم فى قبيلة هَوَّارة المغربية، قد عَرَّبُوا اسمهم من بنى زِنُون أو دِنُون إلى بنى ذى النون^(١). وكانوا يعمدون فى مطلع القرن الحادى عشر سادة أولى شأن فعلاً فى نواحي الشمال بمدن شَنْتَبَرِيَّة ووادى، وَوَقْش. وربما كانوا أحياناً غُصَّة لأمراء قرطبة، لنزوعهم

(١) انظر: «البيان» لابن هذارى طبعة باريس سنة ١٩٣٠ ج ٣ ص ٢٧٩.

إلى شق عصا الطاعة عند أول بادية . وقد تولى أبوه في
 طليطلة القيادة العسكرية ، واتخذ مدينة شنتبرية مقراً له ، وقد سعى
 إليه أهل طليطلة في أن يحل في حكم مدينتهم محل الأمير (يعيش) ،
 وكانوا ساخطين عليه ، فأرسل إليهم ابنه إسماعيل الذي تسمى بالظافر ،
 ولكن حكمه لم يدم إلا قليلاً (١) .

ولم يلبث ابنه يحيى المأمون ، وقد خلفه ، أن واجه صعاباً جمة
 أثارها جاره في الشرق — سليمان المستعين صاحب سرقسطة من بني
 هود . فقد نازعه على وادى الحجارة وأخذها منه غصباً . وكانت دولة
 طليطلة متراصة الأطراف ، يحدها في الجنوب الشرقى نواحي دولة
 الصقالبة في بلنسية ، ودانية ، والمرية ، وتناخها دولة بطليوس في الغرب
 وفي شرقها دولة سرقسطة ، ثم إمارة بني رزين ، وألبونث .

وكانت المدن الكبرى — عدا طليطلة — هي مدن وادى ،
 وقونكة ، ووقش ، وقلعة رباح . وإزاء ما فعله المستعين ، جرد المأمون
 حملة عليه ، ولكنه باء بالهزيمة ، وآل أمره إلى أن صار حبيساً في
 طليطلة وحوصر فيها . عندئذ سعى في مخالفة الأمير المسيحي فردند
 الأول صاحب ليون وقشتالة ، ونال ما أراد غير أن هذا الاتفاق
 لم يعد عليه بما يرجوه مما كان قد وعده به فردند ، فلم يخلصه من خطر
 ابن هود منافسه إلا موته بعد ذلك بقليل سنة ١٠٤٣ (١٠٤٦ م) .

(١) الأيآت الغرب ص ٢٧٦ — ٢٧٧ . وانظر أيضاً A. Prieto Vives
 في كتابه Los reyes de Taifas طبعة مدريد سنة ١٩٢٦ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

غير أن الحلف الذى عقده المأمون مع صاحب لبون وقشتالة ، دل على اتجاه جديد فى تفكير الأمراء المسلمين ، فالواقع أنه منذ هذه الحقبة ، وقد استفد ملوك الطوائف قوام فى منازعات بينهم وحروب دامية ، ظهر للبلا تدخل الحكام المسيحيين فى الحياة السياسية للدول الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية . حتى ذلك الحين ، كان هؤلاء الأمراء المسيحيون هم الذين يسعون فى طلب الهدنة أو الإحلاف من القائدين المظفرين صاحبي الدهاء ، ونعنى بهما الدكتاتوريين العامريين الأولين . أما الآن ، فأمرء المسلمين هم الذين يلتصقون هذه الهدنة وتلك الإحلاف ، بمن كانوا رعايا الإسلام الأسباني من قبل ، أملاً فى التغلب على الأخطار الداخلية ، وإحباط الهجمات أو الغارات من قبل الدول الصغيرة المجاورة . على أن هذه الاتفاقات بين ملوك اختلفت أديانهم ، مما أملت مقتضيات الزمن وحدها ، تعتبر لا غرابة فيها ، إذ انحن أمنا قليلا فى دراسة إسبانيا . ودرسنا العهد من الناحية الاجتماعية . فالإسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين ، سواء فى الداخل أو الخارج ، وكانت طليطلة عاصمة القوط القديمة ، قد احتفظت بين أسوارها بالجسم الغفير من أبنائها المسيحيين ، الذين لم يقبلوا الإذعان والخضوع للحكم الأموى ، إلا بعد وقت طويل ، رغم الحملات التى جردت عليهم مرارا ، وكان لا بد من همه عبد الرحمن

الناصر لإخضاعهم^(١) .

وقد كانت نسبة كبيرة من المستعربين المسيحيين ، دون اليهود من رعايا بني ذى النون . وهذه العناصر غير الإسلامية تعربت ، أو بعبارة أدق - لو جاز لنا استخدام هذا التعبير الجديد (تَأْدَلَسَتْ) ، فقد طبعتهم الحضارة الإسبانية العربية بطابع قوى جدا ، وهم مع بقائهم متمسكين بدينهم الأول أوفياء له ، قد انتهى بهم الأمر ، فيما يظهر ، إلى نظام لم يكن - مع أنه جعل منهم رعايا دولة اسلامية - بأقل من غيره تحمرا ، وهو في جملة جد مقبول . ولم تكن الحروب المتصلة بين ملوك الطوائف من عرب وبربر وصقالبة ، في الثلاثة الأرباع الأولى من القرن الحادى عشر - هي التى كانت تستأثر بالمرح السياسى فى إسبانيا ، ففي هذه الحقبة ، نشهد نشاطا سياسيا ، لا يقل عن ذلك أهمية ، فى الجانب الآخر من الحدود الإسلامية ، كما نشهد تنظيما جديدا للإمارات المسيحية التى أخذت تظهر شيئا فشيئا منذ سقوط دولة بنى عامر ، فالوحدة الموقوتة التى حققها سانشو الكبير ، قد انقطعت على إثر موته ، بتقسيم ممتلكاته بين أبنائه الأربعة وهم : جارسيا Garcia وفرناندو Fernando ، وراميرو Ramiro وجونثالو Gonzalo . ثم ضم الثانى وهو فرديند الأول إلى قشتالة التى

(١) انظر خاصة :

É. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane.

الجزء الأول ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤ ، ص ٢٧٢ وحاشية ٢ .

كانت من نصيبه في سنة ١٠٣٧ ، عند وفاة برمودو الثالث Bermudo III
 مملكة ليون ، كما شرع منذ سنة ١٠٥٠ ، عقب حملات ناجحة ضد
 أمراء المسلمين في سرقسطة ، وطليطلة ، وبَطْلْيُوس ، في الاستيلاء
 على عدة حصون ، كانت في أيديهم حتى ذلك الحين ، وأرغمهم على
 دفع الجزية له .

وفي ذلك الوقت أيضاً سقطت قَلْبَرِيَّة ، وهُزم جيش ملك بلنسية
 في بَطْرَنَة ، وسقطت قلعة بربرشتر بفضل مساهمة الترمند أتباع جيوم
 دي مونري . فلما مات فردند الأول في ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ هـ ،
 ترك ملكه يتقاسمه أبنائه وبناته . وكان لا بد أن يؤدي هذا التقسيم
 الثاني إلى حرب أهلية جديدة ، فقد أراد سانشو ، أول أبناء فردند
 وكان من نصيبه مملكة ليون ، أن يوحد إسبانيا المسيحية تحت لوائه ،
 وفي سبيل هذه الغاية حرص على أن يستولي على كل الأراضي التي
 كانت تحت حكم أبيه ، فبدأ أولاً بمهاجمة أخيه ألفونس السادس ،
 وهزمه في موقعتين الأولى موقعة اللانتادا في ١٩ يولية
 سنة ١٠٦٨ ، والثانية في موقعة جولبيخير التي حدثت في أوائل
 عام ١٠٧٢ م ، وفيها أسر ألفونس ، وسجن في برغش . غير
 أنه ما لبث أن نفى إلى طليطلة بفضل مساعي أخته الأميرة أراكا ،
 ونزل في بلاط المأمون الذي كان وقتئذ يدفع الجزية إلى مملكة ليون .
 وعلى هذا النحو تسوق كتب التاريخ المسيحية — فيما يظهر —
 استقرار ألفونس السادس في المدينة ، التي كتب له أن يحتلها بعد ذلك

بثلاثة عشر عاماً ، بل يبدو أن أخوا سانشو آثر أن ينزل في كنف المأمون لاجئاً عنده .

ولا مانع هنا من إيراد ما ذكره الأستاذ منندث بيدال في كتابه القيم الخاص بإسبانيا في عصر السيد (١٠٤٠ — ١٠٩٩)^(١) ، والحياة المضطربة التي عاشها هذا البطل القشتالي الشهير . فقد ذكر هذا الباحث الإسباني ، أن المأمون استقبل الملك المهزوم بالسكريم ، وأعطاه بيتاً في القصر الملكي الذي كان يشرف على حصون المدينة في مواجهة (القنطرة) . فعاش الملك المنفي بعيداً عن الحى المأهول بالسكان المسلمين ، واستطاع بذلك أن ينعم في بساتين الملك الشاسعة ، التي كانت تمتد إلى الناحية الأخرى من القنطرة ، في داخل المنحنى الكبير الذي يرسمه نهر تاجه في هذه الناحية^(٢) . وقد ورد في المدونة المعروفة باسم Crónica de Silos أن نفي ألفونس قد هيأته العناية الإلهية فلم تعد طبوغرافية طليطلة خافية عليه ، ثم استطاع أن يفكر ويقدر في طريقة الاستيلاء على المدينة ، وورد في بعض الأخبار أن ألفونس نراى إلى سمعه وهو مضطجع تحت شجرة في بساتين المأمون ، حديث بين بعض رجال البلاط المسلمين عن الطريقة التي يمكن بها التغلب على المدينة بالمجاعة ، ومهما يكن من الأمر ، فإن مقام الأمير المنفى في طليطلة لم يكن قاسياً أو مضايقاً له ، فنراه في تلك المدة ، إما مقاتلاً على ظهر

(١) Espana del Cid ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٦ .

جواده أعداء المأمون من المسلمين مع رجاله ، وإما متوغلا في غابات الصنوبر الشاسعة في تلك المنطقة لصيد الدب والخنزير البري^(١) هذا وقد ظل ألفونس السادس تسعة أشهر في قفصه الذهبي بطليلة . وفي ٧ من أكتوبر سنة ١٠٧٢ م قُتل أخوه سانشو الثاني ، وهو يحاصر مدينة سمورة ، وما لبث الرسل أن أنوا بخبر نهايته المحزنة إلى عاصمة المأمون . وقد رضى المأمون في الحال بأن يترك ضيفه ألفونس يخرج كما يشاء ، وصار منذ ذلك الحين حراً طليقاً ، بعد أن تبادلوا وعوداً ودية كبيرة ، ومواثيق للمحالفة المتبادلة بينهما ، ثم سحب المأمون ضيفه إلى آخر حدود دولته^(٢) . وما لبث ألفونس السادس ، الذي صار منذ ذلك الوقت ملكاً على قشتالة وليون ، أن أخذ ينهج — بعد أن أضاف إلى ممتلكاته جليقية وكانت في يد أخيه جارسيا — سياسة توسع إقليمي رفعت من شأنه . كما أخذ يشهر السلاح في وجه المسلمين ، باعتباره بطلا لحركة الاسترداد المسيحي .

• • •

انتهى حكم المأمون في السنة الثالثة من رحيل ألفونس السادس عنه في طلييلة ، فقد مات المأمون في قرطبة ، في ظروف محزنة في ٢٨ من يونيو سنة ١٠٧٥ م (١١ ذو القعدة سنة ٤٦٧ هـ) ، وكان حريصاً

(١) La Espana del Cid ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢١١ .

منذ زمن طويل على الاستيلاء على العاصمة القديمة للخلافة الأموية ،
 إذ كانت في يد أمير خامل من بني جهور لا يقوى على الدفاع عنها .
 غير أنه لم يقدر على تنفيذ مشروعه ، بسبب ظروف عدة ، فقد سبقه
 إلى ذلك المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية في سنة ١٠٦٨ م ، إذ استولى
 على قرطبة ، وصار ملوكاً عليها . ولم يكف المأمون عن السعي للتغلب
 على أمير إشبيلية ، حتى استطاع أخيراً في نهاية عام ١٠٧٤ م ؛ بفضل
 معاونة مغامر قرطبي يدعى ابن عكاشة تحقيق أحلامه ، غير أنه
 ما لبث أن مات مسموماً بعد ذلك بستة أشهر في المدينة التي طالما
 اشتهاها — سواء أكان ذلك بتدبير ابن عكاشة هذا ، أم بتدبير المعتمد
 نفسه . ولم تبلغ طليطلة من الازدهار في نظر العالم الإسلامي ، قدر
 ما بلغت إبان حكم المأمون ، إذ لم تمنعه حروبه المتصلة مع جيرانه من
 ملوك الطوائف من أن يكفل لعاصمته ازدهاراً لم يتهأ لها من قبل ،
 إذ جمع البلاط الطليطلي نخبة الأرسقراطية الأندلسية ، وصار إغذار^(١)
 ذي النون مضرب الأمثال في إسبانيا الإسلامية عصوراً طويلة^(٢) .
 وكان القصر الملكي بطليطلة تحفة من العجائب .

وذكر المقرئ ، نقلاً عن ابن بدرون ، في شرح قصيدة ابن عبدون ،
 أن المأمون يحيي بن ذي النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تألق في

(١) الإغذار : الختان .

(٢) انظر في وصف هذا الإغذار كتاب « الذخيرة » القسم الرابع المجلد الأول

بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسبق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون . وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليتها ، محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض . فكانت القبة في غلالة من الماء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ^(١) .

وقد أورد ابن بسام أيضا في الجزء الرابع من الذخيرة تفاصيل عديدة عن الترف الذي كان في قصر المأمون ، وساق وصفا طويلا لابن حيان - نقلا عن الأديب ابن جابر الذي شهد الإعذار بنفسه ^(٢) فقال : « احتفل المأمون ابن ذى النون ، في مدعاة إعذار حفيده يحيى ، فحشد أمراء البلاد ، وجملة الوزراء والقواد ، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسالا ، وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار ، وإرغام موانده ، وتكميل وظائفه ، وإذكاء مطابخه ، رسوما انتهوا فيها إلى حده ، وشقق عليها جيوب أكياسه ، وأمر بالاستكثار من الطهارة ، والإتاق ^(٣) للقدور ، والإتراع للجفان ، والصلة لأيام الطعام ، والمشاكله بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب في صنعة ألوانها مع شيا بآباريقها بالطيوب الزكية ، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد ، وحلو وحامض ، والمماثلة بين رائق أشخاصها ، وبين ما تودع فيها من نفائس صحافها ، والاستكثار لها من أنواع الحلواء المجبرة للبعد

(١) المقرئ - نفق الطيب ، ج ٢ ص ٦٧٣ .

(٢) الأديب ابن جابر - انظر « الذخيرة » ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٦ .

(٣) الامتلاء .

من داء الإنحزام ، وتجاوز عَسَلِيَّهَا إلى السكر . فجاءوا في ذلك كله بأمر كبار ، أيدت لمطابخه أمم من الأنعام ، جمع فيه بين المشاء والطيار والعوام ، وانتسفت لمخازنه أهراء من الطعام ، وأنفقت على مجامره ومعاطره جمل من الأموال الجسام ، فاغتنى ختاماً لمداعى أهل الاسلام للعظام ، ^(١) .

ثم وصف مجلساً قد فرش بالديباج التستري المرقوم بالذهب ، وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه ، تكاد تلتمع الأبصار ، بصناعة ألوانها ، وإشراق عقيانها ... ثم عدل بالناس إلى مكان الأطعمة ... وقد مدت فيه صنوف الطعام ، ووصفاء الموائد الخافون من حولهم ، يطردون الأذبة عن مجلسهم ، بطوال المذاب البديعة الصنعة ، المقمعة الأطراف بفاخر الحلية ، ... ، ثم قال : « وأغرب ما قيد لحظى من بهى زخرفته ، الذى كاد يحبس عيني عن الترقى عنه إلى ما فوقه ، إزاره الرائع الدائر بأسه ، حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ، ونساعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار ... وذهب المأمون إلى تميم تكريم زواره من رجال الأمراء ، الذين استحضروهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته ، وتنعيم أسماعهم بلذات أغانيه ، وقد علم أن فيهم من يرخص فى النبذ ، ولا يسوغ له نعيم دونه ، فاحتمل حرج ذلك مبالغة فى تأنيسهم ، فاحتفل لهم فى مجلس قد نضد ،

(١) ابن بام « الدخيرة » المجلد الرابع القسم الأول ص ٩٩ .

وأحضر فيه جميع آلات الأانس. فلما استوى بالقوم مجلسهم، وأشرأبوا إلى الأخذ في شأنهم، قرب إليهم أطعمة طثوبرية جوامد وباردة، وصنوها من المصوص والأشربة والطهاج، موائد مترعة اتخذوها بسطا لنبيذهم، ثم اثثنوا للشراب ونفوسهم به صبة، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب، ونظمت نوبة المغنين زمرا، فهاجوا الإطراب واستخفوا الألباب، ونقلوا الطباغ، فجاءوا بأمر عجاب، (١).

وبالاختصار مثل قصر المأمون الملكي — الذي لم يبق منه لسوء الخطأى أثر — في نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين كذلك — غاية الرشاقة والترف. ولم يكن يضارع طليطة من المدن الإسبانية، سوى سرقسطة وبلنسية وإشبيلية، أما قرطبة فقد تخلفت تماما في هذا الميدان، بل إن طليطة كانت تبرز هذه المدن جميعا بجهاها، وعظمتها التي أحاطها بها أميرها، وبحياة الأبهة والترف التي عاشها في مقره على ضفاف نهر قاجة.

ومن ناحية أخرى، نجد أن طليطة على الرغم من اختلاف سكانها — فقد كان بها مسلمون ومسيحيون ويهود — عاشوا متآخين في كل شيء. وكانت طليطة، فيما يظهر، من أنشط مراكز الثقافة العربية في شبه الجزيرة. ولم ينقطع وجود الشعراء في بلاط المأمون، كما كان الأمير يشجع الدراسات الإسلامية في عاصمته، شأنه في ذلك شأن سائر ملوك الطوائف. وقام كثيرون من مشاهير فقهاء مملكته بالتعليم

(١) الذخيرة — لابن بام — مجلد ٤ القسم الأول ص ١٠٤ — ١٠٥.

في عهده ، في جامع طليطلة الكبير . وكانوا من الكثرة إلى حد أن أحدهم ، وهو أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر المتوفى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، له كتاب في تاريخ فقهاء طليطلة وقضااتها ،^(١) وحفظ لنا ابن بشكوال أسماء بعضهم ، وكان من أشهرهم في منتصف القرن الحادى عشر ، ابن الحذاء القرطبي (توفى سنة ٤٦٧ هـ)^(٢) ، وأبو الوليد أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد^(٣) ، وأبو زيد عبد الرحمن بن الحشاد^(٤) ، وأبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الشهير^(٥) ، صاحب كتاب طبقات الأمم ، وهو موجز في تاريخ العلوم ، ذاع صيته دهرأ طويلا في الشرق .

أما دولة طليطلة ، فقد سارت من ناحيتها على النظم السائدة في إسبانيا الإسلامية ، منذ عهد خلافة الأمويين في قرطبة . وكان المأمون قد قسم الإدارة فيها بين اثنين من أنشط المقربين إليه وأكثرهم ذكاء ،

(١) انظر ابن بشكوال : كتاب الصلة ت ١٤٨ ص ٧٢ - ٧٣ والفضي : بنية المتصن ت ٤٣٣ ص ١٧٧ .

(٢) فيما يخص بهذا القاضى : انظر ابن بشكوال - كتاب الصلة ت ١٣١ ص ١٦٥
(٣) توفى وهو في وظيفته سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) : نفس المصدر ت ١١٥ ص ٥٨
(٤) لاضى طليطلة من سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) إلى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) ، ثم بعد ذلك في طرطوشة ، ثم في دانية ، حيث مات في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ - ١٠٨١ م) ، ابن بشكوال ت ٧٢٥ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٥) انظر عن هذه الشخصية مقال في دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ٨٧٤ - ٨٧٥ .

وذلك بأن جعل شؤون الجيش وتعبئته وتجهيزه وإعداد الحملات المستمرة التي قام بها من اختصاص الوزير أبي عامر بن الفرج، وهو ابن أحد سادة قونكة، وكان شديد الإخلاص لبني ذي النون، كما كان يلقب بذي الوزارتين^(١)، ومعه الفقيه أبو بكر يحيى بن سعيد بن الحديدي^(٢). الذي كان له الإشراف على الإدارة المدنية، كما كان المستشار الخاص للملك. وكان أبوه قد اشتهر كعالم ورحالة في الشرق وإفريقية^(٣). وسرعان ما تمكن أبو بكر من أن ينال نفوذا، بفضل مواهبه لدى حكام طليطلة، فقبل تولى المأمون خدم أباه لإسماعيل الظافر، ولهذا طال عهده بتولى المناصب، على الرغم من العداوات الكثيرة التي سببتها له وظائفه العالية، وعهد إليه المأمون قبل موته في النصح لخليفته الصغير يحيى القادر. ومن هذا كانت، فيما ذكر المؤرخون العرب محنة ابن الحديدي في طليطلة، إذ أصبحت من غير حاكم نشيط ماهر يتولى زمامها، فكان الحديدي سببا في إثارة الاضطرابات السياسية في مملكة طليطلة، وكان يعوزها حاكم قوى

(١) انظر عن هذه الشخصية ابن بسام : كتاب « النخبة » ج ٣ ، (ودوزي في كتابه Abbadites ج ٣ ص ٥١) ، وابن الأبار : كتاب الحقة ، طبعة دوزي ص ١٩٣ - ١٩٤ والفتح ابن خاقان : كتاب المطمح ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٢٣ هـ ص ١٧ - ١٨ ، ودوزي في كتابه Recherches ج ٢ ص ٤٨ من المقدمة .

(٢) انظر ابن بشكوال : كتاب الصلاة ت ١٣٦٠ ص ٦٠٨ .

(٣) نفس المصدر ت ٤٩٣ ص ٢١٨ .

مستنير منذ ذلك الوقت، مما أدى إلى سقوطها في يد ألفونسو السادس .
 كان يحيى القادر حفيداً للمأمون ، ولا بد أن أباه إسماعيل مات
 شاباً ، إذ تعوزنا تفاصيل عن تاريخه . ولا يجوز الاعتماد على ما جاء
 في المدونة التاريخية الإسبانية Cronica Oénéral ، من أن لبنا آخر
 للمأمون يدعى هشاماً^(١) ، قد حكم فترة وجيزة جداً بين المأمون وبين القادر .
 على أنه من المؤكد أن القادر فيما يذهب إليه ابن بسام ، ولى أمر
 طليطلة فعلاً بعد وفاة جده بشهرين على الأكثر . وقد تغير الموقف
 السيامي دفعة واحدة ، فألفونس السادس مع ارتباطه إلى ذلك الحين
 ارتباطاً أدبياً بعود الصداقة التي كان قد تبادلها مع المأمون ، سرعان
 ما لاحظ أن الحفيد ليس من جنس الجد ، وأن الظروف قد واثته
 لتنفيذ رغباته يوماً ما .

وأما ملوك الطوائف ، وبخاصة المعتمد بن عباد ، ملك إشبيلية ،
 وكان حريصاً على الانتقام لطرده جيوشه من قرطبة ، وفقدان أحد
 أبنائه في تلك المدينة ، فقد كانوا على استعداد للانقضاض على أملاك
 ملك طليطلة الجديد ، ولعلمهم شعروا أن عجزه لن تجدى معه نصائح
 الوزير ابن الحديدى ، ولا ندرى إن كان القادر قد بادر إلى التخلص
 من مستشاره بسبب دسائس منافسيه على الرغم من أن جده المأمون
 قد أوصاه بأن يتبع هذه النصائح ، وألا يخرج عنها قيد أنملة .

(١) انظر : A. Prieto Vives : Los reyes de Taifas : ص ٥٤

حاشية ٢ وكذلك : R. Ménéndez Pidal : Esp. del Cid : ج ١ ص ٢٩٠

على أنه جعل همه أولاً في مضايقته ، ثم لإبعاده بعد ذلك ،
والتخلص منه نهائياً . ذكر ابن بسام أنه « لما هلك المأمون بقرطبة
ونعى بطليطلة ، احتوشت إلى حفيده جملة ممن كان يتعلق بسببه ،
وطفقوا ' يغرونه بأبي بكر بن الحديدي جماع أمره ، ومظنة تأييده
ونصره ، لما كانوا يدبرون من الانقلاب عليه ، وخوفوه غوائل خنله ،
وزعموا أن سلطانه لا يتم إلا بعد الفراغ من قتله ، ، وذلك بعد أن
حاولوا عبثاً التفريق بينه وبين المأمون في حياته . أما وقد مات
المأمون ، فهل اكتفوا بالقضاء على ابن الحديدي هذه المرة ؟ الواقع
أن طرده من القصر لم يكن كل ما يبغيون وإنما كانوا يطالبون برأسه .
« وقد كان أثيره أبو سعيد بن الفرّج ينهّاه عن إخفار الذمام ،
ويخوفه سوء عواقب الأيام ، فركب هواه ، وخالف ناصحه وعصاه ،
وجرد قطعة من جنده ، وأمرها باستقبال تابوت جده ، في طريقهم
من قرطبة ، وأنهى إليهم سراً قتل ابن الحديدي المستقل بحمله ،
الناظم لأشتات قلّه . وقال لهم : إذا لقيتموه ، فكونوا حوله ،
وعظموا قوله ، فإذا أمكنتم غرته ، وبدت لكم ثغراته ، فاقتلوه كيف
أمكن ، وعلى ما ظهر وبطن . ونعى الخبر إلى ابن الحديدي ، فكفر
بطاغوتهم ، ونفض يديه من تابوتهم ، ونكب إلى بعض ضياعه . في
لمة من شيعته وأتباعه . فاضطربت الصدور ، وبطل ذلك التدبير . ثم
وافتى البلد ليلة ، وقد استوحش من أنسه ، وأوجس خيفة في نفسه ،
وأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، ونادماً يتتبع ويتعقب ، بعض يديه ،

ويحسب كل صبيحة عليه ، وطفق أصحاب ابن ذى النون بزعمه يقولون :
 قد حذرک ، وتيقن خبرک ، ولا يصلح لك أبداً ، ولا يرد عن
 مكروهك بدأ . ومشت بينهما الرسل ، وأعملت في اجتماعهما الحيل
 فركب إليه ذات يوم ، وقد أخذ حذره ، وحشد عرفه ونكره ،
 واستبطن من كان تبعه يومئذ من الدهماء ، وتعلق بركابه لمشهد أمره
 من الغوغاء . فلأوا أفية القصر ، أسرع من الماء إلى الصب ، وأهول
 من النار في الخطب .

... فحين ارتفعت الأصوات ، وغصت بهم العرصات ، انصاع
 ابن ذى النون ، فأمر ابن الحديدى بالخروج ، فخرج والدولة متعلقة
 بأذياله ، وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله ... وكان عندما أذكى عيونه ،
 وحشر شياطينه ، قد أوقع نهمته على شيخين من شيوخ الخدمة ،
 يدعيان مؤملاً وابن صرّوم ، فأغرى العامة باستئصالهما ، وتجبب
 إليهم بتهمة أموالهما ، فكانا عنوان الفتنة ، وبأكورة المحنة ،^(١)
 وتلا ذلك قيام فتنة أسرع القادر على أثرها إلى إطلاق عدد من
 أشرف طلبطة ، ممن كان المأمون قد قبض عليهم ، وجبسهم في أحد
 الحصون بتهمة مقاومة ابن الحديدى .

يقول ابن بسام إن القادر أدخلهم البلد سرا من بعض مداخله
 الخفية . وقد سترهم باللثم ، وأوهم أنهم بعض الحرم ، حتى وصلوا إليه ،

(١) ابن بسام - الفخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم ، الرابع من المجلد الأول

ومثلوا بين يديه ، وذلك اليوم يوم الجمعة لعشر خلت محرم سنة ثمان وستين [وأربع مائة . هـ] . وكان الذي مالا ابن ذى النون على ذلك ، وسمل له - زعموا - تلك المناهج الخبيثة والمسالك ، الفقيه ابن السقاط^(١) متولى القضاء ، كان يومئذ بقونكة . وكان أبو بكر بن الحديدى يآلفه ، ويسكن إليه قديما ، فاستدرجه بالأمان ، واستفزه إلى مصرعه يومئذ بمزورات الأيمان ، حتى جرعه رداه ، وأسلمه إلى عداه . ودخل ابن الحديدى يومئذ القصر ، والمقدار يزججه ، والخائن الغدار ابن السقاط يستدرجه . فلما أفضى إلى مجلس ابن ذى النون رأى وجوها قد أمنها بما تخوفها ، وأنكرها من طول ما عرفها ، وأيقن بالشر لا خلاص ولات حين مناص ... فشغبوا عليه ، وشغلوه ، وأحاطوا به ، حتى قتلوه ،^(٢) ولما أحست العاية بقتله ، وهمت بسلاحها من أجله ، ناز أولئك المخرجون فى وجوههم ، أطلال فى أسمال . فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق ، وذهب ممن كان هنالك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر وعدو يفر ،^(٣) . وقد صارت الفتنة بعد مصرع ابن الحديدى على أشدها ، وانقسمت المدينة إلى فريقين ، كل فريق يتربص بالآخر ، ويريد أن يشعلها حربا أهلية ، وترك القادر الحبل على الغارب ، وزادت الفتن عندما بلغ العاصمة خبر خطير : « إذ انتبذ

(١) محمد بن خاف بن مسعود . انظر ابن بشكوال : العملة ١١١١ .

(٢) الذخيرة ص ١٢٠٠ .

(٣) نفس المصدر .

أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية — وهى من أقاليم بنى ذى النون منذ سنة ١٠٦٥ — من جماعته : وخلع يده من طاعته ، إلا هُدنة على دَخْن يتطارده بصيدها ، فلما أَحَسَّ القادر بالخطر يتهده فى مدينته وخشى ضياع جزء من دولته ، رأى السلامة فى الانتصار بالفونس السادس ، الذى انتظر هذه الساعة ، وفَعَرَ الطاغية أدفونش ابن فَرْدَلْدَفَه على ثغوره المتغورة ، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشَّيْب فى الشباب ، وابن ذى النون يُلقمه أفلاذ كبده ، ويرَّجُهُ بِسَبْدِهِ وَلَبْدِهِ ، وأدفونش - لعنه الله - لا يقنع منه بصيد العنقا ، ولا يبيض الأنوق ^(١) ، بل يكلفه إحضار الأبلق ^(٢) العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطلبه برد أمس . فلما أكل الإنفاق شبح ^(٣) ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما إلى معاقلة المنبعة ، وذرى أملاكه الرفيعة ، عُدَد الأنام ، ودُرُوب الإسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، وما رام أخذه من يديه ، لم يدركه حتى مُزق . .

وراح القادر لينمكن من جمع هذه الجزية ، يثقل على كاهل رعاياه ، وفقد العطف الذى كان يمكن أن يبقى له . مضت على ذلك أربعة

(١) الأنوق - الرخة ويضها لا يكاد أحد يظفر به .

(٢) الأبلق الذكر والعقوق الحامل ، أى طلب منه مالا يمكن .

(٣) الشبح - مظالم الشيء .

أعوام ، وساء حال الملك ، ففوض أمور السلطة إلى من كان المأمون قد سجنهم ، فراحوا ييثون الرعب في طليطلة وتوسلوا بشر الأساليب العنيفة لابتزاز الأموال من الأهلين ، ودفع الجزية منها إلى الملك المسيحي . على أن الحقيقة مالبثت أن بدت واضحة أمام القادر ، فلم يبق ملكا إلا بالاسم فقط . حتى صار مهددا بثورة وشيكة الوقوع ، لن تكلفه عرشه فحسب ، بل ربما كلفته حياته أيضا ، وهذا لم يعد أمامه غير حل واحد هو الحرب ، وذلك ما حدث ، فذات يوم خرج من عاصمته دون أن يقول كلمة لأحد . قال ابن بسام : « حدثت أن زوجه بنت المظفر بن عامر - طريد جده كان من بلنسية - وابنته منها ، تبعته يومئذ راجلتين ، نيفا على فرسخين ، حتى أدركتا بمركوب ، وقد أخذ الجهد منهما بأوفر نصيب ، واجتمع مشيخة طليطلة بفناء القصر ، مرتبكين بين اللجاج والذعر ، عامتهم تنطاول بزعمها إليه ، وخاصتهم تتخيل المثل بين يديه ، وهم يظنون بهيئت يرى ويسمع ، ويتوهمون أنه سيفعل ويصنع ، فوجدوه قد أذعن للدنية ، وخرج من بعض المخارج الخفية ، ومشى القهقري ، فاستأسدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر . . . ، وألقوا يومئذ في تنور الطاغية أدفونش من تلك الجواهر المسكونة ، والذخائر المصونة ، ^(١) .

أما الملك الهارب (القادر) ، فإنه لجأ أولا إلى مدينة وادي ^(٢) ،

(١) الذخيرة - ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) انظر : R. Ménéndez Pidal : Esp. del Cid : ج ١ ص ٢٨١

ثم إلى قونكة ، ومنها كتب إلى الأمير المسيحي ، يطلب منه العون
والنصرة ، وقد فقد أهل طليطلة عادة تبديل ملوكهم ، فكان أول
همهم غداة رحيل القادر المفاجيء البحث عن يقلدونه أمرهم ،
وتشاوروا في ذلك وغلب رأى رآه رسول من ملك بطليوس كان
هناك يومئذ ويدعى أبا محمد يوسف بن القلاس ، فملك طليطلة
ستقدم لقمة سائفة إلى المتوكل من بنى الألفطس ، فأرسلوا إليه وفدا ،
ولم يكن أحب إليه من قبول ما عرضه الوفد ، حتى لقد جاء بنفسه
ليدخل عاصمة ولايته الجديدة في يونية من سنة ١٠٨٠ م (آخر
سنة ٤٧٢ هـ) .



وكان بنو الألفطس ، كما هو شأن بنى ذى النون ، من أصل بربرى ،
وإن ادعوا نسبهم في قبيلة يمنية ، فهم جميعا ينحدرون من قبيلة مكناسة
المغربية ، قد حكموا إمارة بطليوس منذ نصف قرن مضى ، واضطروا
ثم أيضا للمحافظة على كياناتهم إلى مقاتلة جيرانهم المسلمين ، وعمر الذى
تسمى المتوكل ، وآثره أهل طليطلة ، كان أديبا دون أن يزهد في
ملاذ الدنيا . ولما استقر في طليطلة ، لم يفكر قط في وسائل الدفاع
عن المدينة على ما ذكر ابن بسام ، ولا في الاستعداد بأن يحاول
التفاهم مع غيره من ملوك الطوائف لمواجهة الطمع والحاس المتقد
الذى يعمل في نفس ألفونس السادس والقادر حليفه المخلوع .

وراح يقضى كل وقته في إعداد الولايم ، حتى إذا اتصل به أن سيد طليطلة القديم ، وحليفه القوي قد توجهوا إلى المدينة للاستيلاء عليها رأى أن من حسن التدبير الرحيل عن المدينة وتركها لمصيرها . وفي إبريل سنة ١٠٨١ ، اتخذ طريقه إلى بطليوس ، بعد أن مكث في عاصمته بني ذى النون عشرة أشهر .

ولم يكن القادر ساكنا في هذه الأثناء ، فقد ظل هذا العاجز يطمع في أن يسترد عرشه بالقوة ، ولم يستسلم لما أصابه من ضياع ملكه ، ويحكي المؤرخون العرب أنه طالب ألفونس السادس بالوفاء بما كان جده المأمون قد بذله له من خدمات ، ليهب إلى نجدة . ولم يكن الملك المسيحي بالذي لا يستجيب للتذكير بكرم الضيافة ، ثم إن قبوله لندائه لا ضرر فيه على مصالحه الذاتية ، بل إن القادر أزجى إليه الوعود الخلافة ، فقد أخذ على عاتقه أن يعطيه قلعتين من القلاع الحصينة ذات الأهمية الاستراتيجية ^(١) ، إذا هو اعتلى العرش ، واتفقا على ذلك .

ويؤرخ الأستاذ مئندث بيدال في كتابه España del Cid هذا الاتفاق في سنة ١٠٧٩ م ، وقد تلاه في الحال هجوم على المتوكل ، أفضى إلى الاستيلاء على قورية . ولعل الحرب لغزو طليطلة بدأت وقتئذ ،

(١) انظر : ابن كسر دابوس : كتاب الاكتفاء ، ودوزي في كتابه Abbadites

بحيث لم يستطع القادر أن يدخل عاصمته إلا بقوة السلاح ^(١).

وقد رأينا أن ابن بسام يورد تواريخ متباينة ، وبصور الأحداث بطريقة أخرى ، فيذهب إلى أن ألفونس السادس والقادر لا يبلغان طليطلة إلا بعد رحيل المتوكل عنها ، وأن الأهلين لا يضعون عقبة ما في سبيلهما ، فآلفونس السادس يعيد القادر إلى عرشه ، فيسارع عنا كعادته سابقا إلى إرهاب رعاياه ليجمع الجزية التي وعد بها حليفه ، وينطلق ألفونس بكل حرية متجولا في أنحاء ملكه طليطلة . ويترك بدون شك جزءا من جيشه أمام المدينة ، وكثيرا ما كان يعود إلى معسكره ، وتنقضى سنة بأكملها على هذه الحال . وتظهر بوادر الثورة من جديد ، ولكنها لا تندلع إلا في تاريخ محدد ذكره المؤرخ العربي ، وعينه يوم عيد الأضحى (من سنة ٤٧٤ هـ - ٢ مايو سنة ١٠٨٢ م) .

ففي هذا اليوم ، يذهب أهل طليطلة يشكون إلى ألفونس السادس من المعاملة السيئة التي يلاقونها من القادر . ولم يكتف الملك المسيحي برفض شكواهم ، بل طردهم جميعا ، وما لبث أن مات ابن مغيث زعيم المعارضة ، وأحد أشرف طليطلة ، الذي كان ينتمي إلى أسرة من القضاة ، فيحار الثائرون السيئون الحظ إلى أي حزب ينتمون من بعده ، فيأسسون من بلاد قشتالة ، فيما يقول ابن بسام ، ويتحصن بعضهم في مجريط ، حيث أعلنوا الاستقلال ، فيأمر القادر بمصادرة أملاكهم في طليطلة .

أما أولئك الذين وقعوا في يده بعد ذلك ، فقد قتلوا بلا رحمة ، وصلبوا ، بينما لجأ آخرون إلى الهجرة نحو الممالك الإسلامية في الجنوب ، أو في الغرب ، وإن كانت فرق ألفونس قد تعقبهم ، إذ أن الملك المسيحي قد احتل بناء على طلب القادر جميع المخارج والمنافذ التي يجب المرور بها لمغادرة قشتالة . وبما أنه كان يتجول بمطلق حريته في جميع أراضي مملكة طليطلة ، فقد أدى به ذلك في النهاية إلى الإحداق بها من جميع نواحيها . ولم يلبث الحصار أن اشتد وضاق حول العاصمة .

ولم يطل الموقف أكثر من هذا ، ومهما كان يتصف به القادر من الغباء والافتقار إلى التفكير السياسي ، فلا بد أنه أدرك أن لدى حاميه ، أيا كانت النتائج ، من الشروط والرهائن ما لا يحمله يرحب بتركها عن طيب خاطر . ولا شك في أنه في تلك الحقبة أو بعد ذلك بشهور قليلة قد استقر رأي حفيد المأمون على أن يتخلى عن طليطلة نهائياً لحليفه ، إذا شاء هذا أن يعينه على استرداد ولاياته في شرق الأندلس ، وتفاهم مع ألفونس السادس على هذا ، ثم أوى إلى قصره ، انتظارا لما تأتى به الأيام من أحداث .

ولكن لم يكن يكفي أن يتخلى القادر عن مدينته ، بل كان لابد أن يصير ألفونس السادس سيدها والقابض على زمامها ، وعلى هذا بدأ الحصار دون توان ، وربما كان ذلك في نهاية صيف سنة ١٠٨٤ م . قبل شتاء هذه السنة نفسها على أى حال ، فقد أقام الملك مقر قيادته

أمام طليطلة في القصر الرائع الذي كان المأمون قد بناه ، ولعله كان على التل الذي تقع عليه اليوم أطلال حصن سان سرفاندو Castillo de San Servando واسمه المنية المنصورة ، واستعد لأن يقضى هناك كل الوقت الذي يستلزمه إرغام المدينة على التسليم .

بدأت سنة ١٠٨٥ م ، وحالت رداة الجودون وصول المؤن إلى ألفونس السادس من الشمال بانتظام . وكان ملوك الطوائف — فيما يقال — هم الذين يرسلون إليه المؤن ؛ ولم تلبث طليطلة أن اشتدت بها وطأة القحط والمجاعة .

يقول ابن بسام وإن البر كان على زعمهم يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة ، لا يؤثر فيه طول القدم ، ولا يخاف عليه آفة العدم ، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر — على تعذر بدره ، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره — إلا وقد بدا البلى عليه ، وأسرعت الآفة إليه ،^(١) ، وعبثاً حاول أهل طليطلة إرسال رسلهم عبر الخطوط المسيحية في طلب الغوث من ملوك المسلمين ، على أن هؤلاء وقد استولى عليهم الذعر ، ظنوا أن طليطلة قد سقطت ، وكانوا في جملتهم يؤدون الجزية لألفونس السادس ، وقد غضب معيهم ، ولكنهم عاجزون عن أن يروا السبيل إلى التخلص من مطالبه .

وفي ٣ من مايو سنة ١٠٨٥ م ، اجتاز وفد من أشرافهم قنطرة

(١) ابن بسام : الذخيرة ص ١٢٧ - ١٢٨ ، والمقرئ : فتح الطيب ج ٢

نهر تاجه ، يسألون الملك المنتصر شروطه ، ويطلبون الضمانات السكافية منه لتأمين أهل طليطلة المسلمين . ولا يذكر ابن بسام شيئاً عن هذه الشروط التي نجد تعدادها فقط في كتاب الاكتفاء لابن كردبوس^(١) واستقبل الفونس السادس هذا الوفد وآلى على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمي طليطلة ، وحياة نسائهم وأطفالهم . وألا يلحق ضرراً بأهملهم ، كما تعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، والذين يريدون البقاء بطليطلة لا يطلب منهم أكثر من دفع ضريبة الرأس لهم ولا سرتهم . وهناك شرط آخر ينص على أن كل مهاجر يمكنه أن يعود في الحال ويستعيد أملاكه مهما عظمت قيمتها دون معارضة ، كما طلب أهل طليطلة أيضاً ضمانات تنصل بحرية ممارستهم لشعائهم الدينية ، كما طلبوا وعداً باحترام جامعيهم الكبير ، وكان لهم ذلك أيضاً

بعد هذا بثلاثة أيام ، في ٦ من مايو سنة ١٠٨٥ الموافق العاشر من المحرم سنة ٤٧٨ هـ^(٢) ، دخل ألفونس السادس طليطلة سيداً عليها من باب شافره^(٣) .

(١) انظر دوزي : Abbad ج ٢ ص ١٨ .

(٢) نجد جميع المؤرخين المحدثين يذكرون تاريخ ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . أما تاريخ ١٠ من المحرم ٤٧٨ هـ = ٦ من مايو سنة ١٠٨٥ م ، فهو بلا شك التاريخ الصحيح ، إذ ورد في كتاب مؤرخ بلنسي معاصر ، وهو ابن هلقمة .

انظر : المقرئ ج ٢ ص ٦٧٣ ، وابن الأبار : تكملة الصلة ج ١ نصر Bel & Bencheneb ، الجزائر ، ص ٢٩ .

انظر أيضاً :

M. Bencheneb : Notes Chronologiques Principalement sur la Conquête de l'Espagne par les Chrétiens.

المنشور في : Mélanges R. Basset طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ج ١ ص ٥٧

(٣) سبق ذكر هذا الباب .

يجب أن نذكر ما أصاب القادر بعد ذلك ، وكيف أن حليفه قد تحلل من وعوده ، التي تعهد فيها أن يعيده إلى عرش بلنسية . هذا وقد ندد جميع المؤرخين العرب بآخر ملك مسلم في طليطلة ، لتركه عاصمته في جبن ، وسخر منه ابن بسام في قوله : « حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال . ويده اضطرب ، يرصد فيه أي وقت يرحل ، وعلى أي شيء يعول ، وأي سبيل يتمثل ، وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله »^(١)

وقد ذكر ابن بسام ما حدث بطليطلة في الأيام التي تلت دخول المسيحيين ، أما ألفونس السادس ، فقد عهد بحكم المدينة إلى أحد أتباعه وهو الكونت المستعرب شِسْنَنْد Sisnando Davidiz^(٢) .

والظاهر أنه كان على درجة كبيرة من التسامح ، وأنه عمل كل ما في وسعه لمنع سيده من نقض موثيقه وعهوده التي كان قد أبرمها

(١) ابن بسام : الذخيرة ص ١٣٠ والمقرئ : فتح الطب ج ٢ ص ٤٧٨ طبعة

يدن وكذلك : R. Ménendez Pidal : Esp. del Cid : ج ١ ص ٣٣٤ .

(٢) انظر فيها مختص بالكونت Sisnando Davidiz :

R. Menedez Pidal : Esp. del Cid.

في الفهرس وكذلك :

الفصل الذي عقده منتدى بيدال مع غرسيه غومس بعنوان :

El Conde Mozarabe Sisnando Davidiz y la politica de Alfonso VI con los Taifas.

المنشور في مجلة Al-Andalus مجلد ١٢ سنة ١٩٤٧ ، ص ٢٧ - ٤١ . (يوجد في هذا المقال ترجمة كاملة لفقرة الذخيرة ص ١٣٠ - ١٣٢) الخالص بالكونت المذكور ، وبالدور الذي قام به في طليطلة بعد سقوط المدينة .

قبل ذلك بأيام قليلة مع مسلمي طليطلة . غير أن ما حدث بعد ذلك كان على عكس ذلك تماما . ولكي نقف على ما يتصل بتحويل جامع طليطلة إلى كنيسة ، لابد من الرجوع إلى مصادر غير عربية . فلا يخفى ما كان لجماعة من رهبان كلوني Cluny ، ممن وفدوا من فرنسا إلى إسبانيا من نفوذ في بلاط ألفونس السادس ، ومن تأثير على زوجته بصفة خاصة .

والذي نقض عهد الملك بمجرد أن ترك المدينة ، برنار رئيس أساقفة دير سهاجون ، وصار فيما بعد أسقف طليطلة . ويقال إن ألفونس السادس استشاط غضبا عند سماعه هذا الخبر ، كما يقال إن مسلمي طليطلة سمعوا لدى الملك ليعنوه من إزال عقاب شديد بالأسقف^(١) والظاهر أن ابن بسام قد تخرج من أن يعنى ألفونس السادس من النبعة . وقد ذهب إلى أن تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة حدث في يولية سنة ١٠٨٥ م (ربيع الأول سنة ٤٧٨ هـ) ، أي في الشهر التالي لسقوط العاصمة . ويزيد على ذلك قوله : « فأمر أَدْفُونُش بتغيير المسجد الجامع... وحدثني من شهد طواغيته بتبذره في يوم أعْمَى البصائر... وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامى^(٢) ، آخر من صدر عنه واعتمده في ذلك

(١) انظر خاصة :

J. Simonet : Historia de los mozarabes de España.

طبعة مدريد سنة ١٨٩٧ - ١٩٠٣ م ٦٧٨ .

(٢) محمد بن عيسى بن فرج أبو عبد الله المغامى - انظر ترجمته في كتاب الصلة

تحتن بشكوال ت ١١٠٨ م ٥٠٠ .

اليوم لينزود منه ، وقد أطاف به مرّة عفاريتة ، وسرعان طواغيته
وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فسكها قالوا له عَجَل ، أشار هو إلى تلميذه
بأن أكمل ، ثم قام ماطاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه
مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه
يد ، ولا عرض له بمكره أحد ،^(١) .

وقد حدثت أن شيعة أدفونش - لعنه الله وبددها - أشاروا عليه
يوم منذ بلبس التاج ، وزينوا له زى من سلف بالجيزة قبل فتح المسلمين
إياها من أعلاج ، فقال لا ، حتى أطأ ذروة الملك ، وأخذ قرطبتهم
واسطة السلك ، وكان أعد لمسجدها الجامع ناقوسا تأنق في إبداعه ،
وتجاوز الحد في استنباطه واختراعه ،^(٢) . وهنا أيضا نجد الحقيقة
غير ذلك : إذ لا يلبث ألفونس السادس أن يتسمى في العريضة
بالإمبراطور ذى الملتين ، يعنى على أهل الدينين الإسلام والمسيحية ،
ويقابل في اللاتينية Imperatur totius hispaniae (٣) .

وعلى الرغم من الدهول الذى أصاب المغرب الإسلامى لسقوط
طلبطة وعلى الرغم من اقتراب جيوش يوسف بن تاشفين ، والقصائد

(١) المقرئ : نفع الطبيب ج ٢ ص ٧٤٨ .

(٢) ابن بشار : الذخيرة ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣) انظر دوزى : Abbad ، ج ٢ ص ٢٠ ؛ ومنتدث بيدال Esp. del Cid

التي تفيض أسى ، كنتك التي قالها ابن العسال ، وقد ذكرها المقرئ^(١)
فإن عاصمة المأمون القديمة ، وقد تنصرت ، لم تخل من سكانها المسلمين ،
إذ بقي بها كثيرون ، وكثير منهم أسماؤهم معروفة^(٢) . وفي هذه المدينة
التي كان فيها إبان الحكم الإسلامي أكبر نسبة من السكان المسيحيين .
صارت تضم منذ سقوطها إلى قرون عدة أكبر جالية من الموريسك
في إسبانيا التي استردها المسيحيون^(٣) .

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧٢ .

(٢) كابن مطاهر الذي سبق ذكره ، وانظر ابن بشكوال : كتاب الصلة ت ١١٥

ص ٥٠٤

(٣) انظر « مذكرات » الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة ،
المنشورة في مجلة Al-Andalus ج ٣ و ٤ و ٦ ، مدريد ، سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦
و ١٩٤١ . وفي هذه المذكرات وصف موجز لنزول ألفونس السادس لطليطة .
(ج ٣ ص ٩٠ - ٩١ و ص ١٢٤ - ١٢٦) . ولسكنها تشهد بصحة ما ذكرناه عن
سياسة ألفونس السادس بإزاء القادر ، كما تصور أيضاً ذلك الدور المشؤم ، الذي
قامت به بعض الأسرات الكبيرة بطليطة في عهد القادر ، وبخاصة بنو اللوارسكي
وبنو منيت . نصرت هذه المذكرات المسماة بكتاب التبيان كاملة في سلسلة ذخائر
العرب طبعة دار المعارف ، وورد خبر استيلاء ألفونس على طليطة في ص ٧٦ و ٧٨
من هذه الطبعة . (المراجع)

وانظر أيضاً :

R. Menendez Pidal : Leyendo las « Memorias » del
rey ziri "Abd Allah".

المنشور في مجلة Al-Andalus مجلد ٩ سنة ١٩٤٤ ص ١ - ٨ .

الفصل الخامس

« زائدة المسلمة » زوجة ألفونس السادس

وولدهما الأمير دون سانشو

ظهر هذا المقال في مجلة Hespérís بالجزء الثامن عشر من سنة ١٩٣٤، صفحات ١ - ٨، (ولاه التحقيق الوارد في النهاية موضع سلامنة مقتضية) انظر نفس المربع، جزء ١٨ سنة ١٩٣٤ صفحات ٢٠٠ - ٢٠١، تحت عنوانه « زائدة المسلمة » كنة المقعد

استوفى الأستاذ منندث بيدال بحث التاريخ الطويل لحكم الفونس السادس ملك قشتالة وليون في كتابه القيم الموسوم : « إسبانيا على عهد السيد » ، فقد فصّل القول في تاريخ هذا الملك الذي فتح طليطلة ثم باء بالهزيمة في موقعة الزلاقة والذي نجد عنه روايات مفصلة في المصنفات الإسبانية الحديثة ؛ وبعد عامين من ظهور هذا الكتاب في سنة ١٩٣١ وقفت على فصل من كتاب الذخيرة لابن بسام عن دولة بني ذى النون في طليطلة وعن استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عاصمة القوط القديمة . وقد أتاح لى ذلك عرض حوادث هذا الاسترداد فى ضوء جديد ، وأفضى بمنندث بيدال إلى الاستفادة منه فى تحديد ما كان قد غمض عليه وأفرد لذلك بحثاً عنوانه

(١) « Adefonsus, imperator toletanus, magnificus triumphator »

وفى سنة ١٩٣٤ ظهرت حقيقة جديدة تضمنها نص جديد لمؤرخ مسلم زودنى بالوسيلة التى أحقق بها شخصية « زائدة المسلة » التى عرضها مؤرخو إسبانيا النصرانية خلال ستار كثيف من الشكوك ، ونعنى بها تلك المرأة المسلمة الأصل التى قيل إنها كانت عشيقة ألفونس السادس وإنه أنجب منها ولده الوحيد الأمير دون سانشو Sancho ، وقد قتل

(١) فى مجلة الجمعية التاريخية Boletín de la Academia de la Historia مدريد ١٩٣٢ صفحات ٥١٣ - ٥٣٨ . وقد أورد منندث بيدال هذا النقل فى كتابه « التاريخ والملحة » « Historia y epopeya » مدريد ١٩٣٤ صفحات ٢٣٥ - ٢٦٤ .

هذا الأمير وهو في ميعة صباه في ٣٠ مايو سنة ١١٠٨ تحت ضربات المرابطين وذلك في واقعة أقليمش إحدى الوقائع التي أنزل فيها الإسلام الهزيمة بالنصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية ^(١).

* * *

لقد أخذت حدث بيدال باستنتاجات يغلب عليها طابع الصدفة ، تواترت منذ أمد بعيد بين مؤرخي إسبانيا في العصور الوسطى ^(٢) . فقد انتهى من حدث بيدال إلى ما يلي : لم يلبث أن ساء موقف الملوك

(١) فيما يخص بحملة أقليمش والنسبة التي لحقت بالجيش القشتالي ، انظر كوديرا : « تدهور وزوال ملك المرابطين بأسبانيا » F. Codera : Decadencia y desaparición de los Almorávides en Espana سنة ١٨٩٩ صفحات ٦ - ١٠ ، ٢٣٩ - ٢٤٢ ؛ واهون من حدث بيدال : إسبانيا في عهد السيد القنيطور (طبعة أولى) R. Menéndez-Pidal : La Espana del Cid والمصدر العربي الوحيد الذي طالع تلك الحملة بعض التفصيل هو روض القرطاس لابن أبي زرع ، طبعة تورنبرج Tornberg صفحات ١٠٣ ، ١٠٤ - ومن الممكن الاطلاع على الروايات التي تضمنتها البيان المغرب لابن عذارى ونظام الجمان لابن القطان في كتابي « وثائق جديدة في تاريخ المرابطين » Documents inédits d'histoire almoravide (٢) انظر كذلك أ. بريوتواي فيفس A. Prieto y Vives في كتابه ملوك الطوائف ، دراسة تاريخية لملكات مسلمي إسبانيا في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) مدريد ١٩٢٦ ، ص ٧٥ . Los Reyes de Taifas, Estudio histórico - numismático de los Mosulmanes espanoles en el siglo v de la hégira (XI de J. C.)

وكان تاريخ زواج « زائدة المدة » موضع أبحاث طويلة بدأت منذ القرن ١٨ في إسبانيا : انظر فلوريت Floréz في كتابه « الملكات الكاثوليكيات » "Reinas Católicas" مدريد ١٧٩٠ جزء أول صفحات ٢٠٨ - ٢١٦ ، ٢٢٨ .

المسلمين في الأعوام التي تلت واقعة الزلافة عام ١٠٨٦ . وعندئذ عقد أكبرهم وهو المعتمد بن عباد ملك إشبيلية حلفاً مع ألفونس السادس عدوه القديم حتى يواجه أطماع المرابطين الصريحة في التوسع داخل الأراضي الإسبانية ، وفي سبيل تدعيم هذا الحلف وتقويته ، اقترح على ملك قشتالة عام ١٠٩٠ أو ١٠٩١ أن يبعث إليه بابنته زائدة لتكون عشيقته في نظير أن يتخلى له عن جزء من مملكته طليطلة الإسلامية القديمة ، التي استولى عليها ، ونقصد بذلك مناطق قنيشرة ووبذة وكونكة . ووافق ألفونس السادس على هذا المشروع ، وولد له ابنه الأول الأمير دون سانشو بعد فترة قصيرة من علاقته وزائدة المسامة ، غير أن أميرة إشبيلية التي اعتنقت الكاثوليكية والتي عمدت باسم إيزابيلا ، توفيت عند وضعها الأمير ، ودفنت في دير ساهاجون في تاريخ يمكن تحديده في ١٠٩٩ . وحين بلغ سن الأمير ما يقرب من تسع سنوات ، أرسله أبوه ليشارك مع جيوشه في حملة وجهها ضد المرابطين عام ١١٠٨ ، فلقى الأمير مصرعه في واقعة ألباش . وعند ما بلغ ألفونس السادس نبأ هلكة أصابه حزن شديد لم يمهله أكثر من عام واحد بعد وفاة ابنه ، فأدركه الموت بدوره في ٣٠ يونيو سنة ١١٠٩^(١) ولم يسع منئذ بيدال ، شأنه في ذلك شأن من سبقه ، إلا أن يستعمل المصادر غير العربية لبناء هذا الحشد من الافتراضات التي

(١) انظر « إسبانيا على عهد السيد » طبعة أولى صفحات ٤٢٣ ، ٦٢٩ وخاتمة

نتهى جميعاً إلى حقيقة واحدة صريحة لا تقبل الجدل ، هي موت
سانشو في ١١٠٨ . فاعتمد قبل كل شيء على الحقائق التي تتضمنها
المدونة التاريخية المسماة De Rebus Hispaniae ، وقد وضعها عام ١٢٤٣
الأسقف رودريج الطليطلي Rodrigue de Tolède المؤرخ الرسمي في
عهد الملك فردينان القديس St. Ferdinand . ومعنى هذا أنه كان
متأخراً نسبياً عن هذه الحوادث التي نعالجها . ومع ذلك فقد
اعترف منندث بيدال أكثر من مرة في كتابه ، بأن روايته تحتاج
إلى الحيلة عند الأخذ بها في كثير من الأحيان إذ أن الأسطورة
تختلط فيها غالباً بالتاريخ الحقيقي ^(١) . والإشارة الوحيدة الجديرة في
اعتقاده بالأخذ ، هي التي أدلى بها بلايو أوبيدو Pelayo d'Oviedo
المعاصر لالفونس السادس ورددها من بعده أسقف توي Tuy في
كتابه " Chronicon Mundi " ويرجع إلى سنة ١٢٣٦ .

وكل ما تتضمنه هذه الإشارة أن زائدة كانت إحدى عشيتي ألفونس
السادس ، حظى بهما طوال حكمه ^(٢) . ثم جاء رودريج الطليطلي فأضاف
إلى علاقة ملك قشتالة بالأميرة المسلمة تفصيلات يعد الشطر الأكبر
منها خرافة محضة ، ولا شك أن رودريج قد تأثر ، كما مال إلى ذلك
بحق الأستاذ منندث بيدال ، بملحمة زائدة المسلمة Cantar de la
Mora Zaida ، إذ يرجح أنه كان يعرفها ، ومن هنا كان ما ذهب إليه

(١) انظر نفس المرجع ص ٩٠ .

(٢) كتاب Espana Sagrada ج ١٤ ، ص ٤٩٠ • انظر لإسبانيا في عهد

السيد ط . أولى ص ٧٧٧ .

رودريج ، من أن زائدة تزوجت بالفونس السادس عقب وفاة زوجته الرابعة إيزابيل وذلك في سنة ١١٠٧ ، أى قبل حدوث واقعة أقليمس بعام واحد تماماً^(١) ؛ ثم إشارته إلى اسم ماري Marie الذى عمدت به زائدة المسلمة ، بدلا من إيزابيل الذى يبدو أن مصدره من الأدب الشعبي^(٢) ، ثم روايته المشوشة ذات المصدر الشاعرى ، التى يعلن فيها أن المرابطين حاربوا ملك إشبيلية المسلم ، فى إحدى المرات التى عبروا فيها إلى إسبانيا ، وهى المرة الثالثة ، لأنه كان قد وهب ابنته لتكون زوجة لالفونس السادس^(٣) . ولكن هناك أمراً جديراً بالإبقاء عليه فى رواية رودريج الطليطلى . ذلك أن الأمير دون شانسو كان عند وقوع معركة أقليمس فى ميعة شبابه Adhuc Parvulo وإن كان فى سن تتيح له امتطاء الجواد^(٤) .

والظاهر أن هذه الاستنتاجات التى وصل إليها منندث بيدال بعد أن أخضع الحقائق المختلفة لفحص نقدى ، لا تقوم فى جملتها على أسس تاريخية مؤكدة بل إنها والحق يقال قليلة الإقناع . فكون الفونس السادس الكلف بالمتعة الجفسية قد عقد فى مغرب حياته

(١) De Rebus Hispaniae ج ٦ ص ٢٠ (انظر لإسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٧) .

(٢) إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٩ .

(٣) De Rebus Hispaniae ج ٦ ص ٢٠ (إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٨) .

(٤) المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢ (إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٩) .

زواجا شرعياً أو غير شرعى على زوجة مسلمة ، وكونه أنجب منها ولده سانشو .. كل هذا يبدو محتملاً جداً ، بل يتمشى تماماً مع عادات عصر كان الزواج المختلط فيه أمراً شائعاً في إسبانيا ، فلون الحياة الإسلامية فيه كان يبدو لدى أمراء النصارى بشبه الجزيرة على أقل تقدير ، في نفس التطور والرفعة التي كان ينعم بهما رعاياهم أنفسهم . وإن ملكاً إسبانياً يضرب في طليطلة المستردة عملات نقوشها عربية ، ويعيش بين سكان كثيرين ما زالوا مسلمين ، لم يمكنه بالأحرى أن يتخذ امرأة مسلمة زوجة له ، لكنه من المستبعد أن يتصور المرء أن يهب المعتمد ، على ما في ذلك من ذلة ، لإحدى بناته للملك نصرانى كان عدوه اللدود الذى يفرض عليه جزية سنوية فادحة . ولو أننا قبلنا جدلاً أن ملك إشبيلية استطاع أن يسلك هذا المسلك غير الطبعي ، لكان ذلك جنوناً صريحاً منه ؛ ففي ذلك الوقت كان صلحاء المسلمين في حاضرتهم ينكرون عليه وعلى زوجته اعتماد الرميكية أقل تصرف يخجل بأحكام الإسلام وينكرون عليها عدم حرصهما على الدين ، وفي ذلك الوقت كانا يعملان على إثبات بطلان هذه الظنون ، هو بدفته في القيام بواجبات المسلم الحق ، وهى بحرصها على أن تقيم باسمها المنشآت الدينية ، ثم ماذا أفاد مؤرخو المرابطين من هذه الهبة ، لتلطيف ذكرى منفي أغمات الشقى ، وقد كان الأمر على الضد من ذلك ، إذ تأسفوا جميعاً لما آل إليه من مصير محزن ؟ . وأخيراً لما إذا تحمل زيادة المسلمة ، إلى سيدها الجديد وكأنها أميرة مسيحية يجرى في

عروقتها الدم الملكي ، من أميرات القرون المتأخرة ، صداقا عظيما يتألف من جميع البلاد التي تتاخم جنوب طليطلة بما فيها الحصون التي أورد ذكرها^(١) رودريج الطليطلي وهي حصن كارا كواي والأرك وقتيشرة ومورة وأوكانية وأوريجه وأقلش وأمستريجو وكونكة ؟ تصرف يمكن أن يفسر من غير شك بأنه رمز ، ولكنه إذ يفيض بالروح القصصية لا يتفق إطلاقا مع التقاليد الإسلامية في جميع البلاد وفي جميع العصور ، زد على ذلك أن ألفونس السادس كان وقتئذ متزوجا زواجا شرعياً من أميرة مسيحية ، فلا يمكن أن يكون الأمر متعلقا بزواج شرعى بل بمجرد اتخاذ لعشيقه .

ولو صح أن المعتمد ترك كل هذه الحصون المنيعه لألفونس السادس ، فال مؤرخون العرب لا يشيرون إطلاقا إلى أنها كانت في حوزته ثم تخلى عنها ، لو صح هذا لكان من الأيسر ومن المعقول أن يفترض المرء أن ذلك كان تنفيذاً لشرط من شروط معاهدة التحالف التي طلبها ملك إشبيلية من ملك قشتالة لما استقر رأى المرابطين على عزله وضم ممتلكاته إليهم دون أن يكون من الضروري وجود علاقة بين هذا التخلي وبين هبة الأميرة المسلمة . فلم يكن المعتمد ، على دقة موقفه ليرضى بذلك حتى ولو دفعته حاشيته إليه دفعاً ، ثم إن ذلك لما يعجب منه ألفونس

(١) De rebus Hispaniae جزء ٦ ص ٣٠ (إسبانيا في عهد السيد ط .
أولى صفحات ٧٧٨ - ٧٧٩) .

السادس ويدهش له، فأطاعه لم تكن بلاشك تبلغ إلى هذا الحد .

• • •

ذلك هو الوضع الذى انتهت إليه المشكلة الخاصة بتاريخ أو أسطورة « زائدة المسئلة » ، وهى مشكلة يبدو أنها كانت قد بقيت معلقة ، فقد كان مما يقل احتمال العثور على مصدر جديد لآتينى أو قشتالى . وأبعد من ذلك على مصدر عربى يمدنا بمفتاح هذه المشكلة ، ومع ذلك فقد أتى لى به بطريق الصدفة نص لمؤرخ عربى .

فقد ورد ذكر الحملة التى وجهها ألفونس السادس ضد قوات أبى الطاهر تميم أخى على بن يوسف التى كانت تحاصر حصن أقليمش فى سنة ٥٠١ هجرية (١١٠٨ م) فى الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب لابن عذارى فى أثناء كلامه على تاريخ المرابطين . ذكر المؤرخ فى عبارات صريحة أن شائجة الذى أنجبه ألفونس من زوجة المأمون ابن عباد التى اعتنقت النصرانية وصل تحت أسوار هذا الحصن على رأس سبعة آلاف فارس تقريباً . هذه الإشارة التى جرى بها قلم مؤرخ مسلم بحيث لا سبيل إلى أن نشك فى صحتها ، تؤيد بصورة قاطعة وجود امرأة من أصل إسلامى باعتبارها خلية لألفونس السادس ، وكانت أم الأمير ؛ ثم تدل على أن هذه المرأة هى كتنه ، إذ كانت زوجة لابنه المأمون .

ولقب المأمون لم يكن يحمله أحد من أمراء بنى عباد بإشبيلية سوى

الابن الثاني للمعتمد واسمه عباد أو فتح ^(١) . كان أبوه قد ولاه حكرمة قرطبة ، فلما غزا المرابطون إسبانيا في نهاية سنة ١٠٩٠ تحت قيادة سير بن أبي بكر ، انفصل عنهم جيش كانت مهمته محاصرة حاضرة خلفاء بني أمية ، ولم يقاوم أهل قرطبة جيوش المرابطين إلا مقاومة طفيفة دخلوا بعدها المدينة في ٢٦ مارس سنة ١٠٩١ (٣ صفر في ٤٨٤ هـ) ؛ وهلك الأمير المأمون والسلاح في يده في الوقت الذي انتزعت فيه قرطبة انتزاعاً ^(٢) ، ثم سقطت لإشبيلية بعد ذلك بعدة شهور ؛ ومن ثم يمكننا إدراك أن أرملة المأمون . وقد امتلأ قلبها حقدًا على قاتلي زوجها وسجاني أبيه بعد ذلك بقليل ، لم تلبث أن رحلت باحثة عن ملاذ لها في مملكة الفونس السادس ، فاجتازت جبال سيرا مورينا ، وهناك أصبحت الزوجة غير الشرعية للملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الإسلام واعتنقت المسيحية . ومن الممكن تحديد هذا الزواج في تاريخ قريب من سقوط قرطبة وإشبيلية في نهاية سنة ١٠٩١ أو بداية سنة ١٠٩٢ ^(٣) دون التعرض كثيراً للوقوع في الزلل .

(١) فيما يختص بأبناء المعتمد الأربعة وعم الرشيد والمأمون والراعي والمؤمن (أو المعتمد باق) انظر المراجع المذكورة في كتاب « الفونس الكناية العربية بإسبانيا » " Inscriptions arabes d'Espagne " طبعة ليدن — باريس ، ١٩٣١ ص ٤١ ملحوظة رقم ٥٥ .

(٢) انظر بصفة خاصة ر . دوزي في كتابه : تاريخ المسلمين بإسبانيا " Histoire des Musulmans d'Espagne " الطبعة الجديدة ، ليدن ١٩٣٢ ج ٣ ص ١٤٨ وانظر المراجع المذكورة في ملحوظة ٢ .

(٣) ليس هناك في الحقيقة نصيب كبير من الصعلة لرأى القائل بأن زوجة الفونس =

ويفهم من هذا كيف أمكن أن تتولد أسطورة ، زائدة المسئلة ،
زوجة المعتمد المزعومة والتي أهداها إلى صرب ملك قشتالة ، عربونا
لسياسته الموجهة ضد المرابطين ،^(١) . وليس أبسر أو أكثر إغراء

== السادس المسألة كانت قد عقدت زواجهما به في أثناء حياة زوجها الأول بعد أن طلقت
منه . ثم إن هذا الزواج لم يكن شرعياً ، إذ أن ألفونس السادس كان متزوجاً في هذه
الفترة منذ ١٠٨٠ وللمرة الثانية بالملكة كونستانس أوله كوند دي شالون سبر ساءون
Chalon - Sur - Saône وابنة روبرت دوم بورجوني Bourgogne
وابنة أخ روبرت الصالح Robert le Pieux ملك فرنسا . وماتت كونستانس في بداية
عام ١٠٩٣ ودفنت في ساجون ، وكانت قد أعجبت ابنها أراكا التي تزوجت
ريمون دي بورجوني Raymond de Bourgogne ثم ألفونس المحارب
Alphonse le Batailleur . وفي نفس هذا العام تزوج ألفونس السادس بعد عهد
قصير من التزل ، الملكة بيرث Berthe ، وماتت بدورها في سنة ١١٠٠ — انظر :
رامون متمدث بيدال ، إسبانيا في عهد السيد ط . أولى صفحات ٢٧٣ ، ٤٤٨ ،
٧٧٨ وقد ذكرت هذه الملكة كونستانس — التي يطلق عليها المؤرخون العرب
القمبيطة (وهي الزوجة السابقة لكوند دي شالون) — عرضاً في بداية القصة
الطوبى لمركة الزلافة والأنساب التي أدت إلى وقوعها ، وهي قصة أوردوها عبد النعم
الحجيري في منجمه التاريخي الجغرافي وعنوانه « الروض المطار في خبر الأنصار »
انظر ا . لبني بروفنسال ، شبه جزيرة أيبيريا في العصر الوسيط ، ليدن ١٩٣٨
صفحات ١٠٤ ، ١٠٥ : E. Lévi-Provençal : La Peninsule Ibérique :
au Moyen âge وأيضاً القرى : نفح الطب ٦٧٦/٢ ط ليدن (ترجم سيموني
هذه الفترة وشرحها بإسهاب في تاريخ المستعربين وإسبانيا ، مدريد ١٩٠٣ صفحات
٦٤٩ ، ٦٥٠ : Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana . وكذلك السلاوي في الاستقصاء ج ٢ ص ١١٣) وكان ألفونس السادس قد أرسل
إلى المعتمد وزيره اليهودي لبسأله السباح لزوجته الحبل بالذهاب إلى مدينة الزهراء
لوضع بسب المناخ الملائم في هذا المكان ، ولكن تتمكن من زيارة الكيسة القديمة
التي بني عليها المسجد الجامع بقرطبة ، ولم يرفض المعتمد لحجب بل تار على الرسول
اليهودي وصلبه .

(١) إسبانيا في عهد السيد ط . أولى ص ٤٢٢ .

(م ١١ — دراسات في الغرب والأندلس)

نرعابا ملك طليطلة ومؤرخي العصور التالية بالخيال من اعتبار الأميرة التي ارتدت عن الإسلام بعد أن تزملت وصارت طليقة ثم ربطت حياتها بحياة ألفونس السادس ، الابنة الحقيقية لملك إشبيلية . أما قصة الصداق ، فلم يكن لها من غير شك أصل سوى هذا ؛ على أن ذلك كله ليس إلا إحكاماً جاء في عصر متأخر ، الحلقة في القصة القشتالية .

ولكن نختتم ذلك بحسن بنا الإشارة إلى أن مولد الأمير دون سانشو لا يمكن أن يكون قد حدث في وقت متأخر بكثير عن الزواج الذي عقده ألفونس السادس على أرملة المأمون ، فقد توفيت هذه وهي تلد إذا صدقنا ما تضمنته شاهد قبرها الذي كان قائماً في دير ساهاجون ، وقد نصبه الأسقف ساندوفال Sandoval من جديد ، إلا أن الكتابة فيها سقط ولم يرد ذكر العصر الذي ماتت فيه الخلية ، إذ سقط من التاريخ الرقم الدال على السنة ، ولم يبق سوى ١٢ سبتمبر ، ويوم من أيام الأخمسة تبعاً لقراءة ساندوفال ، أو أحد أيام الاثنين في رواية تضمنتها صورة منه كانت عند فلوريث ^(١) Flortz . وقد ذهب الأستاذ منتدث بيدال إلى أن التاريخ هو يوم الاثنين الثاني عشر من سبتمبر سنة ١٠٩٩ ، وبني ذلك على الاحتمالات التاريخية التي تدل عليها عناصر التاريخ هذه ، لكن لم لا تؤثر تلويحاً أقدم عهداً وهو الاثنين ١٢ سبتمبر سنة ١٠٩٣ ؟ لا شك أن هذا من شأنه أن يكون الأمير دون سانشو وقت حدوث موقعة أقليمش التي لقي فيها حتفه في الخامسة عشرة تقريباً لافي التاسعة ، وبهذا يستساغ عقلاً اشتراكه سنة ١١٠٨

في الحملة الفاشلة التي حاربت فيها الجيوش القشتالية المرابطين وما
استتبع ذلك من سقوط الأمير المسيحي صريعا .

• • •

وبعد شهور من اكتشاف العبارة الواردة في البيان المغرب عن
« زائدة المسلمة » كتب إلى زميلي هري بيريس H. Pères بجامعة
الجزائر دليل جديد يحقق شخصية الأميرة المسلمة وأنها كانت كنة المعتمد،
ف هناك فتوى (نازلة) دونها الفقيه المراكشي أبو العباس أحمد بن يحيى
الونشريشي^(١) في آخر القرن الخامس عشر أو مستهل القرن السادس
عشر ، تتعلق بالمسلم الذي في استطاعته أن يجتاز إلى إفريقيا ، هل له
أن يظل في إسبانيا ليعين المستضعفين من إخوانه في الدين . ومن
الحجج التي ساقها الونشريشي ليؤيد إجابته بالنفي على هذا السؤال ،
أن ما يدفع المسلمين إلى الهجرة إلى بلد مسلم هو خوفهم من العار الذي
يصبهم لارتداد نسائهم عن الإسلام ، فالذي لديه زوجة أو ابنة أو
فتاة من قرابته قد أشرفت على سن البلوغ يخشى من أن تنشأ علاقة بينها
وبين شخص بالغ من بين السكّاب أعداء الدين والخنازير الملاعين ،
إذ قد يفتنها في دينها ، وفي ذلك العار والشنار ، كما وقع لكنته المعتمد
ابن عباد وأطفالها

والإشارة هنا إلى علاقة القرابة صريحة لا نحتاج إلى بيان ، فأميرة
إشبيلية التي أصبحت زوجة ألفونس السادس لم تكن ابنة المعتمد بل
كنته . وفي العبارة ملاحظ آخر له دلالة : ذلك أن « زائدة المسلمة »

(١) مخطوطة رقم ١٠٤٣ بالكتبة الوطنية بالجزائر ورقة ٦ ط - ٧ و

لم تذهب وحدها إلى بلاد الشرك ، بل لحقت بملك قشتالة ومعها
أبنائها من المأمون ، وهؤلاء أيضا ارتدوا عن الإسلام وانتصروا^(١).

(١) لندنت بيدال مقال عنوانه « بعد ما ورد عن السيد واثار يخ الوسيط
Zeitschrift für romanische philologie La critica cidiana y la histoiira medieval
Revista nacional de educacion. جزء ٦٤ سنة ١٩٤٤ وفي مجلة
٤ - ١٠ ، ثم أوردته في كتاب « قشتالة : التماثيل واللغة » (مجموعة . Austra ،
مدريد بونيس آريس ١٩٤٥) صفحات ٩٥ - ١٣٩ ، بحث فيه الأدلة التي ستتناها
عن المناكل الخاصة بجواز « زائدة المسلمة » إلى بلاد النصرى (صفحات ١١١ - ١١٣
في كتاب قشتالة) . والظاهر أن المؤرخ الإسباني مع قبوله لما ذكرناه عن حقيقة
شخصية الأميرة ، لا يميل كثيراً إلى تغيير موقفه الذي بسطه في كتاب « إسبانيا
في عهد السيد » فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين الفونس السادس والمتمد قبيل استيلاء
المرابطين على إشبيلية . ويرى أن « كون ملك أندلس يدفع جزيرة إلى الفونس مما لا تنتم
منه عداوة بل مما يقتضيه الولد والتعالف السياسي ليضمن حياة الملك المسيحي له ؛
ثم إن ذلك الحماس الديني الذي أومم المتمد الناس به قاصداً من ذلك ألا يدع هناك
مجالاً لتدخل أمير المرابطين ، كان موقفاً قد فات أوانه في اللحظة التي حدثت فيها
قصة اغتاذ الفونس زائدة خلية له . . . وليس من الطبيعي في هذا الموقف اقتراض
أن زائدة المسلمة قد تصرفت وفق هواها (وهو أسرف حد ذاته لا يقبله العقل خاصة
إذا صدر من امرأة مسلمة) ؛ وإنما المتمد نفسه هو الذي دبر هذا الأمر ولم يكن
الإخلال بأحكام الإسلام القى فتاً في هذه الأميرة المسلمة عملاً انفردت به الأميرة
الأرلة ، وإنما كان عملاً سياسياً قام به المتمد الزنديق وكان وقتئذ قد امتلأ صدره
غضباً على مظهر المرابطين الزائف وعداوتهم له وحرس على أن يحظى بتعاون ضل
من الفونس بأي ثمن رغبة في الدفاع عن إشبيلية » . وإذا كنت لا أجد في هذه الحجج
مقنعاً فاني أوافق العالم المدريدي الشهير فيما ذهب إليه عند كلامه على أسطورة
« زائدة المسلمة » من أن « الشعر القصصي الأسباني في نصوصه الأولية ، وكان ثمرة
للفرن الحادى عشر ، يحمل في طياته أساساً تاريخياً أكثر مما يحمل الشعر القصصي
في البلاد الأخرى أثناء تلك الحقبة » .

الفصل السادس

السيد القنيطور في التاريخ

ظهر هذا البحث في المجلة التاريخية Revue Historique جزء

١٧٠ باريس ١٩٢٧ صفحات من ٥٨ إلى ٧٤.

خلد السيد منذ عهد طويل في الصفحات الأولى من ميراث أسبانيا في البطولة ، وقد أريق مداد كثير في تدوين حياته الحقيقية وحياته الأسطورية شأنه في ذلك شأن سائر الأبطال ؛ كما أثارت كلتا حياته بين العلماء صراعاً لم يخل من الهوى . ولم تكن « معركة السيد » في التاريخ ، أقل عنفاً من « معركة السيد » ، في مسرحية كورنى من أجل أنها أحدث منها عهداً : فقد دامت ما يزيد على قرن من الزمان ، ولكنها انتهت اليوم فيما يظهر . فقد عكف منتدث يدال العالم الثبت في دراسات العصور الوسطى الذى تفخر به اليوم أسبانيا ، منذ عشرين عاماً ، بروح المؤرخ الذى هو من الطراز الأول ، على نقض الغبار الكثيف الذى علق بشخصية الكونت القشتالى المرموق ، وتوسل بالحجج القاطعة ليبرر الإحساس الغامض الذى أذكاه الشعراء الشعبيون بأشعارهم عن الفنيطور ، بحيث أخذ يسمو السيد حافز الهمم شيئاً فشيئاً إلى مرتبة البطل الابن الذى يمثل النبيل الأسباني في العصور الوسطى . فهو ، فيما يبدو ، لم يترك شيئاً من شأنه أن يبين العلة في أن السيد صار في ذلك العصر رمزاً للمثالية في الفروسية بشبه الجزيرة ، وهى مثالية تألفت في آن واحد من إدراك بالغ للنخوة مع نشاط وشجاعة يتجاوزان نطاق البشرية . وكان كتاب منتدث يدال عن السيد بمثابة الذروة لرد الفعل العاطفى العلمى أيضاً لتقاليد تاريخية

طويلة الأمد كانت قد حطت شيئاً فشيئاً طوال القرن التاسع عشر من الدور الذي لعبه رودريجو دياث Rodrigo Diaz في الاقتصاد الإسباني المسيحي في العصور الوسطى ، وجعلت منه شخصية من الدرجة الثانية ، ومغامراً لم تستطع بعض حسناته التي لا جدال فيها أن تذهب بما استوجب القدر فيه .

لن نعيد إلى الأذهان تلك المصنفات المتعاقبة التي اتضحت فيها المظاهر المختلفة لهذه الحملة الشعواء على السيد ، افتتاحها اليسوعي الأسباني الأب مسديو ، ثم أضيفت إلى هذه الحملة القائمة على نقد الوثائق التقليدية التي كانت وتشتد في تناول اليد، سلسلة من الاكتشافات اهتدى إليها المستشرق الهولندي ريهارت دوزي ، وهي وثائق سرعان ما زودتنا بفيض هام من الأدلة الجديدة ، ولم يكن في هذه الاكتشافات ما يبعث على الدهشة ، فقد كان من الطبيعي أن يترك البطل الذي نسجت حوله أسطورة الاسترداد ومحاربة الإسلام الإسباني في نهاية القرن الحادي عشر بعض آثار في روايات مؤرخي العرب ، ولما كان التأريخ المسيحي في هذا العصر يكاد يكون معدوماً ، فقد لقي إظهار وثائق أصالية باللغة العربية عن السيد زحياً ، وكان من شأنه أن يفضي إلى ما يقتضيه البحث العلمي ، ولقد تهيأ لدوزي العثور في مكتبة خاصة بجوته في ألمانيا على مخطوطة عربية تحتوي على رواية مطولة عن النشاط السياسي الذي قام به الكونت القشتالي حيال مدينة بلنسية في ذلك الوقت ، وما لبثت أن أفضت أبحاث جديدة لهذا العالم إلى اكتشافات

أخرى ، واستطاع دوزى وهو يتابع تحقيقه ، فحصر المصادر المسيحية لتاريخ السيد عن كتب ، أن يقتنع بأن أهم المصادر عربى الأصل . وأمكنه فى الحقيقة أن يثبت بصفة قاطعة أن تاريخ الكونت القشتالى الذى يؤلف جزءاً هاماً من المدونة الأولى للتاريخ العام — وهى مدونة جمعت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر فى عهد الفونس العاشر العالم — لم يكن سوى صورة مباشرة من الأصل العربى لمصنف فى السنوات الأخيرة من حياة السيد ، دونه فى بلفسية نفسها مؤرخ أندلسى يدعى ابن علقمة ، وظهر بحث دوزى فى عام ١٨٤٩ ، وأحدث ضجة كبرى فى تلك الحقبة ، وكان عنوانه « السيد فى ضوء وثائق جديدة » *Le Cid d'après de nouveaux documents* . ولم تجد المدرسة التاريخية الإسبانية حبال الوثائق التى أتى بها المستعرب الهولندى ، وهى وثائق لا ينطرق إليها الشك ، بدأ من قبول نتائجها ، وكان فى هذه النتائج إفراط من بعض الجوانب وخاصة فيما يتعلق بطابع الشخصية والقشويبة الأسطورى لعصر السيد ، بحيث كان لا بد من الانتظار إلى سنة ١٩٠٠ ليظهر رد الفعل فى أسبانيا ذاتها ، وكان ذلك على يد بويول إى الونسو أول الأمر ، ثم تلاه منتدث بيدال مع كثير من التوسع والتثبت العلمى ، فواصل الجهد فى تقديم شخصية البطل ، ونشر بعض الأبحاث التى عالج فيها مشكلته ، وتوج ذلك كله بكتابه القيم « إسبانيا فى عهد السيد *La Espana del Cid* » الذى ظهرت أولى طبعاته فى مدريد سنة ١٩٢٩ .

ولو أن، منتدث بيدال، انتظر عدة سنوات قبل أن يقدم إلى الجمهور نتائج أبحاثه عن السيد، لكان قد أدخل بعض التحفظات أو أثار بعض الأسئلة على الأقل في الصورة التي رسمها للقيبطور وحرص فيها على أن يدافع عنه ويلتمس له المعاذير، فلقد نهيا لى في ذلك الوقت بالذات، بفضل ما عثرت عليه من مخطوطات في مكتبة جامع القرويين بفاس، وهى مكتبة ظلت إلى وقت كتابة هذه السطور مجهولة في الغالب، أن أكمل المراجع الأصلية التي ورد فيها ذكر السيد وأشير فيها إلى ملكة ألفونس السادس ملك قشتالة وليون الذي تعدد منتدث بيدال أن يؤخره عن مكانته في الإطار الذي وضعه، وقد كان من أثر بعض الوثائق التي أطلعت عليها العالم الأسباني أن أدرك أن بعض نتائجها التي تقسم بضعف التماسك أو التي يرجع الأمر فيها إلى صمت كتب التاريخ المتأخرة عن التعرض لها، لا سند لها، واضطر إلى أن يستأنف في طبعتين أخريين من الكتاب إحداهما في بوينس آيرس سنة ١٩٤٩ والآخرى في مدريد سنة ١٩٤٧ النظر في نواحي قضية قبلت فيها الكلمة النهائية فيما يبدو؛ كذلك كان شأن الظروف التي اكتتفت استيلاء ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥، ومسألة الصداق الخيالي، وقضية الشخصية الحقيقية لزايدة المسلة، وتسويغ العقاب الذي أنزله السيد بابل جحاف قاضى بالنسبة إذ ألتي به في النار.

كان ذلك إذن هوى مع السيد، طغى على الدوائر العلوية الأسبانية في الربع الثاني من القرن العشرين، وهو وضع طبيعي لعودة الأمور إلى نصابها، ونحن إذ نحاول أن نتبين المراحل الأساسية في الحياة الصاخبة للفنيطور لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نغضى عنه كما لم يمكن أن نغضى عن مبالغات المدرسة التاريخية في القرن التاسع عشر التي تذهب في عكس هذا الاتجاه.

• • •

لعل من المجدى أن نحاول أولاً تحديد المكان الذي يشغله القرن الحادى عشر من تاريخ شبه جزيرة أيبيريا في العصور الوسطى بقدر ما نستطيع من الإيجاز. فقد شهد هذا القرن الذى يمثل فترة طويلة من الانتقال السياسى، للجانب الإسلامى والجانب المسيحى على السواء حشداً من الحوادث لم يروها المؤرخون في كلا المعسكرين، والحق يقال، بأمانة تامة. كما شهدت السنوات الأولى لهذا القرن انتشار عقد الخلافة القرطبية في جنوب شبه الجزيرة، وبجملت الأعوام الأخيرة له حالة جديدة لم تكن في الحسبان هي تدخل إفريقية الشمالية في اقتصاد الإسلام الأندلسى

وإذا أرسلنا البصر إلى ما وراء الأراضى الإسلامية لئرى ما يقع إذ ذاك من أحداث، رأينا كذلك نظاماً جديداً يوضع في الدويلات المسيحية بأسبانيا الشمالية، فقد أخذت حركة الاسترداد تتسع

ويعظم شأنها ، ولا يمثل ذلك في ارتداد حدود الإسلام لحسب بل في فرض الممالك الإسبانية سلطانها على الإمارات الإسلامية المجاورة . ثم حدث أن اضطرت هذه الحركة إلى التوقف فجأة قرب نهاية هذا القرن .

فالواقع أننا نشهد حتى قرب عام ١٠٥٠ ، الترنحات الأخيرة للخلافة القرطبية ثم انقسام الإمبراطورية الأموية إلى عدد من الدويلات المستقلة التي تنظم في صورة حسنة كانت أو سيئة ، فتحاول أن تعيش داخل نطاق محدود من الأراضي ، على ميزانية صغيرة . ولم يلبث بعض هذه الدول بطبيعة الحال أن ألقي زمام أموره إلى البعض الآخر . ولم تضم هذه الدول الأخيرة الدول الأولى إليها ببساطة ، ثم كانت بين الممالك القوية القليلة التي بقيت بعد فناء الأخرى معارك دائمة أو محالفات لم تلبث أن ألغيت بأسرع مما عقدت به ، وكانت الحالة السياسية لهذه الدويلات الإسلامية تتغير من سنة إلى أخرى ، فكان مدار الأمر على الرية وطموح بعض الأمراء الذين كانوا يحملون باسترجاع السيطرة القديمة على عهد الخلافة لمصلحتهم . وفي مثل تلك الحال ، لم يكن لأهل أسبانيا الشمالية غير الكسب الذي لم يعد موه قط ؛ فقد عمدوا إلى إطالة هذا الاضطراب السيامي حتى يخرجوا منه بمنعم وفير ، وانتهى بهم الأمر بعدئذ ، تحت دفع بعض أمرائهم الأبحاد ذوي الهمة إلى التعرض للشئون الداخلية للدويلات الإسلامية دون أى تحفظ ، وإملاء شروطهم عليها ، حتى أفضى الأمر بها إلى دفع الجزية وهي صاغرة .

وفي الربع الأخير من القرن الحادى عشر أخذت الحوادث
تجمرى بسرعة وساء موقف الإسلام الأندلسى إلى درجة الخطورة ،
ولم يبق لديه سوى وسيلة واحدة ليقوم بها موقفه ، وهى الاستنجد
بأفريقية الشمالية أى المغرب . وكان الأمراء الأندلسيون الذين
اشتركوا عن رضى عنهم أو كره فى توجيه هذا النداء ، يعلمون حق
العلم أنهم يوقعون فى نفس الوقت قرار سقوطهم .

وفى أثناء تلك الفترة المليئة بالفوضى والاضطراب أخذت
بعض الشخصيات البارزة تظهر فى جلاء ناصع على المسرح السياسى :
وهى شخصيات لبعض أمراء المسلمين فى جنوب شبه الجزيرة ،
نذكر منهم الملك الشاعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، ثم باديس
وعبد الله من بنى زبرى فى غرناطة ، وظهر بصفة خاصة أمير المرابطين ،
ابن تاشفين كما ظهر فى المعسكر الآخر شخصية ألفونس السادس
ملك قشتالة وقاتح طليطلة والذى باء بعد ذلك بالهزيمة فى الزلاقة ، ثم
تجلت بعد ذلك بقليل صورة السيد القنيطور التى كلاتها الأسطورة
بالفار . وكان تاريخ بعض هؤلاء يتشابك بدون انقطاع مع تاريخ
البعض الآخر ، فهو يؤلف وحدة لا يمكن فصلها ، وقد حان الوقت
الذى يمكننا فيه أن ننقيه من شوائب الشكوك التى ظلت تحيط به .

ودراسة الظروف السياسية فى أسبانيا إبان القرن الحادى عشر
لا سبيل إلها إذا نحن فصلنا التاريخ المسيحى عن التاريخ الإسلامى ، فهما جزآن

لشيء واحد، ولا ينبغي كذلك أن تهمل تلك الدراسة حقيقة أساسية لم يوفها الباحثون حقها من الإبراز : هي دوام التداخل في العصور الوسطى بين شعوب شبه الجزيرة ؛ فلم يكن الإسباني المسلم وقتئذ أجنبيا أو مختلفا في شيء عن الأسباني المسيحي كما كان يخيل للبعض ، فقد كانت الإمارات الشمالية منذ عهد مبكر تضم بين رعاياها عدداً من المسلمين ؛ وكانت إسبانيا الإسلامية من جانبها تضم دائماً في أراضيها نسبة عالية جداً من العناصر الأسبانية التي بقيت على دينها . والذين يتبعون تطور التاريخ السياسي لشبه الجزيرة في العصر الوسيط الأعلى لا يدرسون إلا ناحية جزئية جداً من ماضيه ، فتاريخ تطوره الاجتماعي الذي ما يزال غير معروف لقلة الوثائق المتصلة به ، من شأنه أن يوضح ، لو أن لدينا الوسائل لمعالجته ، مشكلات ما فُتت غير واضحة إن لم تكن مظلمة غامضة .

وهناك تصور حديث يوشك أن يؤدي إلى تزييف إطار أسبانيا في العصور الوسطى ، وهو إطار يضم عناصر شتى ؛ نغنى بذلك مسألة الحدود على نحو ما نفهمها اليوم أي تعوزها المرونة ، ويثبتها على الخريطة خط يذل من الناحية الجغرافية أحيانا على أنه صناعي . ففي العصور الوسطى وفي سائر المغرب الإسلامي ، كانت الحدود الطبيعية فقط هي التي تؤلف الحد السياسي ، ولم تكن تلك الحدود تتخذ صورة خط جامد وإنما تتخذ شكل شريط يختلف اتساعه ، بحيث لا نستطيع الجزم بتبعيته لإحدى الدولتين اللتين يفصل بينهما . وقد

لعب هذا العامل الذى يتمثل فى وجود حدود غير ثابتة دوره فى كل لحظة من تاريخ أسبانيا فى القرن الحادى عشر ؛ فإن تعدد الدول كان من شأنه أن يزيد من مساحة مناطق الحدود هذه ، فكانت الدعاية اللبقة لدى السكان أجدى فى الغالب من التدخل المسلح . ويجدر بنا ونحن نتناول بالدراسة التقلبات التى اتسمت بها ملحمة السيّد القنيطور فى نطاق هذا التاريخ المشترك ، أن نضع نصب أعيننا هذه الطائفة من الظروف الخاصة .

• • •

لا نعرف شيئا كثيرا على وجه الدقة عن طفولته ، ففى عام ١٠٤٥ ولد ، على ما يحتمل ، رودريجو دياث Rodrigo Diaz فى بلدة فيفار على تسعة كيلومترات شمالى مدينة برغش ، وهو من المواضع المهجورة فى الهضبة القشتالية ، تكتنفه طبيعة قاسية لا نظير لها فى جلالها ، والحياة فى هذه البقاع قاسية على السكان الذين اعتادوا منذ حداّتهم أن يعيشوا عيشة معدومة اليسر ، مليئة بمظاهر الحرمان . وكان ديجو لاينيث Diego Lainez والد رودريجو من أسرة نبيلة فهو ينحدر من سلالة القاضى لاين كلفو Lain Calvo ، ويبدو أنه عاش فى عزلة ولم يكن على جانب كبير من الثراء ، يعيش فى أراضيه الفقيرة بفيفار . أما أم السيّد التى لا نعرف اسمها فقد كانت تنحدر أيضا من سلالة نبيلة : فقد كان أبوها رودريجو ألفاريث سيّدا كبيرا النفوذ ، يمتلك إقطاعيات فى وادى الدويره وقد اشترك فى مبعثه شابه مع ديجو لاينيث فى حملات ضد ملكة نافارة الغريبة وذلك

لحساب ملك ليون ، فرناندو الأول ، ولكن يبدو أن والده قد توفي منذ عام ١٠٥٨ وكان وقتئذ غلاما يافعا . غير أن رودريجو وقد ورث ما خلفه أبوه ، وجد ترحيبا من الملك سانشو بن فرناندو الأول على عادة الملوك في هذا العصر ، فضمه إليه ليكمل تثقيفه ، ولم يكن يكبره إلا بضع سنوات ؛ ثم قلده السيف وخلع عليه شارة القروسية وجعله في حماه ، وقد اشترك السيد معه بعدئذ في موقعة جراوس عام ١٠٦٣ وفيما انتصر جند قشتالة الذين جاءوا لمساعدة المقتدر بن هود . ملك مرقسطة في حربه مع الأرجونيين ؛ منطقة البرانس السفلى ، وقتل في تلك المعركة راميرو الأول عم دون سانشو . وهكذا نرى أن السيد شهر سلاحه أول ما شهر ، وهو في صفوف الجيش الإسلامي أثناء مدافعتة الأسبان المسيحيين ، ولا يفوتنا أن نذكر أن ذلك كان أمرا مألوفا وقتئذ .

نحن نعلم كيف وزع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، الذي أضاف إلى تاريخ الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبيرية صفحات جليلة ، ملكه في آخر حياته بين أبنائه على نحو يدل على عدم التبصر في الشؤون السياسية ؛ فكان من نصيب أكبر أبنائه ، حامى السيد ، ملكة قشتالة ، وكان لثانيهم الفونس السادس ، ملكة ليون ، ولثالثهم غرسية ملكة جليقية وأقطع ابنيه أراكة والبيرة الأديرة الفنية وكان من شأن هذه القسمة الجائرة أن أفضت إلى حرب من أجل وراثة الملك لم تلبث أن نشبت بين أبناء فرناندو عقيب وفاته سنة ١٠٦٥ في ليون ،

فهاجم أكبرهم ، سانشو الثاني بادی . ذی بدء شقيقه ألفونس السادس ملك ليون عام ١٠٦٨ أملا في أن يسترد ولایات إخوته إذ كان يرى أنها قد اغتصبت منه شخصيا ، ودارت في سهول لیانتادا في ١٦ يوليو سنة ١٠٦٩ ربح معركة انتهت على وجه غامض ، وبعد ذلك بعاهين تمكن سانشو من أن یزیل أخاه غرسية ملك جليقية عن عرشه ، ولم یلبث أن تحول إلى ألفونس السادس وهزمه في معركة جليخيرة غير بعيد من حصن قريون دی لوس كوندیس ، ثم إقتاده أسيرا إلى برغش ، وتوسطت له أخته أراكة ، فبعث به بعد ذلك بقليل منفيا إلى طليطلة في بلاط المأمون بن ذی النون ، وكان إذ ذاك يعطى الجزية لسانشو الثاني ؛ والظاهر أن السيد لم یكن سلیبا أثناء هذا الصراع القائم بين ابني فرناندو الأول ، إذ لم یلبث أن صار فارس الملك الفشتالی ای حامل لوائه وقائد جيوشه على نحو ما . وفي هذه الأثناء واته الفرصة لإظهار مواهبه إذ صارع فارسا من أبناء نافارة نصرعه ، ولعل ذلك خوله لقب القنبيطور Campeador . على أن هذا التأویل بعيد ، فلفظ Campeador ليس معناه البطل ، وإنما معناه على التحقيق ، قائد الغارات في السهول . . . ويفسر المؤرخون العرب في العصور الوسطى هذا اللقب الذی یقابله في اللغة اللاتينية لفظ Campidoctus ، بصاحب الفحص ، ، ولعله أطلق منذ ذلك الحين على الخبير بالغزوات في أرض الأعداء .

ومهما یکن من أمر ، ففي تلك الحقبة تنسب إلى القنبيطور أمور

كثيرة يبدو أنه فرضها على راعيه سانشو الثانى : فبالحاحه ، انقلبت معركة جلبخيرة التى تفوق فيها ألفونس السادس بآدى الامر وسرح فرسانه من أبناء ليون ، إلى نكبة أصيب بها فى اليوم التالى ، فقد مضى عنه أعوانه ، طوعاً ائقته العمياء بكلمة أخيه ، ومن هنا كان الاتهام الشنيع الذى ألصق بالسيد ، بحبث راح الحمامون عنه من المحدثين يحطمونهُ أو يقللون من شأنه ، وسيلهم إلى ذلك حجج لم يتهياً لسوء الحظ أن تكون دأمة مقنعة .

ونعلم ما تلا ذلك من أحداث : فبعد أن قضى ألفونس السادس تسعة أشهر فى طلبيلة مدينة الإسلام منقياً ، بنعم برغد العيش ، وجد نفسه بين عشية وضحاها وقد رد إليه عرشه الذى أخذه منه أخوه سانشو الثانى غصباً ، ثم انتهى إليه ميراث الملك . فقد دبرت ثورة على سانشو الثانى من أخته أراكه يوازرها پدرو أنسوريت وهو شيخ كان يؤدب ألفونس السادس . واضطر سانشو فى سبيل إنقاذ الموقف إلى المجىء بنفسه ، وحاصر مركز الثورة فى حصن سمورة ، وبذل المحاصرون بعد أن وهنت قواهم غاية جهدهم : وخرج أحدهم وهو يبيدو أدولفو ، وكان فارساً بأسلاً ، من الموقع المحصور وأوغل فى محلة المحاصرين ، واستطاع أن يفاجئ الملك سانشو الثانى بطعنة من رمحهُ أردته قتيلاً فى ١٧ أكتوبر سنة ١٠٧٢ ، ففقد بموته رودريجو ديات سبده وراعيه فى ضربة من ضربات القدر ، وكان قد اشترك فى حصار سمورة . وتعزو الأسطورة المتأخرة له دوراً فى هذا المصراع الدامى ، (م ١٢ — دراسات فى المغرب والأندلس)

فقد روى أنه امتطى جواده ورمعه في قبضته وانطلق في أثر القاتل ،
الذى استطاع أن يفلت من القصاص فقد أغلق باب سمورة بعد
أن دخلها .

ولم يجد القنيطور بدأ من الرضوخ أمام الشعور الذى أجمع عليه
نبلاء قشتالة الآخرون ، فقد قرروا أن يعهدوا بمصير المملكة إلى
ألفونس السادس المنفى في طليطلة ، ولعلمهم لم يتخذوا هذا القرار
الوحيد الذى أملت عليه الظروف إلا على الرغم منهم ، فع أن شعر
الملاحم المتأخر قد نسج من هذه الحادثة سلسلة من الأقايص
الخيالية التى لا تستطيع الصمود أمام النقد العلمى إلا أنه يكاد يكون
من المحقق أن طبقة النبلاء في قشتالة طلبت من عاهلها الجديد أن يحلف
أمامها العيمين بأنه لا يد له في مؤامرة سمورة وأنه يرى من دم سانشو
الثانى ، واضطر ألفونس السادس إلى النزول على إرادتهم مع ما فيها
من شطط : ففي آخر عام ١٠٧٢ رضى أن يحلف العيمين في كنيسة سانتا
جاديا ببرغش على براءته التامة ؛ وتشاء الرواية أن تجعل من رودريجو
دياث رئيسا لهذا الحفل ، فيتلقى نيابة عن نبلاء قشتالة المجتمعين في
الكنيسة ، القسم المهيمن لألفونس السادس الذى لم يغفر له قط هذا
الدليل الجارح على انعدام الثقة فيه ، والظاهر مع ذلك أن كراهية ملك
قشتالة وليون الجديد للقنيطور لم تكن ترجع إلى ذلك العهد ، فقد
كان القنيطور في هذه الأثناء أحد المقربين من رجال الحاشية ، بل عهد
إليه الملك في بعض المنازعات أن يتولى الدعوى نيابة عن رئيس دير

كاردانيا ، ولكن السيد فقد لقبه كفارس ملكي ، وصار پدرو أنسوريث المؤدب القديم للملك وغرسيه أردونيث Garcia Ordonez الشاب القشتالي النبيل الذي صار منذ ذلك الحين المنافس العنيد لرودريجو دياث ، هما أكثر المستشارين قربا إلى نفسه .

ومع ذلك فقد أظهر ملك قشتالة للسيد بعد ذلك بقليل دليلا قاطعا على تقديره له عندما عمد إلى البحث له عن زواج شريف تحقبقا لإحدى واجبات الملك الالماسية حيال تابعه ، فقد زوجه فتاة من أكثر طبقة نبلاء أشتورية نقاء هي دنيا خيمينا دياث ابنة ديجو رودريجيث قط مدينة أوڤيدو . فإن هذه الحفيدة الصغرى لألفونس الخامس ملك ليون كانت ابنة عم الملك الجالس على العرش ، وقد أهدى القنبيطور خطيبته - جريا على عادات العصر - أراضى من أملاكه بقشتالة ؛ وسجل هذه الهبة محفوظ ، تاريخه ١٩ يوليو ١٠٧٤ ، وهو دون شك نفس اليوم الذي احتفل فيه بزواج السيد من خيمينا ، وكان ألفونس السادس يرى أن هذا الزواج سيكون له أثره في إقامة الصلح بين طبقة الأشراف في قشتالة وطبقة الأشراف في ليون ، وبينهما عداوة منذ حوادث سمورة . والظاهر أنه ، تمكينا لهذا الصلح ، دعا ألفونس السادس السيد بعد زواجه مباشرة لمرافقته في حجه إلى أوڤيدو التي كانت تضم وقتئذ أجل مكان ديني في إسبانيا بعد كنيسة شنت يعقوب بجليقية ، يتمثل في كاتدرائية سان سلفادور ، وظل البلاط القشتالي أشهراً كثيرة في المدينة الأشتورية ، ولم يعد إلى برغش إلا بعد عيد الصوم الكبير عام ١٠٧٥ .

وكانت السنون التي تلت ذلك بالنسبة لآلفونس السادس تعج بالمشاحنات مع البابا جريجوار السابع على أثر النفوذ الذي فرضته عليه زوجته الجديدة ، الكونتيسة ، الفرنسية كونستانس ابنة روبرت دي بورجني ، ثم نفوذ رهبان كلوني الذين أحضرتهم معها إلى إسبانيا في حاشيتها . وقد أدى ذلك كما نعرف ، إلى استبدال الطقوس الرومانية في جميع أنحاء مملكة ألفونس السادس بطقوس طليطلة القديمة وتعرف أيضا بالطقوس القوطية أو طقوس المستعربين . ولم يلبث ألفونس أن صرف همه إلى الرسالة التقليدية التي مضى عليها أسلافه وهي استئصال حركة الاسترداد القومي ومحاربة الإسلام الإسباني .

وأهم الدول الإسلامية التي كانت تؤدي الجزية وقتئذ لبسلاط برغش بمقتضى معاهدة قديمة هما مملكة طليطلة ومملكة إشبيلية ، فكانت تدفع على هاتين الحاضرتين الإسلاميتين كل عام سفارة قشتالية أو ليونية لتتلقى منهما الجزية ، وأهل ألفونس السادس قد عهد في نهاية عام ١٠٧٩ إلى السيد برئاسة الوفد الذي توجه إلى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وذلك على الرغم من أننا لا نجد ذكراً لهذه السفارة في كتب التاريخ العربية ، وكان من شأن الدور الذي قام به القنيطور في هذه المناسبة أن يؤثر تأثيراً خطيراً في اتجاه نشاطه فيما بعد وفي علاقته مع مولاه الملك ألفونس السادس ، فعندما وصل الوفد القشتالي إلى إشبيلية كان المعتمد في حرب صريحة مع عبد الله الزيري ملك غرناطة الذي عثرت على مذكراته القيمة في فترات متعاقبة خلال سنوات

عديدة وزجرتها ؛ وكان هذا الأمير أيضاً قد رضى قبل ذلك بقليل ، بأن يدفع الجزية لملك قشتالة ، وعقد معه - كما يتبين ذلك من كتابه - علاقات سياسية ، وكان جيش ملك غرناطة يضم في ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل ألفونس السادس وضعهم تحت تصرفه رغبة في إقامة توازن بين الجيوش الإسلامية المتعادية في جنوب شبه الجزيرة ، وفي الحد من إطماع ملك إشبيلية ، وكان يرنو إلى توسيع رقعة ملكه ، ومن هنا اشتمل جيش ملك غرناطة على ممثلين لطبقة النبلاء بقشتالة ، وكان منهم الكونت غرسيه أوردونيث نفسه ، خصم السيد . وما إن وجد رودريجو دياث نفسه في إشبيلية يحيط به جو الحرب من كل جانب حتى خاطر بالمساهمة شخصياً مع قوته الصغيرة في الدفاع عن مملكته إشبيلية بحجة أن صاحبها مشغول بحماية ملك قشتالة ، وعلى هذا نشبت معركة قرب قبرة اشترك فيها فرسان مسيحيون وطيون ، فريق في جيش ملك غرناطة وفريق في جيش إشبيلية ، تغذيتهم أحقاد شخصية دفينه ، وقد هزم جيش غرناطة ، وأسر جيش إشبيلية بفضل بلاه السيد وبطائه من الفرسان ، عدداً كبيراً من نبلاء النصارى ومن بينهم فارس ألفونس السادس نفسه غرسيه أوردونيث . وكان لابد له هو ومن معه أن ينتظروا ثلاثة أيام قبل أن يفك القنيطور أسرهم ويستأنفوا طريقهم إلى برغش وقد لحقهم الذل الشديد .

أما السيد فقد عاد سنة ١٠٨٠ إلى عاصمة قشتالة بعد أن أتم مهمته وجى الجزية من ملك إشبيلية .

ولم يكن غرسية أوردونيك بالذى يرضى بأن تقف الأمور عند هذا الحد بطبيعة الحال ، فقد أذكرى منذ ذلك الوقت حملة من الدساتس ضد رودريجو دياث ، وضم كثيراً من المناصرين له ، ولم يلبث البلاط القشتالى بأجمعه أن أفصح عن شعوره العدائى حيال القنيطور ذى المهمة البعيدة ، ولم يستطع الملك نفسه أن يصرم أذنيه أكثر من هذا عن تحريض بطانته له على السيد ، ولكن كان لابد له من ذريعة يلتصمها لينسكرك على تابعه مسلكه ، ولم يلبث أن واثته الفرصة لتحقيق مأربه ، فبينما كان الفونس السادس مشغولاً عند الحدود الجنوبية لقشتالة وقد بدأ حملته على مملكة طليطلة ، نعى إلى السيد وكان قد بقى فى برغش ، نبأ بهجوم موفق شنه فريق من المسلمين على حصن غرماج الواقع على خط نهر الدوبره ، فقام من تلقاء نفسه بهجوم مضاد دون أن يرجع إلى الملك ، إذ أغار بمئات من الفرسان على أطراف مملكة طليطلة ، وعاد ومعه غنائم كثيرة وآلاف من الأسرى ، وقد صور نبلاء قشتالة للملك مبلغ ما فى مملك السيد من إفراط تجاوز الحد ، وكان السيد يظن أنه لا حاجة له إلى تفويض من الملك ليظفر بانتصاره ، وأذعن الفونس السادس لقولهم ، وأبلغ رودريجو دياث فى عام ١٨٠١ أنه منى من بلاده .

• • •

كانت هذه بداية أوديسة القنيطور الخاصة به ، وقد أفضى هذا النفى بطبيعة الحال إلى أساطير وروايات قصصية بعيدة عن الحقيقة ،

ولم يبق سوى أن هذا النفي كان نقطة التحول الهامة في حياة البطل القشتالي ، والحكم بنفى النبلاء كان أسراً شائعاً في بلاط النصارى بشبه الجزيرة وبقية بلاد أوروبا الغربية ، وهو يقتزن بإخراج مسرحى حقيقى ، وتسريح الخيـّ في نظام ودقة ، يحتفظ المنفى ببعض الحقوق التى لا يمكن تجريده منها ، فلا تصدر أراضيه إذا لم يكن قد اقترف جريمة تتعلق بالشرف ، وله الحق في أن يصطحب معه في منفاه ذوى قرباه وحشمه بالمعنى الواسع لهذا اللفظ أى بما في ذلك جنده وفرسانه ، الذين يتولى تلقيبهم ، ويظلمون على وفائهم له مهما حدث له . وهكذا اتخذ رودريجو دياث طريقه نحو الشرق ، بعد طرده من قشتالة على رأس فرقة تضم ثثمائة فارس تقريباً ليظفر بـ«بلقمة العيش» في أرض غربية على حد تعبير القانون العرفى القديم . اتجه أولاً إلى برشلونة ليعرض فيها خدماته على السكونت رامون بيرنجر ، فلم يجد منه ترحيباً ، فضى القنبيطور إلى ملك سرقسطة المسلم الذى استقبله بأحسن مما فعل الأول ، ولم يكن خيراً عن هذا الملك - وهو أحمد المقتدر - من أن يظفر بهذا العون الهام من الجنود المرتزقة الذين تلمهم القوة المرافقة للسكونت المنفى ، ولكن المقتدريات في هذا العام بعد أن قسم أملاكه بين ولديه : فكان نصيب المؤمن مدينة سرقسطة وما اتصل بها ، وورث المذر دانية وطرطوشة ولاردة ، ثم لم يلبث الأخوان أن تحاربا ، واستمر القنبيطور في خدمة الأكبر وانحاز الثانى إلى سانشو راميريث ملك أرغون ورامون بيرنجر الثانى كونت برشلونة ، ووجد

رودريجو دياث نفسه منذ ذلك الحين مضطراً إلى محاربة الأراجونيين والقطالانيين في آن واحد لحساب ملك مرسطة المسلم ، ولكنه استطاع بالرغم من التفوق العددي لهؤلاء أن ينتصر عليهم انتصاراً باهراً بالقرب من حصن المنار على مسافة قصيرة شمال غربي لاردة . وظفر بغنيمة عظيمة وأسر كونت برشلونة ، ولكنه لم يتردد في أن يرد إليه حريته وكان كريماً معه . ثم دخل مرسطة واستقبل فيها استقبال الظافر وأغدق عليه ملكها الهدايا وأخلع عليه مراتب الشرف ، واستطاع بهذا النجاح أن يظفر بمكانة ونفوذ بين جنود المؤمنين على نحو لا نظير له ، ولعله في هذه الحقبة ، أخذ يطلق عليه لقب سيدي ، بكسر السين وإسكان الياء ، وهو صورة أندلسية للفظ سيدي في الفصحى بمعنى مولاي ، ونقلت إلى الإسبانية فأصبحت ميو سيد Mio Cid وصار هذا اللقب الذي أظفرته به مواهبه العسكرية علماً عليه . على أننا لا نجد له ذكر إلا في المصنفات التاريخية القشتالية القديمة ولا في المصنفات العربية ، وإنما نجد في هذه مذكوراً بلقبه الآخر وهو القنبيطور .

ولم يكن ألفونس السادس بالذي يتغاضى عن النجاح الذي أصابه هذا الذي نفاه من بلاده لعهد قريب وذلك لحساب ملكة إسلامية عدوة له . وحاول أن يرد على هذا فأرسل جيشاً ليختل حصن روطة تلبية لرغبة حاكمه ، وهو حصن هام من أملاك المؤمنين يبعد خمسة وثلاثين كيلو

متراً من سرقسطة على ضفة نهر شلون ، ولكن ذلك لم يكن سوى شرك أعد له ، إذ قُتل جميع قواده الذين أرسلهم هناك ، ولما علم السيد بهذه المكيدة خشى أن يقحمه في هذه المشكلة أعداؤه في بلاط قشتالة الذين لم يلقوا سلاحهم بعد ، فسارع تبرئة لنفسه بالحضور إلى معسكر ألفونس السادس الذى قدم هناك على عجل ، لكن ملك قشتالة استقبله بفتور شديد ، فلم تكن ساعة الصلح قد دقت بعد ، وعاد السيد إلى سرقسطة واستمر في شن حملاته الظافرة من أجل ملكها ، فهاجم موريلبا وهزم ملك أرغون وأسر عدداً كبيراً من نبلائها في أغسطس عام ١٠٨٤ ، وبقي في سرقسطة إلى عام ١٠٨٦ على أقل تقدير . ولكن تعوزنا التفاصيل عن نشاطه الذى استطاع أن يقوم به في هذه الأثناء ، غير أن شهرة ألفونس السادس كانت قد حجبت شهرته تماماً ، ففي ٦ مايو سنة ١٠٨٥ دخل ألفونس السادس طليطلة وانتزعها هي ومحاولها من سلطان الإسلام .

ومات المؤمن ملك سرقسطة في نفس هذا الوقت وانتقل السيد إلى خدمة ابنه وخليفته أحمد المستعين ، ومنذ اعتلى العرش ، والسيد يفكر في الاستيلاء على بلنسية ليضمها إلى ملك المستعين .

وإمارة بلنسية المستقلة التى أسسها عبد العزيز حفيد المنصور بن أبى عامر ، الدكتاتور الشهير ، على أثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ضمت إلى مملكة طليطلة عام ١٠٦٥ ، ولما استقر القادر فى عرش طليطلة عاصمة القوط القديمة سنة ١٠٧٤ بعد وفاة جده المأمون ، لم يلبث أن

سلبه بلنسية حاكمها الذي كان بمثابة . واستمرت هذه الاحوال أكثر من عشرة أعوام تكفل بعدها ألفونس السادس ملك قشتالة ، وكان يستغل كل تدخل يمكن في الخصومات التي تنشأ بين المسلمين ، بأن يعيد إلى القادر بلنسية عاصمة شرق الأندلس ، في مقابل حصوله هو على مدينة طليطلة نفسها ، وقد سلت إليه في ١٠٨٥ فكان عند وعده . واستطاع بمساعدة فرقة من الجيش القشتالي تحت قيادة الجنرال أثار هانيث (البرهانس) أن يدخل مدينة بلنسية بدون قتال ، ولكن سرعان ما أصبح مكروها لدى رعاياه في عاصمته الجديدة ، غير أن وجود أثار هانيث إلى جانبه مكنه من البقاء . ولكن في سنة ١٠٨٦ ، نزل المرابطون إسبانيا قبيل وقوع معركة الزلاقة مباشرة ، فدعا ألفونس السادس أثار هانيث إليه من بلنسية ، وانهز المنذر صاحب لاردة هذه الفرصة فهاجم القادر ، الذي استنجد عندئذ بملك قشتالة وبملك سرقسطة في الوقت ذاته ، ورأى ملك سرقسطة أن الفرصة سانحة ليجرد ملك بلنسية من إمارته فعمد اتفاقاً مع السيد ، تؤول إليه بمقتضاه الأسلاب والغنائم التي يظفر بها في الحملة .

فهل شعر رودريجو دياث بغضاضة من محاربه القادر وهو في حمى ألفونس السادس وكان أشد أمراء المسلمين خضوعاً له ؟ لاشك أنه لم يهمل أذنيه دائماً عن توسلات القادر ، فقد كان يرجوه ، وهو يمينه بالهدايا الثمينة ، ألا يهاجمه ، ولعل السيد قد أحس بأنه إذ يحمي هذا الذي يتمتع برعاية ملك قشتالة إنما يمهّد السبيل إلى صالح اشتدت

رغبته فيه بعد أن انضمت إلى الفونس السادس طبقة النبلاء في قشتالة بأسرها وذلك بفضل بلائه في مدافعة الإسلام ، وبفضل الجهود التي بذلها في تأليف جبهة موحدة حيال خطر المرابطين الجاثم ، لكن هذه الجهود ذهبت كما نعلم أدراج الرياح ، ففي ١٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ هزمت جيوش المرابطين والاندلسيين بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين جيوش الفونس السادس هزيمة نكراء في الزلاقة غير بعيد من بطليوس ، ولم يسع ملك قشتالة من جانبه بعد الهزيمة التي نزلت به في الزلاقة إلا أن يغير من شعوره نحو السيد ، وقد حانت الفرصة ليعود هذا القائد المقدم الذي استطاع أن يظفر بما ظفر به في منغاه ، إلى الجماعة . ولعل ذلك الصلح تم في ربيع عام ١٠٨٧ بطلبية وقد قصدوا بنفسه واستقبل فيها بأعظم مظاهر التشريف ومنح الهبات السنية كحصن دوفيناس وغرماج وبريثيسكا ، وقد قضى عاماً كاملاً في بلاط مليسكا ، ثم عاد بموافقة الفونس إلى شمال شرق شبه الجزيرة على رأس جيش قشالي حقيقى ليرفع راية المسيحية في أرض الإسلام ، ومنذ ذلك الحين ارتفع شأنه وتحدث الناس بحظه السياسى والعسكرى ، أما صلحه مع ملك قشتالة فكان إلى حين .

• • •

انتهز ملك سرقسطة غياب السيد ، فعقد حلفاً مع كونت برشلونة القطالانى ، عدوه القديم الذى كان يحاصر بلنسية ... غير أن

رامون بيرجر الثانى انسحب أمام السيد الذى وعد القادر بأن يجمعه من كل عدوان عليه ، وذلك مقابل جزية خاصة ، كان ذلك العهد الذى جاز فيه الأمير يوسف بن تاشفين الزقاق للمرة الثانية لمحاصرة حصن البطة المسيحي غير بعيد من مرسية ، واهتم الفونس السادس إذ ذاك بجمع جيش كبير ليدفع الهجوم الذى قد يشنه المرابطون فى القريب العاجل . واستدعى السيد لهذا الغرض ، ولكنه أصم أذنيه عن نداء مولا ، أو على الأقل تمهل قليلا فى إجابته ، ثم كان ذلك من جديد مصدراً للقطيعة التى تعمدها السيد هذه المرة ، وشرع السيد من ذلك العصر فى إبداء فيض من النشاط لحسابه الخاص ، وبعد أن أصبح فى الحقيقة سيّدا له مطلق الحرية ، أخذ يعبث فساداً منذ ١٠٩١ فى سائر المنطقة الشرقية من أوربولة إلى شاطبة وسار نحو طرطوشة وتحدى كونت برشلونة ، وعقد معه معاهدة شخصية ، ولم يابث أمير طرطوشة المسلم ، بعد ذلك بقليل ، أن طلب حمايته مقابل ضريبة ، وصار السيد شيئاً فشيئاً ذا نراء عريض ، وسرعان ما دفع له الضريبة بالفعل جميع أمراء المسلمين الصغار الذين استطاعوا حتى ذلك الوقت أن يحتفظوا بإماراتهم فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة . وهم أمراء بنى رزين والبونت ومريطر وشرب وشارقة والمنارة .

وأخذت العداوة الجديدة بين الفونس والسيد مع ذلك فى الازدياد ، واستقر عزم ملك قشتالة على أن ينتزع من السيد بلنسية حتى يضع حداً لنفوذ تابعه القوي الذى تجاوز كل حد ، فعقد حلفاً مع أهل

بيزة وجنوة وحاصر المدينة من البر وحاصرتها الأساطيل من البحر .
 وكان السيد في تلك الأثناء مشغولا بمؤازرة ملك سرقسطة بقواته
 في حربه مع ملك أرغون المسيحي ، فلما نمت إليه ما حدث ، عزم على
 اتخاذ إجراء غاية في الشدة ، فعادر سرقسطة مع جيشه وراح ينشر
 الدمار في أراضي قشتالة نفسها وذلك في ولاية ناجرة وقلهرة ، وكانت
 من أملاك الكونت غرسية أورديث عدوه اللدود . فأتى السيد على
 مدينة لوجرونيو في لاريوغا وجعل عاليها سافلها ، ولما اتصل بالفونس
 السادس ما حدث في هذا الجزء من مملكته اضطر إلى رفع الحصار
 عن بلنسية دون أن يظهر بأى نتيجة وعاد إلى قشتالة بينما وجد السيد
 كعادته ملجأ له في مملكة سرقسطة الإسلامية . وإذا كانت المصادر
 اللاتينية والقشتالية هي المرجع الذي يمكن الوقوف منه على تتابع
 الحوادث فيما يتعلق بنشاط السيد قريبا من سنة ١٠٩٠ ، فنجد هذه
 اللحظة نرى أن الوثائق العربية هي التي تلقى أكبر الضوء على تطور
 حياة القنيطور ، سواء أكانت هذه الوثائق في صورتها الأصلية أم
 في النقول المتأخرة الواردة في المدونة التاريخية الإسبانية الأولى .

وكان السيد قد اعتاد أثناء تنقلاته العديدة أن يترك ببلنسية ممثلا
 مباشرا له هو رجل مسلم شديد الإخلاص لقضيته اسمه ابن الفرج ،
 ظل إلى جانب المقتدر ، لكن أمر المقتدر انتهى في نوفمبر سنة ١٠٩٢
 أثناء غياب السيد ، إذ قضى عليه أهل بلنسية بالموت بعد أن اشتد
 حنقهم عليه وقد أروه قهقريه بمطالبه المالية الدائمة . ووكّل أهل بلنسية مصير

مدينتهم إلى عدة أفراد من كبار مواطنيهم ، أهمهم قاضى المدينة جعفر ابن جحاف الذى لم يلبث وقد أسكرته شهوة السلطان أن راودته فكرة الظهور بمظهر الملك الحقيقى ، فدعا إلى بلنسية فرقة صغيرة من المرابطين ووكل إليها أمر حراسة المدينة من أى هجوم يمكن السيد أن يقوم به ، وكان لتوقعه ما يبرره ، ولكن العون الذى كان ينتظره من المرابطين لم يلبث أن ظهر عدم جدواه . ولم تمض على ذلك بضعة أشهر حتى زحف السيد على بلنسية بجيشه كله فى يوليو سنة ١٠٩٣ ، واستولى دون مقاومة على ربض فيلا نوبيا والكدية وهزم جيشا للمرابطين بموقعة كوارقى فى أرباض بلنسية ، وكان هذا الجيش قد أقبل من دانية ليخلص المدينة ، ثم شدد السيد الحصار على المدينة نفسها ، ومنذ ذلك الحين تحملت بلنسية أسوأ ما يمكن أن تتحملة مدينة من الحرمان ، وسرعان ما أفتت المجاعة عددا هائلا من سكانها ، واضطر القاضى ابن جحاف حاكم هذه الدويلة البلنسية وقد تعجل الحوادث ، أن يسلم المدينة إلى السيد فدخلها فى ١٥ يونيو سنة ١٠٩٤ .

ولم يسى . القنيطور قط إلى مسلى بلنسية إذ كان يعرفهم حق المعرفة من قبل ، وأعلنوا له ولائهم وذلك بخضوعهم المطلق له ، وفى المدونة الأولى للتاريخ العام أنه خطب فيهم عند استيلائه على بلنسية ، وهناك ما يدل على صحة هذه الخطبة ونحن ننقل فيما يلى بدايتها : « إنا رجل لم يكن لى مُلك قط ، ولم يكن كذلك لأحد من قومي ، ولكن منذ اليوم الذى رأيت فيه هذه المدينة ، وجستها تطيب لى ، ورغبت

فياوسألت الله أن يجعلنى سيدها ، فانظروا إلى قدرة الله .. الذى أنعم على بأن ومبنى بلنسية ، وإن حكمت بالعدل وأحسنتم تهريف الأمور فسيتركها الله لى ، أما إن تجبرت وأسات فسيستردها منى ، فليرجع كل إلى ماله ويتملكه كما كان يتملكه من قبل ، فن وجد كرمه أو جته خالصة فليعد إليه ، ومن وجد حقله مزروعا فليدفع أجر زارعه ويتملكه كما تأمر الشريعة الإسلامية ، ولا يأخذن جباة الضرائب فى المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل . وقد هيات نفسى لأسمع الشكاوى يومين من كل أسبوع هما الاثنين والخميس ولكن من كانت لديه قضية عادلة فليأت متى شاء وسأستمع إليه ، فإنى لا أحتجب عنكم ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما يفعل أولو أمركم من لم يكنكم قط رؤيتهم ، وأود أن أعالج جميع أموركم بنفسى ، وأن أكون لكم رفيقا ، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه ؛ وسأكون قاضيك ووزيركم ، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه .

وسواء أخلص السيد فى هذه الوعود أو لم يخلص فإنه لم يفقر لوجوه بلنسية ما فعلوه ، حيث دبروا مقتل القادر المشمول بحمايته ، وطرحت جته ، بعد أن حز رأسه ، فى سبحة . وكان القاضى ابن جحاف هو المسؤول الأول فى نظر السيد عن مقتل القادر ، وراح السيد يطالبه برد أموال القادر دون تأخير ، ليقيه بأنه احتجزها لنفسه واستولى عليها ؛ واستحال على القاضى أن يبرى نفسه أمام السيد

الذى كان يعده خائناً ولصاً فى آن واحد مما دعاه إلى أن يحكم عليه بالحرق حياً ، وأنزل هذا العقاب بكثير من أهل بلنسية فى شهر مايو سنة ١٠٩٥ ؛ وبما لا شك فيه أن أهل بلنسية حاولوا إضرام نيران الثورة وقتئذ ، إلا أن السيد استطاع القضاء عليها سريعاً وهى فى مهدها .

لقد رأى بعض المؤرخين فى العقاب الشديد الذى ناله ابن جحاف وغيره من كبراء بلنسية دليلاً على قسوة السيد البالغة ، هذا بما لا شك فيه ؛ لكن لا ينبغى التغاضى عن مغالاة كتب التاريخ العربى ، ونسى مع ذلك أن الشعور بالإنسانية فى ذلك الوقت لم يكن له كبير وزن فى كلا المعسكرين المتضادين بشبه جزيرة أيبيريا ، ومع ذلك فإن الرغبة فى تبرير الحكم الذى نطق به السيد ، وتبرير ما أمر به من عقاب يتنافى مع الإنسانية كما حاول أن يفعل منتديك بيدال ، مما لا سبيل إليه بطبيعة الحال .

وهكذا أصبح السيد السيد المطلق فى بلنسية لا سلطان لأحد عليه ، وكان إذ ذاك قد نيف على الخمسين ، فجعل من المدينة الإسلامية مقره العسكرى وتصرف كما يتصرف الملوك المتوجون ، ثم أراد أن يستريح بعض الشيء فدعا إليه زوجته وخيمينا وأبناءه الثلاثة الذين أنجبهم منها قبل نفيه ، أى قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً : وهم ديجو (مات عام ١٠٩٧ فى زهرة شبابه على أثر الهزيمة التى أنزلها المرابطون بجند قشتالة فى قنيسرة) وفنانان هما كريستينا وماريا ، تزوجت الأولى

بعد ذلك بأعوام الأمير راميرو دى نافارة ، وتزوجت الثانية رامون بيرنجر الثالث كونت برشلونة وكان تزويجهما يمثل الغاية التي اتهمت إليها حياة السيد الموفقة ، بل يدل على أن الآلام التي عاناها في حياته كثرت أو قلت لم يعد لها وجود منذ استبلائه على بلنسية . ولم يستطع المرابطون ، على الرغم من الاتساع الذي انتهى إليه سلطانهم في إسبانيا أن يستولوا على بلنسية ما بقى فيها السيد . وقد قضى القنيطور السنوات الأخيرة من حياته في توسيع رقعة ممتلكاته بشكل ملحوظ ، ولم يعرف الفشل لأول مرة إلا في أواخر حياته ، وقد خطب وده بعض الأمراء المسيحيين في شمال إسبانيا ، وكذلك پدرو صاحب أرغون ، واشترك معه السيد سنة ١٠٩٤ في حملة ضد المرابطين في منطقة شاطبة ، وهزم المسلمين في بايرين بالقرب من جانديا وساعد كذلك الأمير الأارغونى على إخماد ثورة اشتعلت في مقره بحصن منتورنيس .

وانصرف السيد في الوقت ذاته إلى بلنسية نفسها : فحول مسجدها الجامع إلى كاتدرائية نحمل اسم سانتا ماريا ، وعهد بإدارة أسقفية بلنسية إلى راهب فرنسى اسمه چيروم دى بيريجورد استدعاه أسقف طليطلة برناردى سيدراك إلى إسبانيا ، وفي تلك الحقبة أيضاً على وجه التقريب تقرر زواج ابنتى السيد وخيمينا ، وتم الاحتفال بزفافهما في يوم واحد حسب التقاليد ، وأحيط السيد في بلنسية بحياة ملكية اختلطت فيها البساطة القشتالية بالترف والرفقة التي تنعم بها الأعياد

التي يشاد بذكرها في الروايات الأندلسية ، وبما يتجه إليه الظن أن السيد لا بد أن يكون قد تعرّب على الأقل فيما يخص بالمظاهر الخارجية لسلطانه شأنه في ذلك شأن كثير من أمراء إسبانيا النصرانية لذلك العهد ، وعلى الأخص بدمرو الأراغوني الذي كان يوقع رسائله بالعربية ، ومن المرجح جداً أن السيد كان يتكلم العربية بطلاقة في حفلات القصر بيلنسية ، وأن الشعراء المسلمين والمسيحيين كانوا يتنافسون بين يديه ، كل بلغته ، في إنشاد أشعارهم التي يتغنون فيها بالحب العذري .

• • •

والتفاصيل الخاصة بالفترة الأخيرة من حياة السيد قليلة للغاية ، فليس لدينا من الحقائق ما يجعلنا نؤكد أن الصلح النهائي قد عقد بين الفونس السادس وتابعه السابق ، الذي أصبح في الحقيقة مستقلاً تمام الاستقلال ، وقد تلاحت النكبات التي حاقّت بجيوش قشتالة . وفي سنة ١٠٩٧ لُجّع السيد بوفاة ابنه الوحيد ديجو إذ قتل في معركة مع المرابطين ، وكان كل مهمهم منذ تلك اللحظة استرجاع بلنسية وراحوا يعدون العدة للأخذ بثأرهم وأنزلوا بالقائد ألفار هانيث في كونكة هزيمة منكرة ، وبعد ذلك بقليل أنزلوا الهزيمة على مقربة من جزيرة شقر بجيش أرسله السيد لإلهم ليثبت لهم بسالة جنده . وكانت هذه المرة الأولى التي أُنِيَ الحظ أن يتسم له فيها ، على أنه استطاع

بعد ذلك بعدة شهور أن يثار إلى حد ما ، فد أملاكه نحو الشمال واستولى على حصن سجننت القديم وحصن المنارة في مربطر . وكانت حياة السيد قد قاربت نهايتها ، فقد هذه المرض . ولم يبرأ من جراح قديمة أصابته في حروبه ومات القنيطور يوم الأحد في العاشر من شهر يوليو سنة ١٠٩٩ وهو في السادسة والخمسين فقط .

حزنت خيمينا لوفاة زوجها السيد حزنا شديدا ، على أنها رأت عملا بمشورة الحاشية التي كانت تحيط بسيد بلنسية الراحل ، ألا تترك المدينة ، بل تقوم على العكس من ذلك بتنظيم حركة المقاومة لمداومة المرابطين ، وما إن علم هؤلاء بوفاة عدوهم الأكبر حتى ضيقوا الخناق على ما كان يمتلكه السيد ، وأقرت خيمينا بعد ذلك بمدة شهور بفشل جهودها ، فبعثت جيروم دي بيريجور أسقف بلنسية يتوصل باسمها إلى ابن عمها ملك قشتالة ألفونس السادس أن يرسل إليها النجدة ، وقد وصل على عجل لكن تبين له أن الموقف لا سبيل إلى السيطرة عليه فعزم على التخلي عن المدينة وتركها بدون قتال ، فأخلفت بلنسية من كل حاميتها المسيحية من أول مايو إلى الزايع منه سنة ١١٠٢ ثم نهبت وأضرمت فيها النيران ، وفي اليوم التالي لرحيل آخر القوات القشتالية دخل مزدلى قائد المرابطين المدينة ، وأخذ يزيل عنها الحراب .

وحل أتباع القنيطور معهم عدد مغادرتهم بلنسية رفات سيدهم

الراحل ، ودفنت جثته بناء على مشورة خيمينا على بعد كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من برغش في دير سان پدرو دى كاردينيا ، وعاشت خيمينا خمسة عشر عاماً بعد وفاة زوجها ، فأوت إلى الدير الذى يضم قبر السيد ، وطلبت أن ترقد فيه رقدتها الأخيرة .

هذه هي المراحل الأساسية للحياة المضطربة التى عاشها السيد القنيطور رودريجو ديث دى فيفار ، فى أراضى الإسلام والمسيحية بإسبانيا تبدو خلال صورة مبسطة للغاية ، وبمجموع العناصر التى تكاد تكون قصصية فى حياته تهيئ السبيل أكثر من أى حياة أخرى إلى التخييلات القصصية التى لم تتجاوز الحد فى التضخم إلا بعد وفاة البطل بزهن طويل . والسيد ، كما رأيناه لم يكن مثلاً حاولوا أن يصوروه تصويراً مبالغاً فيه أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، جندياً من المرتزقة ، مجرداً من النزاهة ولا رئيس عصاة تنكر للدين والقانون ، ولا بالمغامر الذى هو أشد قسوة ووحشية من معاصريه فى إسبانيا الإسلامية أو المسيحية فى القرن الحادى عشر ؛ ولا شك أن السبب الاساسى للشعبية التى تمتع بها السيد فى حياته وبعد مماته بنوع خاص ، أنه استطاع وهو فى منفاه أن يضيف إلى تاريخ قشتالة القومى صفحات مجيدة . ولكن لم تتجسد فيه الخصال المثالية والجوهرية للفارس القشتالى فى نظر إسبانيا المسيحية وهى تتابع حركة الاسترداد ومدافعة الإسلام إلا فى عصر متأخر فى أخبار شبه الجزيرة . فقد

تجمعت حول اسمه ، على حساب بطل آخر تدين له إسبانيا المسيحية بالشيء الكثير ونعني به ألفونس السادس ، أصوات الرضى فى بلد استطاع أكثر من أى بلد آخر فى أوربا أن يقود أشد صراع فى العصور الوسطى ، فى سبيل المحافظة أو استرجاع الوحدة القومية التى لم تـم إلا فى السنوات الأخيرة للقرن الخامس عشر ^(١) بعد ثـم باهـظ من التضحيات الأليمة المفرونة أحياناً بهزات داخلية خطيرة .

(١) عرض الأستاذ منتدث بيدال فى مقاله الذى عنوانها « ألفونس السادس والتاريخ الوسطى » La Critica cidiana y la historia medieval لمأئين يتضمنهما البحث السابق . (انظر بصفة خاصة : قتالة ، التقاليد ، اللغة - صفحات ١٠١ - ١٠٣ Castilla : La tradición, el idioma تنصبّ أولهما على الدور الذى لعبه السيد فى موقعة جليخيرة . وثانيهما الموقف القاسى الذى وقضه السيد عندما حكم على القاضي ابن جحاف بحرقه حياً بعد سقوط بلنسية . وفيما يتعلق بالموضوع الأول الذى نشر عنه المؤلف عليه ج . سيرو فصلاً قصيراً فى Bulletin hispanique (جزء ٤١ سنة ١٩٣٩ صفحات ٨٧ - ٨٩) لا أعد مسلك السيد « مقبلاً » وإنما الاتهام الزائف الذى ألصق به هو الذى يستحق هذا التمت . أما الحكم على ابن جحاف فلا أزال عند رأيى فيه من أنه عمل جائر لا إنسانية فيه دون أن أتق اللوم مع ذلك على القنيطور ، خاصة إذا راعينا أن المصر لم يكن يحسب فيه للحياة فى كلاً المسكرين أى حياى . هذا إلى أن النصوص الواردة فى الصفحات القادمة تدفع للقارى أن يكون لنفسه رأياً إذا لم يكن لديه على الأقل نفس الأسباب العاطفية التى لدى مؤرخ السيد العظيم ، ونفضى به إلى أن يرفع البطل القتلى إلى الذروة بأى ثمن وفى كل مناسبة .

الفصل السابع

استيلاء السيد على بلنسية

في المصادر الاسبانية والوُصل العربي

للمدونة العامة لتاريخ إسبانيا

كان التقدير أن يظهر هذا المقال في سنة ١٩٤٠ في Bulletin Hispanique ، إلا أن المخطوطة ضاعت في المطبعة في الأشهر المحزنة من نفس السنة ؛ وقد ترجمه الأستاذ غربية جوميث إلى اللغة الإسبانية ونشر مع النص العربي في مجلة الأندلس "Al-Andalus" الجزء ١٣ سنة ١٩٤٨ صفحات ٩٧ - ١٥٦ ، تحت عنوان « استيلاء السيد على بلنسية : في المصادر الإسلامية والأصل العربي للدونة العامة لتاريخ إسبانيا » .

La toma de Valencia por el Cid; según las fuentes musulmanas y el original árabe de la Crónica general de Espana.

• • •

لابد أولاً ، للتيسير على القارى ، من إيراد بعض الملحوظات الجوهرية عن المصادر العربية لتاريخ السيد بنفس الصورة المجملية التي عرضنا فيها المراحل الأساسية لحياة بطل تهمالة .

إن من لديه أدنى إلمام بمصنفات التاريخ الأندلسى التى تعرض لأخبار شبه الجزيرة فى القرن الحادى عشر يعرف الحيز الضيق الذى تشغله أبرز الحوادث فى ملحمة السيد بالنسبة للإسلام ، وإذا كان النشاط الذى تعاطاه ألفونس السادس فى مدافعة الإسلام موضوعاً لأخبار مفصلة أفاض فيها المؤرخون العرب فإن نشاط السيد قد أجمل

القول فيه هؤلاء المؤرخون واقتصر على اشارات يسيرة جداً ،
وعبد الله الزيرى ملك غرناطة يجعل في مذكراته ، من فاتح طليطلة
Imperator Tolitanus الشخصية المركبة تقريباً لروايته ، لجهود
ألفونس وصلابته التي أحبط بها محاولات المسلمين ليلسوا منه
العاصمة القوطية القديمة التي استردتها المسيحية بفضلها ، وإدراكه لدوره
كمحرر للبلاد وبطل للاسترداد ، كل ذلك يسطره مؤلف هذه الوثيقة
الثمينة ، في وضوح يدعو إلى الدهشة ، أما السيد فلا يظفر بشيء من
هذا ، وهو عندما يذكر في كتب التاريخ العربية في نهاية عصر ملوك
الطوائف وبداية عصر المرابطين ، لا يمدو أن يكون ذكره مقصوراً
على صورة جزئية دون التفصيل الشديد ، ذلك ما نجده على الأقل
في الكتب التي كانت حتى يومنا هذا في متناول أيدي المؤرخين
المحدثين لتاريخ إسبانيا في العصور الوسطى .

على أن هذه الوثائق العربية الضئيلة في تاريخ القنيطور قد
استغلت على أكمل وجه ، وقد جمعها العالم الهولندي ر. دوزى لأول
مرة وطبها مع ترجمتها في كتاب منذ سنة ١٨٤٩^(١) . ثم تناولها
الأستاذ منتدث بيدال واستعان بها بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً

(١) ينبغي أن يرجع في دراسة دوزى وعنوانها « السيد من وثائق جديدة »
Le Cid de nouveaux documents إلى المودة النهائية لها في الجزء الثاني
من الطبعة الثالثة لكتابه Recherches sur l'histoire et la littérature
de l'Espagne pendant le moyen âge — لندن ، ١٨٨١ .

في كتابه الرائع « إسبانيا في عصر السيد ، Espana del Cid على وجه الاستيعاب . وقائمة هذه المصادر ليست طويلة ، فهي لا تعدو بضع صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وقطعة من تاريخ ابن كردبوس ثم طائفة من الأخبار المنبثة في كتب التراجم الأندلسية ، يضاف إلى ذلك أن منتدث بيدال استطاع أن ينفذ في كتابه بعبارة موجزة من كتاب مؤلف مجهول ، سكنت قد أوقفته على نصها مع الترجمة في ذلك الوقت (١) .

على أي حال كان كل هذا قليلاً جداً لا يمكن من إعادة وضع تاريخ السيد في صورة مفصلة تفصيلاً كافياً ، وقت أن حاصر بلفسية ثم دانت له إلى أن توفي سنة ١٠٩٩ . وبإزاء هذا الفقر في المصادر العربية المعروفة نرى أن ما كتب عن السيد باللاتينية والفشتالية بنوع خاص يمدنا بالوسيلة التي تمكنتنا من سد هذا النقص ، في الحدود التي يستطيع فيها تجريد ما كتب من العناصر المشكوك فيها ، وغالباً ما تكون من أصل شعري ، دخلت كتب التاريخ منذ اللحظة التي صار فيها السيد

(١) انظر « إسبانيا في عهد السيد » ج ٢ صفحات ٧٩٦ - ٧٩٨ . النص اقلى أورده منتدث بيدال قام بترجمته زميلي ومديقي إميليو غرسية جوميث . وقد ترجمت هذه القطعة بعينها في طبعة الجديدة لكتاب « تاريخ المسلمين في إسبانيا » لدوزي ، لندن ١٩٣٢ ، الجزء الثالث صفحات ٢٢٧ - ٢٢٩ . والنص العربي اقلى أورده في « ذيل ١ » موجود في الجزء الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن حذارى نصر لبني يروفسال ، باريس ١٩٣٠ صفحات ٣٠٥ - ٣٠٦ .

شخصية أسطورية ، ثم هي تمكنتنا من تمييز الحقيقة عن الخيال على وجه معقول .

وأهم أثرين لهذا الأدب المكتوب عن السيد - وهل نحن في حاجة إلى أن نذكر ذلك ؟ - الملحمة الشعرية "Mio Cid" ثم المدونة العامة لتاريخ إسبانيا ، ، وقد وصلت إلينا في نسخ شتى أهمها النسخة التي اصطلح على عنوانها باسم *Primera Crónica general* ^(١) ، كُتبت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في عهد ألفونس العاشر العالم ، والجزء الأخير منها يختص بحياة السيد ؛ والرواية المتعلقة بحصار بلنسية واستيلائها كُتبت قسماً عليها ينقسم في صفحاتها كلها ، بالتفصيل في سرد الحقائق والدقة في وصف البيئة الإسلامية لعاصمة شرق الأندلس في تلك الحقبة . وهذه الخصائص مما يتميز به هذا الجزء تميزاً يظهر لأول وهلة بحيث يختلف عن الجزء الباقي من الوثيقة ، وينصب على نشاط القنيطور في الأراضي المسيحية ومنازعاته الطويلة مع ملوكه .

وقد انضج منذ زمن طويل - والفضل في ذلك يرجع إلى دوزي -

(١) نستخدم هنا الطبعة التي نشرها في مدريد سنة ١٩٠٦ متتدث ببدال في سلسلة:

La Nueva Biblioteca de Autores españoles

ومى المروفة بالمدونة الأولى لتاريخ العام *Primera Cronica General, Osea, Estoria de Espana* que mando componer Alfonso el Sabio y se continuaba bajo Sancho IV, en 1289, tomo I, texto أى تاريخ إسبانيا الذى أمر بتأليفه ألفونسو العالم واحترق في عهد سانشو الرابع سنة ١٢٨٥ .

أن هذه الرواية الطويلة الواردة في النسخ المختلفة لمدونة التاريخ العام نقلت مباشرة من تأليف تاريخي لمؤلف مسلم من أهل بلنسية ، كتبه في بلنسية بالذات في عصر عادت فيه هذه المدينة بصفة مؤقتة إلى المسيحية ، وصلة القربى بين هذا الأصل العربي وبين المدونة الأولى للتاريخ العام تنجلي في فقرة وردت في أكثر موضع من المدونة هذا نصها " E diz Abenalfarax en su aravigo, onde esta estoria fué sacada..." (١) .

وحتى لو لم تكن هذه العبارة واردة لأمكن الاستدلال مباشرة على وجود عبارات عربية التركيب في المدونة كان دوزي أول من دل عليها (٢)، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه الرعاية ، بل بما لاشك فيه أنه قليل الدراية بالتراكيب والتعبيرات التي كان يتوخاها المسلمون في إسبانيا

وابن الفرج الذي ورد ذكره في المدونة ، باعتباره مصنفاً لكتاب التاريخ الذي نقلت عنه المدونة ، لا ذكر له في كتب التراجم الأندلسية ، ولكن يحتمل جداً أن هذا الاسم الذي ورد بصور مختلفة (٣) في

(١) Prim. Cron. Gen من ٥٧٨ ، ١ - ٢ (578 b, I. 30)

وانظر Esp. del Cid ج ٢ من ٨٩٦ حاشية ١ .

(٢) Rech. الطبعة الثالثة من ٣٦ - ٤٠ ج ٢ .

(٣) Esp. del Cid ج ٢ صفحة ٨٩٦ : Abenfarax, Apenfax

Abenalfange.

المخطوطات القشتالية مشكوك في أمره ^(١) . نعم ، من المعروف أن مؤلفاً آخر اسمه ابن علقمة قد صنف كتاباً عن سقوط بلنسية في نفس هذا العصر ، كما نبه على ذلك المؤرخون العرب أنفسهم ، ويتضمن هذا صراحة أن ابن الفرّج Abenalfarex المذكور في المدونة العامة إنما هو ابن علقمة ، وقد كان هذا رأى دوزى ، وإليه أيضاً يذهب منندث بيدال حيث يقول ^(٢) : « ومثار هذا الظن جلي لنا ، فمن المستبعد وجود مصنفين يقتصران بالذات على موضوع تغلب السيد على بلنسية » . ولانعدم أخباراً عن ابن علقمة هذا ، فقد ترجم له ابن الأبار ^(٣) وابن عبد الملك المراكشي ^(٤) ، وهو ، على ما ذكرنا ، من أسرة عربية الأصل ، اسمه محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدي ، يعرف بابن علقمة ، ويكنى أبا عبد الله ، مولده سنة ٤٢٨ هـ ^(٥) ، وتوفي سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦) ، لم يكن بالبرز في الكتابة ، وإنما كان قاصراً في نظمه ونثره

(١) وقع أيضاً بس بين هذا الاسم واسم وزير كان السيد ورده في المدونة العامة كما لاحظ ذلك منندث بيدال (انظر المرجع السابق) .

(٢) Esp. del Cid ، المصدر المذكور .

(٣) تكملة العدة ، نعر كدبرة ، الجزء الخامس من المكتبة العربية الإسبانية ، مدريد سنة ١٨٨٧ ترجمة رقم ٥١٤ ص ١٤٦ .

(٤) نقلا عن دوزى في Rech. ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ و XXXIX—XXXIV وانظر أيضاً بونس بويجس Pons Boigues في كتابه Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y gioprafos arábigo-espanoles .

مدريد ١٨٩٨ رقم ١٤٠ ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥) في الأصل الفرنسي سنة ٣٢٨ والذى أثبتناه من ابن الأبار . انظر التكملة ،

ترجمة رقم ٥١٤ .

واتحل الكتابة في أحد الدواوين بشرق الأندلس ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له ، تاريخه في تغلب السيد على بلنسية قبل الخمسةة ، سماه « بالبيان الواضح في الملم الفادح » ، وقد قال ابن عبد الملك عنه إنه عنوان يلزم . وثله بعهد لم يف به . ومنه نستنتج أن كتابه كان مضطرباً في نظامه رديئاً في طريقة عرضه .

فمن المحقق إذن أن المؤرخين المتأخرين عرفوا تأليف ابن علقمة ^(١) ، ونقلوا عنه ، على الطريقة الشائعة في التأليف التاريخي أى بإيراد عبارات منه مع ذكر الإسناد أو عدم ذكره ، وفي العبارة القصيرة التي كنت قد أطلعت عليها منذت بيدال قبل أن ينشر كتابه « إسبانيا في عهد السيد » ذكر لهذا التاريخ بوضوح ليس بعده ووضوح وفيها نطالع : « وقد ألف ابن علقمة كتاباً في أمرها (أى بلنسية) وحصارها يسكى القارى ويذهل العاقل » ^(٢) وظاهر أن هذا النص ذاته وقد تضمن عبارة منقولة عن تأليف ابن علقمة ، إنما أخذ عن ابن علقمة المعنى الذي ذهب إليه في شرح لفظه Campeador كما أشرنا إليه آنفاً . وما يجدر ذكره أن منذت بيدال ^(٣) لم يقبل

(١) ذكر حاجى خليفة تاريخ ابن علقمة في « كشف الظنون » (طبعة فلوجل Flügel ج ٢ ص ١٢١) كما ذكره أيضاً ابن الخطيب ضمن المصنفات التاريخية المفردة بيده مخصوص في مقدمة كتابه « الإحاطة » (انظر طبعة القاهرة سنة ١٢١٩ هـ ج ١ ص ٦)

(٢) انظر دوزى Hist. Mus. Esp. الطبعة الثانية ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) انظر Bulletin hispanique لـ Le Vrai Cid : G. Girod ج ٤١ =

تفسير القنيطور بصاحب الفحص Dominus Campi لمسافيه من
تقييع ، ولكنى ، اعتباراً لأصله ، لا أزال أعزو إليه قيمة أعلى من
قيمة كل معنى آخر ذهب إليه الباحثون ، على ضوء حجج أدبية بحثة ،
فى شأن هذا اللقب الذى أضفى على الكونت رودريجو دياث وكان
شائعاً جداً بين المسلمين لعهد .

لم يتردد منذت بيدال معتمدا على صلة القرابة بين بعض المدونات
القشتالية وبين تاريخ عربى عن السيد ، أن يعزو إلى ابن علقمة هذا
جميع ما ورد فى المدونة العامة Crónica general من أخبار نرى فيها
القنيطور لذلك العهد يباشر نشاطه فى شرق الأندلس ، فإليه تشير
حواشى الجزء الثانى من كتاب إسبانيا فى عهد السيد ، باطراد مع
التنبيه على الروايات المطابقة لذلك فى اللغة الإسبانية ؛ أما كيف يبرر
أورخ الكبير ذلك فى نهاية كتابه مع بعض التحفظ بعد محارلته إعادة
تأليف الرواية الأصلية لان علقمة فأليك بيانه : « إن إنشاء محتويات
كتاب ابن علقمة من جديد عمل دونه عقبات حمة وتحيط به شكوك

== سنة ١٩٢٩ ص ٨٦ - ٨٩ ، و quelques notes encore sur le Cid (المرجع السابق ص ١٨٠) . « إنى أذهب إلى ما ذهب إليه الأسوف عليه سبرو فيا
كتب إلى من أنه ولم لبس فى تفسير القنيطور وهى لفظة قشتالية لم يلتمس الباحثون
منها فى ذاتها ولكنهم عمدوا إلى الاستماعة بما يقابلها فى اللاتينية مثل campidoctor
و campidoctus وليس هناك ما يثنى رغم استعمالها فى Historia Rodrici
و le Carmen Campidoctoris أن هاجن الكامتين - وقد وردت أولاما
فى Végèce - قد اخترتا بالذات اعتباطا بسبب تقاربهما الصوتى للدلالة على اصطلاح
شعبى يقابله فى اللاتينية Campeator .

كثيرة، وقد نسبنا إلى هذا المؤرخ ما كان ذا طابع إسلامي من الأخبار التي نجدتها في المدونات القشتالية عن بلنسية ولكن هذه الطريقة غير مأمونة الجانب، وسيفض العثور على النص الأصلي لتاريخ ابن علقمة، وسيأتي اليوم الذي يتم فيه ذلك، إلى تصويبات لما أنشأناه من جديد، كما أنه سيكشف فيما يتعلق بتاريخ السيد عن أشياء جديدة وتفاصيل لا شك في قيمتها لا سيما ما كان متعلقاً بالحقبة التي بدايتها سنة ١٠٩٥ ونهايتها سنة ١٠٩٩، على أن هذا لن يغير، فيما أرى، جوهر الخطوط العامة لسلطان السيد في بلنسية على نحو ما بيناه إلا تغييراً طفيفاً،^(١).

وقد مضى ما يقرب من عشرين عاماً على ما خطه قلم العالم الإسباني دون أن تتحقق أميته، ولا أشاركه الأمل في العثور يوماً ما على النص العربي الأصلي لتاريخ ابن علقمة، ذلك أن كتب التاريخ المخصوصة بمدن بعضها، أقل انتشاراً في العالم الإسلامي من التواليف الجامعة التي تتضمن أخبار الدول أو التاريخ العام. ولا يصدق هذا فيما نعلم، على تاريخ بلنسية وحدها بل يصدق على سائر التواليف المخصوصة بالمدن الأندلسية الأخرى التي لها شأن يذكر. فالنسخ التي كانت تكتب من هذه المصنفات القاصرة على بلد واحد أو على إقليم بعينه كانت بالضرورة أقل عدداً من نسخ الكتب المسببة، ومن هنا كان العثور

(١) Esp. del Cid ج ٢ ص ٩٠١ - ويضيف منتدث بيدال في طبعة ١٩٤٧ (ص ٨٩٢) ما يلي: «إن العبارتين الواردتين في بيان ابن هذاري وأعمال الأعلام لابن الخطيب - وقد أوقف عليهما ليني بروفسال - لم تغيرا شيئاً مما فُردت، بل على العكس فيها تأكيداً وتوكيداً».

على أحدها أمراً قلنا يتحقق ، ولكن هذا لم يكن كذلك قطعاً في العصور الوسطى ، فإن هذه التواليف الصغيرة كانت مرجعاً مباشراً في الغالب لذلك العهد ، وخاصة في القرن الرابع عشر الذي ازدهر فيه التأليف التاريخي في المغرب الإسلامي ، على أنه ليس هناك ما يمنع ، وقد فقد نص ابن علقمة ذاته ، من احتمال أن يكون أحد المؤرخين في تلك الحقبة ، وكان مدار الأمر فيها على تصنيف وجمع المؤلفات السابقة ، قد نقل قطعة كبيرة منه تشتمل على جوهره .

وللسان الدين بن الخطيب السياسي الأدب تأليف في تاريخ أسبانيا الإسلامية كتبه قريباً من سنة ١٣٧٤ وهو الموسوم ، بأعمال الأعلام ، نشرته في ١٩٣٤^(١) ، أورد فيه عبارة مطولة عن عمل السيد في بلنسية في نهاية القرن الرابع عشر^(٢) ، غفل عنها دوزي في أبحاثه ، ولم يكن يعرفها منذئذ بيدال قبل أن أطلعه عليها ، وفي مدريد نسخة رديئة جداً من هذا الكتاب^(٣) ، والإشارات الواردة في هذه العبارة عن القنيطور تتفق في الأغلب والأعم مع الحقائق التي تنضمها المصادر المسيحية وخاصة المدونة العامة ، ولكنها غير معزوة إلى ابن علقمة . وكان يمكن ، اعتماداً على الثقة ، أن نعتبرها أصلية لولا أننا نعلم أن ابن الخطيب اقتصر غالباً في هذا التاريخ على نقل ماورد في

(١) كتاب « أعمال الأعلام » طبعة الرباط سنة ١٩٣٤ .

(٢) وردت هذه العبارة في صفحات ٣٠٥-٣٠٦ من نصري لهذا الكتاب ، وقد

علمناها في ذيل « ب » .

(٣) مخطوط رقم ٣٧ بالقسم العربي من مخطوطات المجمع العلمي بباريس .

(م ١٤ — دراسات في الغرب والأندلس)

مصنف آخر أقدم عهداً كتبه ابن عذارى المراكشي في سنة ١٣٠٦
عنوانه «البيان المغرب» ، نقلًا حرفياً دون أن يحشم نفسه عن ذكر
المصدر الذي أخذ منه . وللأسف أن يذهب إلى أن ما في هذا الكتاب
من أخبار مسبوقة عن السيد وتغلبه على بلنسية إنما استقاه المصنف من
تاريخ ابن علقمة ، ولدينا اليوم نص ابن عذارى كاملاً تقريباً .
ومعروف أن دوزي نشر جزءاً كبيراً منه في ليدن عام ١٨٤٨ -
١٨٥١^(١) ، واستطعت في عام ١٩٣٠ أن أنشر جزءاً آخر منه من
مخطوطة في مكتبة خاصة بمدينة فاس^(٢) .

وبعد ذلك بأربع سنوات وفقت إلى العثور على جزء يتضمن
قطعة لم تنشر في تاريخ دولة المرابطين في مراكش وأشبانيا وجدته
ضمن أوراق مشوهة ، في محفوظات مكتبة المسجد الجامع بهذه المدينة
نفسها^(٣) . وكان هذا الجزء مضطرباً في ترتيب أوراقه ، فيه سقط
كثير ، وقد تمسكنا بفضل هذا الجزء من ضبط كثير من الوقائع الهامة

(١) بعنوان تاريخ إفريقيا وأشبانيا الموسوم بالبيان المغرب وقد ترجمه فانيات
بعد ذلك إلى الفرنسية (الجزائر سنة ١٩٠١ - ١٩٠٤) وقد نشر الجزء الأول
والثاني من البيان على ضوء مخطوطة جديدة بنيت لبني بروفنسال وج. كولان بليدن
(مطبعة بريل) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ (باريس ١٩٣٠) وهو يتناول تاريخ إشبانيا الإسلامية
في القرن الحادي عشر .

(٣) فيما يتعلق بهذا الكشف انظر مقال :

Observations sur le texte du tome III du Bayan d'Ibn
Idāri في Mélanges Gaudéfoy-Demombynes, le Caire, 1935-1945
ص ٢٤١ وما يليها .

في تاريخ القرن الحادى عشر الأسباني ، من ذلك تحقيق شخصية زائدة المسلة، الشهيرة التي بنى بها ألفونس السادس في سنة ١٠٩١ أو ١٠٩٢ دون زواج شرعى وثبت أنها كنة المعتمد بن عباد ملك إشبيلية .

ومن هذا الجزء الخاص بالمرابطين في كتاب البيان صفحات كثيرة تحتوي ، كما كنت أنتظر ، على أخبار مسربة في حصار بلنسية واستيلاء القنيطور عليها ، وخير من ذلك أن نص هذه الأخبار منسوب إلى المؤرخ ابن علقمة ، ولكن القطعة لسوء الحظ مبتورة لوجود سقط كبير في المخطوطة ، ولما كنت أظن أن قائمة المجموعات الجديدة بمكتبة فاس تتبع لى في مستقبل قريب اكتشاف التكملة فقد فضلت أن أنتظر إلى أن نعر على التتمة لكي أتنفع بالوثيقة الجديدة ، وقد تحقق هذا الظن منذ عدة سنوات : إذ بينما كنت أقيم في عاصمة مراکش الشمالية عام ١٩٢٩ سرنى أنى اهتديت إلى نص تنضمه الأوراق الجديدة التي تلى ما كنت قد اطلعت عليه سابقاً ؛ وفي هذه التكملة لما نسب إلى ابن علقمة لم أجد أى صعوبة في العثور على العبارة التي ذكرها ابن الخطيب عن السيد وهي التي أنارت اهتمامي^(١) .

وكننت قد حادثت الأستاذ مهندس بيدال قبل هذا الاكتشاف بشهور في خلوته العلمية بباريس عن الوثيقة الجديدة التي لدى وعن الأسباب التي تدفعني إلى الأمل دون شك في سرعة اكتمالها . وقد

(١) تشمل نفس القطعة من كتاب البيان على ذكر استرداد القائد المرابط مزعل بلنسية في سنة ١١٠٢ (١١٩٥ هـ) .

أعطيته النص المنسوب إلى ابن علقمة مع ترجمته الفرنسية حتى يستطيع أن يفيد منه في الطبعة الجديدة لكتابه : «إسبانيا في عهد السيد» ؛ وفي ٢٤ يناير سنة ١٩٣٩ تفضل فكتب إلى ما يلي : «إن القطعة الجديدة من البيان المغرب عظمة الأهمية ، وقد اتضح لي أن القطعة التي تضمنتها المدونة العامة وكنت أعتقد أنها من القصص الشعبي البحت إنما هي ترجمة لنص ابن علقمة أدخلت في سياق الشعر ، . وفي هذا الحكم من أستاذ لا ينازع في الدراسات الخاصة بالسيد ما يسوغ ، إن اقتضى الأمر تسويغاً ، نشر الترجمة الفرنسية لهذا المصدر الجديد لتاريخ القنيطور . أما النص العربي لها فسأورده حسب مكانه التاريخي في كتاب ، وثائق جديدة عن تاريخ المرابطين ، الذي أعده الآن للطبع .

ولا يفوتنا ونحن نقرأ هذا النص تقرير أن الحقائق التاريخية التي وردت في البيان المغرب لا تبطل ما تقرر حتى هذه اللحظة من تاريخ الحقبة التالية للحوادث التي أفضت في سنة ١٠٩٤ إلى تغلب السيد على بلنسية ، بل إنها على العكس من ذلك ، تزيد من إيضاح ما استبهم ، بحيث لو وقف عليها الأستاذ منذئذ بيدال حين أصدر الطبعة الأولى من كتابه «إسبانيا في عهد السيد» ، لو فر على نفسه عناة الفروض التي لجأ إليها في تاريخ بعض الوقائع بما لا دليل على ثبوته . وبجمل القول أن الوثيقة الجديدة التي سنقدمها بعد قليل أثبت ما كان يظنه العالم الإسباني ، كما أن ما تقتضيه هذه الوثيقة من تصويب لا يغير في شيء الخطوط

الكبرى للاطار الذى رسمه مستعيناً بالمصادر المسيحية بنوع خاص عن نشاط السيد فى فلسفية أثناء الحقبة الأخيرة من حياته .

• • •

كتب ابن عذارى الفصل الذى نحن بصدده من البيان المغرب . وقد سلك فيه سبيله الذى التزمه فى سائر مصنفه ، وجرى عليه جمهور المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى ، بأن سرد سلسلة الحوادث فى ترتيبها الزمنى ويرد ذلك فيما يظهر بذكر هذه الحوادث نفسها مع عرضها فى صورة أخرى ، وقد يورد روايات أخرى فى صميم الموضوع ، وكثيراً ما يكرر الفكرة على نحو يدهش له القارئ الذى لا علم له . وهذه الطريقة الكلاسيكية للتأريخ العربى تعصم المؤرخ من التحيز لفريق عند ما يجد نفسه بإزاء روايتين مختلفتين لحقيقة تاريخية واحدة ، ويدع للقارئ تكوين الرأى الذى يرى أنه أكثر اتفاقاً مع الحقيقة . فلا عجب إذن أن نرى جزءاً من الأخبار التى سنعرضها ترد مرتين فى نص البيان ، على أن هذا الازدواج يوحى بأن المصنف كان لديه ، عند تدوين هذا الفصل ، مصدران كلاهما مستقل عن الآخر : أحدهما لا ينبه عليه بل إنه غير معروف . وسيظل كذلك حتى يظهر مايدل عليه ، والآخر وقد ذكره ونقل عنه فى موضعين وهو تاريخ ابن علقمة الذى اتخذ مصدراً ، للدونة العامة .

ومن الأخير ألا نفصل قط فى الصفحات التالية عبارتى ابن علقمة عن النص الذى يطابقه فى المدونة الأولى للتأريخ العام ، وهو منقول

نقلاً حرفياً . وسيتبين من مقابلة النص القشتالى بالنص العربى صحة ماذهب إليه دوزى منذ قرن من الزمان متوسلاً بحجج لغوية من صلة القربى القائمة بينهما ، كما أن هذه المعارضة ستتيح أيضاً أن نحكم ، من زلات وقع فيها المترجم المكلف بالنقل ، على لغة ابن علقمة التى لا جدال فى أنه يعروها غموض واضطراب ، وليس من المستبعد أن يكون هناك إلى جانب هاتين العبارتين عبارات أخرى من الفصل الوارد فى « البيان » ، ولا مقابل لها فى « المدونة العامة » ، قد نقلت أيضاً عن تاريخ ابن علقمة رأساً . من ذلك الأخبار الواردة فى شأن العقاب الذى أنزل بآب جحاف قاضى بالمنسية الذى قضى السيد بحرقه ، فالظاهر أن ابن عذارى قد نقلها حرفياً من نفس المصدر ، ومن هنا ندرك أن هذه الأخبار التى تتضمن التشنيع على القنيطور لقسوته قد حذفت عمداً من الرواية القشتالية . ولا نشك فى أن مثل ذلك قد حدث فى جميع ما ذكره ابن علقمة حيث شنع هذا المؤرخ المسلم على عدو دينه ، ولا يستبعد أيضاً أن يكون كتاب المدونات القشتالية فى القرن الثالث عشر نظروا فى المراجع العربية التى لديهم عن السيد فحذفوا منها بعض الحقائق التى تنقص من قدر البطل أو خففوا كثيراً من حدة لهجتها على أقل تقدير .

وأخيراً سنتيح مقابلة النصين العربى والقشتالى لإثبات أنه حيثما لا غبار على تصرف السيد ، تكون الأخبار الواردة فى المدونة الأولى للتاريخ العام أكثر إسهاباً ، على ما يبدو ، مما فى أصل ابن علقمة . ويمكن

تفسير هذا الشذوذ على وجه الدقة بافتراضنا أن المصنف الإسباني لهذه النصوص قد أسهب من تلقاء نفسه في النص الموجود في الأصل العربي ، على أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال ، وخير منه ، فيما يبدو أن نلتزم تبرير الاختلاف في القدر الذي تشتمل عليه كلتا الوثيقتين بأن المنقول في كتاب عربي لا يؤلف بالضرورة النص كله ، إذ أن الناقل مع احترامه حرفية العبارات التي ينقلها بنصها يجتزئ عبارات قد تطول جداً دون أن يترتب على ذلك في الغالب انقطاع في تسلسل الفكرة المبسوط . وقد كان هذا ، بلا شك ، شأن النقول التي أوردها ابن عذاري في بيانه وأخذها من تاريخ ابن علقمة ، وليس هناك ما يمنع من الظن أنها اقتضبت على هذا الوجه .

وكان الطاغية لذريق النصراني ، الملقب بالكبيطور قد أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوره عليها ، يجبر رعيته ويستغلها حاضرة وبادية . وقد استضعف حفيد ابن ذى النون ، ملكها المشعوم ، وكان اجتلبه ليُحترم به ؛ فرمى بسهمه إلى نحره ، فغله اللعين وبقي حتى أراد الله بما أراد من حقه . وكان أيضاً صاحب سرقسطة ابن هوديمير لذريق وأصحابه النصاري ، ويعضده بالسلفة ، ويوجه المغيرة بمئة ويسرة ، فكان ما يأتي به الذكر . قال محمد بن علقمة : وفي شعبان العام (٤٨٥هـ / ٦ سبتمبر — ٤ أكتوبر سنة ١٠٩٢) انتقل الكبيطور إلى سرقسطة ، واستخلف على أطعمته المحتزنة وضرائبه المفترضة بلنسية ، فنفس بونق أهاها ، وانفرجت الضيقة عنها .

نورة القاضي ابن جحاف بيلنسية

ولما ظهر ابن عائشة بمرسية ، وتوالى ظفـره بها وبذوائها ، وقع الإصفاق من القاضي أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف ، وصاحب الأحكام ابن واجب ، وأهل العقـد والحل من أهل بـلنسية ، على استدعاء محمد بن عائشة : «أنفذ إليهم لمئة من المـرابطين تحت نظر ابن نصر ، واتصل النظر بمن بيلنسية ، فنظر أحياء سلطانهم ابن ذى النون فى إنفاذ عيالهم وذخائرهم وأموالهم إلى المعاقـل والقلاع ، وأخرج حفيد ابن ذى النون بعض عياله إلى ابن ياسين قائده على حسن شرب ، وإلى ابن حـديدة بحـصن العقاب ، وفر على وجهه من فيها من الروم من رجال لـذريق . وخرج القاضى والفقهاء لتلقى ابن نصر ، رسول ابن عائشة وإدخاله البلد . وفر القادر عن البلد إلى دار هـجينة ، ففحص ابن جحاف عنه إلى أن ظفر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان (٢٨ أكتوبر ١٠٩٢) .

مقتل القادر هـفيد ابن ذى النور

لما حصل بيد ابن جحاف ، أمر بقتله ، فتولى ذلك قتي من بنى الحديدى زعيم طليطلة ، فقتله بيده كفعله بوليه أبى بكر بن الحديدى ، وحمل رأسه على عصى يطاف به الأسواق والسكك . واحتوى ابن جحاف على ما كان معه ، وطرح جثته فى سـبخة ، فواراه رجل من التجار : اجـتاز به على باب مغطى بحـصير خلق ، ودفنه دون كفن .

وتبوءاً ابن جحاف تبوء الرياسة ، ورتب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء ، وأظهر أهبة الملك ، وطمع بصره إلى قضية القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد . فاحسن النظر ، ولا ساعده القدر فكان يجلس مكتئفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء ، والغلبة أمامه ، ويركب في مقدمه العبيد والطرود ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء .

وكتب لذريق الكبيطور إلى ابن جحاف المذكور يهيم على تلك الأمور ، وي... بالحسنة التي اكتسبها في رمضانه بقتل سلطانه ، ويطلب منه أطعمته المخزنة عنده ببلنسية . فراجع الكبيطور ، يقسم بمغلفات الأيمان ألا يبرح من بلنسية حتى يظفر به ، وبأخذ ثأر ابن ذى النون منه ، وأنفذ إلى الحصون المجاورة يستمد الأقوات فأمدته من اتقى شره ، وأقبلت الميرة إلى محله ؛ واتصل الضرب منها إلى بلنسية ، فأضر بها ، وقتل من ظفر به من أهلها . وكان معه جملة من رجال ابن ذى النون .

وفي خلال ذلك ، ألحق ابن جحاف من الجند عدداً ، وأنفذ إليه ابن عائشة بعد ذلك المدد مدداً ، واجتمع له ببلنسية زهاء ثلاثمائة فارس ، وابن جحاف يزداد غلظة وحجبة ، وجيش الروم يراوهم ويفادهم ، والحرب تدور عليهم . فمنهم القتلى والجرحى . وأمل الكبيطور إزعاج المرابطين من بلنسية ، وكان ابن جحاف أيضاً قد استنقلهم ، لكنه يستعملهم ، واستشعروا ذلك منه . وداخل الكبيطور ابن جحاف في إخراجهم واستبداده بالملك لنفسه لبقية معه مقام ابن ذى النون ، يحمي حوزته ، ويقاقل عنه ، فطمع في ذلك .

وفي سنة ٤٨٦ هـ (أول فبراير ١٠٩٣ - ٢٠ يناير سنة ١٠٩٤) ،

عظمُ بلاء الطاغية على بلنسية ، واشتد حالهم ، وعظمُ أمرهم .
فاستصرخوا أمير المسلمين يوسف ، وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم .
فجسد في أمرهم ، وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم .
فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة ، واتصل النبا بالعدو ، فما برح ،
ولا تزحزح . فوصلت الجيوش ومعها من المطوعة خلق كثير خيلا
ورجلا ، فاستقبلت بلنسية سيرا حديثاً حتى أشرفت عليها ، واستشرف
أهلها عليهم ، واستبشروا بنصرهم والانتقام من عدوهم ، واستنشقوا
ريح الحياة . وخرج العدو إلى طرف محلته ؛ فعبأ الجيش فرقتين وأمر
كل فرقة ، فلزمت مصافها . وأوقع الله لما قضاه في قلوب المسلمين
النكول عنهم ؛ فرجموا عودهم فبهت أهل المدينة ، وسقط في أيديهم
وبنسوا من الحياة . واستأسد العدو ، واشتد كلبه ، وأقام يحبي الرعية
ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول إلى المدينة ، ويبعث في فلّ الفارث عنها ،
ومن تحرك من قريته ، أو شعر بحركته ، يستبعد أهله وولده . فلم يقدم
أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول . ولما صدرت جيوش
المسلمين إلى شاطبة ؛ بادر الأمير أبو بكر بن إبراهيم لإعلام أمير المسلمين .
وفي سنة ٤٨٧ هـ (٢٢ يناير سنة ١٠٩٤ - ١٠ يناير سنة ١٩٠٥)
لما انصرف جيش الأمير أبي بكر بن إبراهيم اللتوني بحكم القدر
السابق عن بلنسية ؛ أيقن من فيها بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ،
وضاقت النفوس ؛ وزاد حقد العدو ، وقسا قلبه . وهلك أكثر الناس
جوعاً ، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر إلى المحلة فقتت

عيناه ، أو قطعت يده ، أو دقت ساقاه ، أو قتل . فرضى الناس بالموت فى المدينة ، وزادت هذه الازمة على أزمة طليطلة أضعافاً لإفساح مدة الحصار . وتضاعف حقد العدو اصبرهم وطلبهم النصرة .

ذكر تغلب العدو على بلنسية فى هذه السنة

لما بلغ بأهل بلنسية الماء الزبياً ، و انتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ولا نصر ولا غوث ، ألتأثم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمعوا إلى قاضهم أبى المطرّف ابن جحّاف ، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور - لعنه الله ١ - من توسط لهم معه أخذ الأمان . فأجاب فى هذا الشأن ، وعقد نيته على الختر ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج إليه القاضى ، وعقد عليه العقود ، وأخذ الموائيق والعهود ، وحزم فى كل ذلك ، وبلغ الغاية التى ما بعدها غاية ؛ ولا ورامها لمجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر ؛ فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بحملته ، وذلك فى جمادى الأولى من هذه السنة (١٩ مايو - ١٧ يونيو ١٠٩٤) فلم يعمل هو وأصحابه - لعنهم الله - ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال ، فانشطت الأنفس من عقاب ، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس . وهو مع ذلك يراعى أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة ، وحصل - لعنه الله - على هذه الحضرة ، ورعى على ما هى عليه من النعمة والنصرة والحسن والبهجة .

واشتد جزع المسلمين بدانية وما اتصل بها من ذلك الصقع من
 القلاع والقواعد ، وكثر شر الغارات من بلنسية عليها ، وتوالى الضرب
 وعظم الضرر ، وانقطعت السبالة ، وخافت الطرق ، وصار أهل تلك
 الجهات في أضيق من العزق ، وقد حمت الفتنة . فخطب الناس أمير
 المسلمين مستهزئين معلمين بفساد الشرق ، وإشراف الأمة على المهلكة .
 فتحرك إلى مدينة سبته ، وتقدم أمره إلى القبائل باللاحاق بها ، وأقام
 هنالك بجند الأجناد ، وبسرب الأمداد ، وجعل تلك الجيوش وأمرها
 إلى نظر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخى يوسف لأمه ،
 والأمير أبو بكر هو أيضاً ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه .
 وأوعز أمير المسلمين إلى صاحب إغرناطة وما والاها أن يسدوه
 بأنفسهم ورجالهم ، وكتب إلى صاحب شنت برية ابن رزين الملقب
 بالحاجب ، وإلى الشنيطى - وكان من أنجاد الفرسان ودهاة الحرب -
 ليجتمعوا مع ابن أخيه لاجتماع الكلة واتصال المعاضدة والمظاهرة
 على منازلة العدو ببلنسية .

ولحق الجيش بالأندلس عقب شعبان المكرم ما ينيف على أربعة
 آلاف فارس (١٣ سبتمبر ١٠٩٤) ، واضعافها مرات من الرجال .
 وتحرك من أمر بالحركة إلى الاجتماع به . وأقبلت دواب الميرة من كل
 صقع ، وزلت المحلات على فرسخ من بلنسية ، فصارت مصراً عظيماً .
 ورأى الروم بحراً محيطاً ، وهموا بالفرار وإخلاء بلنسية إلا للعين
 زعيمهم الكبيطور ، فلم يرعه في ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عبا به ،

وكانت له في الطير عيافة وزجر ، يضيف إلى ذلك مخرفة من كذبه ،
يقوى بها نفوس أصحابه ، وفي ذلك يقول أحد أهل بلنسية :

قولوا المذريق إن الحق قد ظهرا أو نقدره إذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة في كل معترك تأتي لأطباره أن تصدق الخبرا

وعمد اللعين ، عند نزول المحلات عليه ، إلى الضمفة من النساء
والولدان من المسلمين ؛ فأزعجهم إلى المحلة ، وقال : « الحقوا بأهل
ملككم ، فوقعن إلى أيدي السودان وخدمة الدواب والسفلة من الباعة
فغلبوا عليهم وفسقوا بهم ، ولم يُرفع ذلك إلى صاحب الجيش ، فيقع
التغيير والنهي عن المنكر .

ثم رحلت المحلة إلى دانية وغيرها ، فضاع الحزم وانتقض العزم ،
وظهر العجز ؛ واختل الجيش ؛ وصاحبه في غفلة عنه ، عجز بكثرتنه ،
يقدر أن الجيش يوفره ؛ ويهاون بعده ، وبحسب أنه مثله على مثله .
فبدت العورة ، وأمكننت الفرصة . وكان الكبيطور قد ضاقت نفسه
من مقاومة هذا الجمع ؛ فاستجاش الأذفونش ، وشاع ذلك في محلات
المسلمين ، فتوجست النفوس ؛ وأشربت خوفاً الفلوب ، وكانت هذه
الأمور ، دواعي لما جرّه المقدور .

ذكر غدر لذر يقى المصين لمحلة المسلمين

ولما رأى لذر يقى - لعنه الله - ضياع المحلة ، وتفرق الناس عنها
في كل وجهة ، اعتبر الغرة وأعمل الحيلة ، ولم ينتظر النصرة . فركب

في بعض خيله ، وكن البعض ليلاً على مقربة من المحلة ، وخرج صبح تلك الليلة بمن معه في أهبة وعلى تعبئة ؛ والناس في طمأنينة وعلى غفلة . فلما اشتهر من في المحلة ، وقعت الرجة وعلت الصيحة . وركب من بقى من المرتزقة والمطوعة ، ولم يبق في المحلة إلا الغلبة ومن لا يدفع عن نفسه . وصممت الخيل إلى لذريق المذكور ، فاستطرد لهم إلى المدينة ، ونشطوا في أثره ، فاستدرا بالسور ، ولازمته الجيوش تصيب منه وتظهر عليه . فخرجت كائنة إلى المحلة ، فدوختها . وكان الأمير محمد ابن أخى أمير المسلمين شاكياً متخلفاً بها ، فبادر بالخروج عنها . واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة ، فهبت الناس ، ولم يشكوا ، لما كان في أنفسهم ، أن الأذفونش طرقتها . فهام كل على وجهه ، وأخذوا في غير طريق ، ومن صمد إلى المحلة ، فرأى النيب فيها ، والخيل تحترقها ، تنكب عنها ، فلم يرجع أحد إليها . وأقبل العدو على النيب ، ولم يتبع الفل ، ورفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضيعة لما لحقها بيلنسية . فلم يعمل سيف ، ولا أريق دم إلا أفذاذ رزقهم الله الشهادة .

واتصل النبأ بإذفونش - وقه الله - وقد تجاوز في نصف طريقه لنصرة لذريق ، وبلغته هديته من نهب المحلة . فكره أن يفرق جمعه ويخفق جيشه ، فقصده أرض وادى آش من نظر إغرناطة ، فتردد في جهاتها ، واكتسح ما ألفاه بها ، وحمل جملة من رعيها المعاهدة لعمارة أرض طليطلة .

واتصل النبا أيضاً بأمير المسلمين يوسف ، فبلغ منه كل مبلغ ، واشتد غضبه على ابن أخيه لتضييع الحزم وإسلام المحلة دون حرب يقوم به عذر . وانتقلت جيوش المسلمين إلى دانية ، ثم إلى شاطبة فابتدروا بمخاطبة أمير المسلمين معتذرين ، فأعرض عن كتبهم وأضرب عن جوابهم . ولما طال إعراض أمير المسلمين عن ابن أخيه ومن معه ، استلطفه ورجع في أمره إلى القضاء والقدر ، فسلم الأمر لله فيما قضى ، وعاد من العتب والسخط إلى الرضى ، ومخاطبه بلزوم شاطبة لتشمير العادية ، عن تلك الناحية ، وقطع الطرق إلى بلنسية ، وحضه على الضرب عليها . فبلغ من ذلك ما في وسعه وبذل غاية جهده . ولم يزل أمير المسلمين يمد ابن أخيه بالأموال والرجال إلى أن عظم الجيش وكثف ، وضخم أيضاً أمر الفتنة والتعب . وبعد ذلك كتب إليه ، يأمره بالقدوم عليه ، وبعث عوضه أبا الحسن على بن الحاج ، فلحق بشاطبة وانضمت الجيوش عليه . وكانت هدية على كدخن !

ذكر مرق الفاضل أبي أحمد بن مجاف

ومحنة أهله وقرابته ومحنة أهل بلنسية

ولما تمهدت بلنسية للكيطور - لعنه الله - بدأ بثقاف قاضيا ابن جحاف وثقاف أهله وقرابته ، فعمهم الثقاف ، وبلغتهم المحنة ، وجعل يطلبهم بمال حفيد ابن ذى النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى أموالهم واستنفذ أحوالهم . فلما لم يترك لهم ظاهراً

ولا باطناً ، أمر بإضرام النار ، وسبق القاضى أبو المطرف ، يرسف
 فى قيوده ، وأهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم .
 ثم قال للملأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم ؟ »
 فصمتوا ، فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » وأمر به
 وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفتح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج
 المسلمون والروم ، وتضرعوا إليه فى ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب
 لهم ، ولا علم بتلك الآوار عندهم ، فأسعف الرعية فى رغبتهم بعد جهد
 ومدة ، وترك النساء والصبية . وحفر للقاضى حفرة ، وأدخل فيها إلى
 مُحجَزة ، وسوى التراب حوله ، وضمت النار إليه . فلما دنت منه ،
 ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضمها إلى جسده .
 فاحترق - رحمه الله تعالى !

ولم يكف غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزيمة ،
 واجتهاده فى طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطارلة ، رجاء فى استمسك
 البلدة وإبقاء الككلة .

وعند الطاغية - لعنه الله ! - بعد إحراق القاضى - رحمه الله ! -
 إلى الجلة من أهل بلنسية ، فتقفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم
 وجعل الناس فى المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عثمت المحنة ،
 وهلك فى ذلك الثغاف كثير منهم - رحمهم الله وجعلها كفارة لهم !

• • •

وما امتحن به أهل بلنسية فى هذه السنة المؤرخة قتال محمد بن علقمة

بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمئقال ونصف ، ورطل الشعير بمئقال ،
ورطل زريعة الكنتان ستة أثمان مئقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ،
وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة
بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى
بخمسة دراهم .

وفي ربيع الثاني ، عظام البلاء ، وأعضاء الغلاء ، واستوى في عدم
القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحماً عن
القوت . وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورعَّبه في المال والبلد ،
مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

وانسأخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربيع ،
وما سواه تابع له . ولا يضل إلى إدراك شيء من الموجود إلا أهل
الجاه ، وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن
دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بني آدم . وهجم على نصراني
وقع في الحفير ، فأخذ باليد ، ووزع لحمه

وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج
الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ،
فُعبث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم في صوامع الأرباض وبواسق
الأشجار .

ودخل جمادى الأولى ، وعمدت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس .
ولم يبق من ذلك اللحم إلا نزر يسير . وتوالى اليبس ، واستحكم الوباء ،

وبينما الرجل يمشي ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان
 لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رُبَيْر . وباع ابن رُبَيْر فرسه من
 الجزارين بمائتي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه
 أوله بعشرة دنانير ، وآخره باثني عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً .
 ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويق
 والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه ابن الوليد الوَقَّشي في النكلم لابن
 جحاف . فأخذوا الأمان بشرط التوقف ريثما يستصرخ من بمربية
 وصاحب سر قسطة ، وعلى بقاء ابن جحاف على حاله آمناً في نفسه
 وماله وجميع أهله ، ويُحْلَى اللعين عن المدينة بعد ما قدم عليها ابن عُدَيْس
 مشرفاً ، وتكون الأبواب بأيدي الروم البلديين إلى آخر الشهر
 المؤجل . وخرج الأرسال في منتصفه ، وهو جمادى الأولى . وفي هذا
 اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل الرطل ، ورطل الشعير مثقالين ونصف ،
 وأوقية الجبن بعشرة دراهم ، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم . وبعد ما
 نفذت الأرسال ، ارتفعت الحرب ، ولان السعر ، والحمد لله ! وذلك
 لما انصرم الأجل ، خرج القاضي إلى الكبيطور يوم الخميس منسلخ
 الشهر المذكور (١٧ يونيو سنة ١٠٩٤) . ثم صار وفتح الباب ، ودخل
 اللعين إلى المدينة مع جملة من رجاله . وصعد جماعة منهم ، فملكوا
 الأبراج والأبواب ، وتسابق الباعة من موضع المحلة بالخنز والقوا كه
 إلى المدينة . وخرج أهل البلد إليها لابتغاء القوت منها ، فمَلَّت
 الوجوه ، وانبسطت النفوس ، إلا أهل العقول والنظر في العواقب .

واستمرت المحنة عليهم إلى أن دخل شهر شعبان (١٦ أغسطس ١٠٩٤) ، فاتصلت الأنباء أن عساكر المسلمين بمرسية . فأشاع الروم : « إنه متى نزلت علينا محلة المسلمين ، أمضينا السيف على أهل بلنسية » ومشى بريجه : « من وجد عنده شيء من آلات الحديد ، فحاله ودمه حلال » ، فبرى الناس منه حتى من الإبر والمسامير ، ووضعوا ذلك بباب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثم مشى بريجه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القِطْع التي فيه إلى البر ، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فبزم ، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة ، ومن كان من أهل النجدة بُعِد وتُفِي ، وغلب على الظن أنهم قتلوا ، فكان الحزن في دورهم . واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان (١٤ سبتمبر - ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٤) ، ومحلة الأمير محمد بن تاشفين ابن أخى أمير المسلمين بقرب المدينة ، واجتمع على الأمير محمد جميع عساكر المرابطين المغربية والصحراوية ، وجميع عساكر الأندلس . فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة من طرطوشة ، وحسام الدولة من شنت برية ، ونظام الدولة من اليُونْت ، فكانت أفعالهم ضد ألقابهم ، ولحق الشنياطى من الثغر ، وابن ياسين صاحب شبرب وابن يَمْلُول صاحب حصن الأشراف وغير هؤلاء المذكورين ، واستهل هلال شوال (١٤ أكتوبر ١٠٩٤) وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هواره : « ومن كان بالمدينة من النصارى المعاهدين يتصنع لمن بها من المسلمين ، ولا شك عندهم في غلبتهم لهم . »

وفي الثامن من شوال (٢١ أكتوبر) ، أشاع اللامعين أن ابن رُدمير (ملك أرغون) لحق بجملكته لنصرته ، فأعمل الحيلة وأخرج جمعاً من الروم ، وأمرهم أن يشغلوا المسلمين بالتناوش ليظنوا أنه السكيطور ، وخرج هو من حومة أخرى ، فأجفلوا أمامه ، فأخذ إلى المحلة ، فدوختها خيله . واتصل الصراخ بالأمير محمد ، فسكر إليها ، ومتى انفض الناس عنه والمحلة تنهب ، فتوقف العدو عن الاتباع وأقبل على النهب . ثم رجع إلى المدينة ، فشئ بريحه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ونظر إليهم وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم ، وجعل ينظر في عطفه ، ويشمخ بأنفه . ثم قال : « انظروا إلى في سبعمائة ألف مثقال ، وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم ! » ثم خرج وبقي المسلمون في القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فراوا الموت ، ووقع البهت . وخرست الألسنة . ثم رجع اليهودي وزيره إليهم ، وقال لهم : « لم أزل لأطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي ألف مثقال فبادروا بتوزيعها ، وأقدوا أنفسكم منه ! » فتوزع العدد على الأحوال واشتد ثقاف الأغنياء . وبلغ اليهودي - لعنه الله ! - من المسلمين مبالغ الغاية في العذاب وسلط اليهود على الإسلام ، فبلغوا النهاية في النكال والنكابة ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمنصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالمعصا والسوط ، وقبض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل عدو ، فإن جاء

بشيء ، وإلا أخذ بالسوط والعذاب ، وتمادت هذه المحنة مدة ،
فلا قوة إلا بالله العلي العظيم .

• • •

وكان يطول بنا القول لو سردنا ، مستعينين بهذا النص العربي
الجديد الذى اقتصرنا على إيراد دون إثقالة بالحواشي ، الأخبار
المفصلة للأحداث التى وقعت فى بلنسية وفى شرق الأندلس بين عامي
١٠٩٠ ، ١٠٩٤ ، كما عرضنا منذت بيدال بإصهاب فى كتابه « إسبانيا فى
عهد السيد » ، وإليه نكل بمحض إرادتنا العناية ، التى هو أهل لها
دون غيره باستخدام الحقائق الجديدة المختلفة التى يتضمنها هذا النص
بعد تقديره حق قدره ، وهو نص لا يغير فى شيء الخطوط الأساسية ،
للإطار الذى رسمه ، مستعيناً بالمصادر المسيحية بنوع خاص للجزء
الآخر من حياة الفنيطور ، ويمكننا أن نؤكد مقدما أن العالم الإسباني
لن يتعرض للخطر الناشئ من الثقة العمياء بهذا المصدر العربي عندما
يبتفع منه فى طبعته الجديدة لهذا الكتاب ، إذ أن هذا النص يعتبر
دون أدنى شك على جانب عظيم من الأهمية ، وإن كان يعتبر بالنأ كيد
متحيزاً من بعض جوانبه .

ومع ذلك فإن منذت بيدال لن يفوته أن يدرك أن تأريخ هذه
الحوادث كما هو مقرر على ضوء الفصل المذكور فى البيان ، والنقول
التي أوردها مؤامه ، لا يتفق دائماً مع التأريخ الذى اقترحه معتمداً
فى بعض الأحيان على مجرد الفروض .

وليس أدنى حسنات هذه الوثيقة الجديدة أنها تتضمن ، فيما يتعلق بهذا التاريخ ، عدة حقائق يحتمل جداً أنها صحيحة موثوق بها ، هذا فضلاً عن أنه يحل بطريقة نهائية لا تحتمل الجدل المسألة التي تعنى مؤرخي العصور الوسطى والمشتغلين بالدراسات الأسبانية على السواء ، ونعني بها صلة القرابة المباشرة بين تاريخ السيد كما ورد في المدونة الأولى للتاريخ العام وبين تاريخ بلنسية لابن علقمة .

تذييل

كان المخطوط الذي نشرنا منه الصفحات السابقة موجوداً في المطبعة عندما تفضل رامون منندث بيدال أثناء رحلتي بمدريد في ربيع عام ١٩٤٨ فأعطاني مع المجلدين الجميلين للطبعة الأخيرة من كتابه «إسبانيا في عهد السيد» (مدريد ، اسبانيا - كلبى ١٩٤٧) وهما المؤلفان الجزء السابع والثامن من مجموعة مؤلفاته الكاملة ، فصلة من مقال ظهر وقتئذ في الجزء التاسع عشر (رقم ٣٥ - ٣٦ ، مدريد ١٩٤٨) من مجلة الدراسات السياسية *Revista de Estudios políticos* عنوانه السياسة وحركة الاسترداد *La política y la Reconquista* (هو نقد لآخر ما كتب عن السيد) ، وفي هذا المقال يعرض العالم الأسباني الجليل لبحث نشر في نفس المجلة (مجلد ١٧ صفحات ١٠٩ - ١٤١) ~~كتبه~~ خوسيه كامون آئناز José Camón Aznar عنوانه : « السيد : شخصية

مستعربة ، El Cid : personaje mozárabe ، يلي ذلك النص الحالى طبقاً للنسخة التى أرسلتها إليه مكنوبة على الآلة الكاتبة .

إننى أتفق تماماً مع دون رامون على الأهمية العظمى للمصادر الجديدة عن السيد التى أتيج لى كشفها خلال هذه السنوات الأخيرة ، وإنى لسعيد ، إذ استطاع أن يستخدمها فى كتابه ، فقد ضمن الجزء الخاص بالنصوص من كتابه (ص ٨٩٢ - ٩٠٤) فى الوقت المناسب الترجمة الفرنسية لنص ابن عذارى ، وذيله به (٩٧٧ - ٩٧٩) .

ذيل — ا

« قطعة من كتاب المؤرخ مجهول عن ابن جحاف والسير »

ذكر دولة القاضي أبي أحمد جعفر بن جحاف بن عبد الله بن جعفر
 ابن عبد الرحمن بن جحاف بن يمين بن سعيد المعافري البلسي وذكر سبيه:
 لما ملك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثاً وغير أحكاماً وأظهر
 منكراً كثيراً وصادق ألفنش وهاداه وراسله ، تخاف أهل بلنسية منه
 أن يملكها للفنش كما ملكه طليطلة ، فاجتمعوا وعزموا على قتله وتقديم
 ابن جحاف ، فدخل عليه وقله ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من
 رمضان كما تقدم ، وبويع ابن جحاف في صبيحتها وهو يوم الثلاثاء
 الرابع والعشرين من رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ودخل القصر
 فوجد فيه من الأموال والأثاث وذخائر الملوك شيئاً كثيراً واحتوى
 على ذلك كله ، وتفقه بشاطبة على أبي عمرو بن عبد البر وسمع الحديث
 من أبي العباس العدوي وغيره وأقام بها ملكاً إلى أن غزاه قط من
 أقطان النصارى يقال له القنيطور ومعناه صاحب الفحص ، واسمه
 لذريق ، فطمع في أخذ بلنسية فضايقها مضايقة شديدة وحصرها حصراً
 عظيماً ، وقطع عنها المرافق ، ونصب المجانيق ، ونقب الأسوار ، وعدم الناس
 الطعام ، وأكلوا الفيران والكلاب والجيايف إلى أن أكل الناسُ الناسَ ؛
 ومن مات منهم أكلوه ، فبلغ الناس من الجهد مالا يطيقون ، وقد ألف
 ابن علقمة كتاباً في أمرها وحصارها يبكي القاريء ويذهل العاقل .

فلما طال عليهم البلاء ، وعمدوا الصبر ، وكان المرابطون قد
خرجوا من الأندلس إلى العدو ، ولم يجدوا ناصراً ، عزموا على تسليمها
للغنيطور ، فاستأمنوه على أنفسهم وأموالهم وأهلهم ، واشترط على
ابن جحاف أن يعطيه جميع ذخائر القادر فأجاب كل منهما إلى سؤاله ،
وانعقد الصلح بينهما ، وفتح الباب ، ودخل الغنيطور البلد ، ونزل في
القصر ، وتملك بلنسية وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . فكانت
دولة ابن جحاف ثلاث سنين وأربعمائة أشهر وسبعة أيام . ثم إن
الغنيطور قتل ابن جحاف ، وكان سبب قتله أن الغنيطور ، لعنه الله ،
لما تسلم من ابن جحاف جميع ذخائر المقتدر ، كان ابن جحاف قد
أمسك منها ذخيرة نفيسة ، فوقع عليها عند الغنيطور ، فسأله عنها ،
فأنكرها فأمر بحلقه بحضرة اليهود وأعيان المسلمين وأعيان النصارى
لخاف أنه مارآها ولا هي عنده فحرق سبيله . ثم إنه عمر بعد ذلك عليها ،
وقال أبو العباس أحمد بن علقمة في تأريخه ، وهو ممن شهد الموطن ،
وكان في الحصار ، أن الغنيطور طلبه في الأموال ، فأخرج له أسبابا
كثيرة وأثاثا كثيراً ، فقال له الغنيطور ، ومن تكون عنده الأسباب
ما يكون عنده مال ، فغضب وأمر بتعذيبه فعذب عذاباً شديداً ثم أمر
به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها . وأصير الحطب
حوله ، وأوقدت فيه النار ، فكان يضم النار إليه يديه ليكون ذلك
أسرع لخروج روحه ، ولم تزل بلنسية تحت يده إلى أن استخلصها
منه مزدلى المرابط سنة خمس وتسعين .

ذيل «ب»

« رواية ابن الخطيب عن ابن جحاف والسير »

١ — مقتل القادر بن ذى النون فى بلنسية

« وانتقل حفيد ابن ذنون إلى بلنسية بمشايعة ملك قشتالة ووجه معه جيشا حتى دخلا واستقر بها إلى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ وقد تملك ابن عائشة ، قائد يوسف بن تاشفين ، مرسية . فاستدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم فأقبل إليها نائبه بجيش من اللتوينين ، وخرج القاضى ابن جحاف والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد ، ففر ابن ذنون من القصر ولم يمكنه الخروج من المدينة ، فاختفى ببعض الدور الخالية ، فظهر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسبق إلى القاضى ابن جحاف فأمر بقتله ، تولى ذلك قى من بنى الحديدى القتل بطليطلة ، وطيف برأسه ، واحتوى ابن جحاف على ما كان له ، وطرحته جثته فى سبحة ، فواراه رجل احتسابا وصدقة ، ودفن دون كفن ، فانقطعت مدته على هذه السبيل . »

• • •

٢ — أيام القاضى أبى أحمد بن جحاف رئيس بلنسية

« ... وكان قاضى حضرة بلنسية وله فيها الأصالة الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة ، وكان قد سُم إضافة عدو الله الكتنبطور بيلنسية ، وسوءه أهلها خطة الخسف ، وسُم الذل ، وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل إليه ، بعد تمكين النصارى من طليطلة ، فقوى بمكان دولة اللتوينين وانقل على أيديهم كشف المحنة والخروج من ذل

الكنبطور ، متعبد أهل بلنسية ، وحالب ضروع جباياتها بصرامته ، فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ، فوجه إليه جمعا من المرابطين ، وبرز الناس إلى لقائه ، وفر عند ذلك حفيد ابن ذنون من قصره ، وثار البلد به ، وُعثر عليه فقتل بأمر القاضي ابن جحاف كما تقدم ، وتمت بمقتله الرياسة في البلد لابن جحاف ، فرتب الأجناد والخدمة ، واستشعر أبهة الملك ، وعين الألقاب ، وحذا حذر ابن عباد بإشبيلية ، فلم تساعده الأيام ، وخاطبه عدو الله الكنبطور بهنيه على مائتيا له وفي قلبه من استظهاره بسلطان لمثونة النار المضربة ، وأخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه ، ويطلبه بالأطعمة التي كانت له بمحسون بلنسية اتهمها رجاله في حال الحادثة ، فراجعه أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين والأطعمة قد انتهت ، فكتب إليه الكنبطور يقسم بمحرجات إيمان دينه ألا يرجع عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثار ابن ذنون ، وخاطب من مجاوره من أهل الحصون الذي لا طاقة له يستمد الأقوات للحلة .

ثم كاد الكنبطور عدو الله ابن جحاف وخدعه وداخله في إقامة أودّه ، وتوطيد ملكه إذا صرف اللتوينين وأزعجهم أنه يسوغ استبداده بالملك ويقيم مقام ابن ذنون ويقاقل عنه من يريده ، وكان استنقل القوم وضاق بمؤتهم ففعل ، وعند ذلك استبصر في التصديق عليه ، فمظم الغلاء ، وتضاعف البلاء ، واستصرخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين فبعث إليهم جيشا عظيما أنبع للكنبطور عليه الظهور ، فأيقن الناس بالهلكة ، واشتد عليه كلب العدو إلى أن استأمنوه

لأنفسهم ، وخرج إليه ابن جحاف وأحكم معه العقد ، ودخل العدو المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ ، وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية ، فاعنت وفازت بها قداحه ، ولما تمكن فيها سام أهلها سوء العذاب واستخلص أموالهم وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف .

واعقل القاضي أبا المطرف جعفر بن جحاف ، وعم بالنسبة جميع قرابته وأهله وطلبه بمال حفيد ابن ذنون ، فلما استنصفى جميع ماله من ظاهر وباطن أمر بإضرام النار ، وسبق القاضي أبو المطرف يرسف في قيوده بين أهله وولده ، وقد حشر الناس من أهل الملتين ، وقال السكندطور للملأ : ماجزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم ؟ فصمتوا .

فقال : أما نحن فجزؤه عندنا الإحراق . وأمر به وبجملته إلى تلك النار وقد انفتحت الوجوه على المسافة البعيدة ، فضج المسلمون والنصارى وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال إذ لا ذنب لهم فأسعف الرغبة بعد جهد ومدة ، واحتقر للقاضي أبي المطرف حفرة وأدخل فيها إلى حجزته وسوى التراب حوله وضمت إليه النار . فلما انفتحت وجهه قال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله ، ولم يكن غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر ودفعه إياه بالمطاولة رجاءً في استمساك البلدة الإسلام واستبقاء الكلفة فيها ، وعمد بعد

إحراقه إلى الجلة من أهل بلنسية فتفقههم بحال تفرقة بين مجنون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحنسة حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في الضغط أسرة على طبقاتهم ، وهلك في الثقافة خلق كثير منهم ، رحمهم الله ، في أخريات السنة . .

الفصل الثامن

خواطر عن دولة المرابطين
في مطلع القرن الثاني عشر

ظهر هذا المقال في ديوانه جامع للدراسات التي نشرتها الجمعية
التاريخية الجزائرية بمناسبة مرور خمسين عاماً على كلية الآداب
بجامعة الجزائر، الجزائر عام ١٩٣٢

هناك حدود لم تتغير إطلاقاً في مجموعها ، تفصل منذ قرون عديدة المغرب عن بقية شمال أفريقيا ، وليست هذه الحدود مجرد حاجز طبيعي أو سلسلة من الجبال أو مجرى للياه ، وإنما هي ، شأنها في ذلك شأن الحدود التي تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهي تحدد على الأقل في نطاقها الشمالي ، أقصى النقط التي بلغها التقدم التركي في الجزائر في العصر الحديث .

وتلسان الواقعة في الجانب الآخر من هذه الحدود مدينة مراكشية في مظاهرها أكثر منها جزائرية ، فكثير من آثارها القائمة حتى يومنا هذا داخل أسوارها أو كثير من بساتينها ، من عمل سلاطين فاس ، وكذلك يوجد إلى الشرق فيما بين مراكش وبقية المغرب فاصل طبيعي ، ومن المستطاع بلا شك إدراك ما بين القطرين من فوارق في السكان الجغرافي والمناخ ، وبالتالي في نوع الحياة التي يحياها السكان ، أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية فلا يمكن إنكار وجودها ، رغم الوحدة الدينية في المغرب كله ، ولكن هذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها في التاريخ قط إلا منذ نهاية العصر الوسيط أي منذ اللحظة التي صارت فيها مراكش الدولة الوحيدة المستقلة في شمال أفريقيا ، والدولة الوحيدة التي لم تقع تحت سلطان دول إسلامية أخرى ، والواقع أنه منذ القرن السادس عشر أخذت الظروف المختلفة ،

ولاسيما الربية في الاجنبي ، سواء في ذلك المسيحي المواجه للبلاد أم المسلم الذي يجاورها ، تملى على مرا كش منهجاً ان يتغير قط ، يدفعها إلى إغلاق حدودها في البر والبحر ، وانعزالها عن الخارج انعزالا تاما . ومن هنا يمكننا أن نفسر تلك المفارقة لبلد كبير ، قريب من أوربا ، ولكن انعدم فيه كل تطور إلى بداية القرن العشرين ، بلد كان التقدم فيه أسطورة ، عاش منطويا على نفسه ، ورضى بأن يظل مغلقا في عالم تفاليد الروحية والاجتماعية والسياسة الضيق ، بحيث لم يستطع أى سلطان مهما كان عليه من هممة وقسوة كثيراً ما تذكر في التاريخ الإسلامى ، ولا ملك رزق حصافة سياسية ، أن يباهى بأنه قد بسط سلطانه يوما واحداً على جميع هذه المساحة الشاسعة من أملاكه الاسمية . فالجرب الاهلية أو بعبارة أدق الثورة الصماء الخفية في نواحي الامبراطورية ، ثم المدن التى بقيت جامدة على حالتها في العصور الوسطى ، والنظام الذى فقد قيمته بمرور الزمن ، كل ذلك كان يؤلف مجموعة من العناصر البراقة الموضوعة في غير وضعها التاريخى . ولكن الحياة التى كان يحياها هذا البلد كانت بطيئة في تقدمها بحيث تفضى بالمرء إلى التساؤل : هل عرفت مرا كش المصائر العظمى التى يحكيها تاريخها القديم ؟ كل ذلك قد تغير اليوم . فإن مرا كش ، مدفوعة برغبتها في التآلف والوفاق ، قد أظهرت حماسا لا يرتاب أحد فيه ، فقد سلكت سبيل التقدم دون أن تشعر مع ذلك بأى دهشة ، ولم يعد المواطن يفكر في الماضى ، وأقبل على الأخذ ببعض الأساليب الحديثة

لتطبيقها في حياته بهمة لا عهد له بها من قبل ، ولكن هذا اقتصر على بعض الجوانب فقط ، فالتقاليد لا تزال بعيدة عن أن تنمحي في مراكش . ولكن المغربي ، وخاصة في المدن ، استطاع أن يسترد الزمن المفقود بخطى سريعة في أغلب الأحيان مما دهش له العدد الأعظم من الذين طافوا بتونس والجزائر قبل الوصول إلى مراكش ، فهم في الغالب لم يقوموا بالتحري العلى الذى يتيح لهم تفسير الفروق التى يحدونها بين مراكش وجاراتها في الشرق ، ووزن هذه الفروق وزنا حقيقيا ، فمراكش - عديم - شيء آخر ، وهذا حق في أغلب الأحيان ، ففي ماضى بلاد المغرب على وجه خاص تؤلف مراكش مجموعة منفردة بذاتها منذ أقدم عصور تاريخها .

كان يسيطر على هذا التاريخ في العصر الوسيط دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين ، ودفع الموحدون ، وقد كان لذين اللفظين ، وعليهما مسحة قديمة بعض الشيء ، حق الذكر في لغات أوربا منذ زمن بعيد ، ولا سبيل الآن إلى أن تذهب بهما أية صورة من صور الكتابة ، فمما ، كما يثبت ذلك استعمالهما في القديم ، أظهر أماره دالة على الدهشة التى أصابت أمراء النصارى وملوكهم في شبه الجزيرة الأيبيرية حيال مالا سبيل إلى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحدة تلو الأخرى تنزل بهم الهزائم المدوية في أوربا ذاتها . ومعرفة عدو باسمه الحقيقى حين يكون هذا العدو مسلما ، وتمييزه عن جمهرة السكان من أهل الملة النصرانية ، امتياز نادر جداً في كتب التاريخ في العصر الوسيط المسيحى بأوربا ،

فالمرباطون والموحدون يدويان كأنهما من أسماء الرعب في مصنفات التاريخ اللاتينية التي تروى أخبار الاسترداد . .

ومع ذلك فيجب الاعتراف بأن الجدل الذي حظى به الموحدون لم يلبث أن كسف إن لم يكن قد ذهب بالضوء العابر لسابقهم في تاريخ المغرب ، وإذا كنا على علم لا بأس به منذ سنوات بفضل ما أورده المؤرخون العرب عن بداية حركة الموحدين وارتفاع شأنها ، فإن ما لدينا من أخبار عن المرباطين لا يزال قليلاً نسبياً يدعو إلى التأسف ، فهو لاء المثلثون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهايت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن تأسبنوا ، بمجرد الاتصال بالحضارة الإسلامية في الأندلس ، برزوا حقاً في العصر الوسيط المغربي ، ولم يكن هذا شأن الفارس البربري العظيم يوسف ابن تاشفين وحده ، وإنما كان أيضاً شأن ابنه علي بن يوسف الذي استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار .

• • •

لقد ترك يوسف بن تاشفين لخلفه امبراطورية هائلة بعد وفاته في سنة ١١٠٦ ميلادية (٥٠٠ هجرية) ولم يكن علي بن يوسف قد تجاوز وقتئذ الثالثة والعشرين من عمره ، وكان اسمه منذ توليه إمارة المسلمين على ما ذكر أحد المؤرخين يذكر على ألفين وثلثمائة منبر في مساجد المغرب والأندلس ، قد امتد سلطاناه من بجاية إلى السوس الأقصى ، ومن تيفلالت إلى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة أيبيريا بأجمعه ، (١٦٣ - دراسات في المغرب والأندلس)

وعماله يمتد حكمهم إلى جزر البليار ، فقد دان للرابطين الجزء الغربي من المغرب ثم إسبانيا في عدة سنوات بفضل الجهود التي بذلها يوسف ابن تاشفين ، وكانت دولة المرابطين في أوجها ، والأسرة البربرية تزداد على مر الأيام رقة وترقا بحيث صدق ما قيل في هذا العصر من أن الثقافة الأندلسية سادت في مراکش . غير أنه لم يستطع أحد حتى ذلك الحين أن يدرك أن عناصر الضعف ، وقد راحت تتجمع خفية حول الأمير ، أخذت تعرض قوته أولا للضياع لتمحوها بعد قليل من الوجود . وكان لا بد للمحافظة على السلام في مثل هذه الدولة المترامية الأطراف من جيش نظامي من الطراز الأول ، وقوات متحركة تجمع حولها فرق المجاهدين في إسبانيا ضد المسيحيين ثم تحافظ على سلامة الأراضي المغربية وتحبط أدنى محاولة للثورة ؛ ولم يكن السهل لديهم بذى بال ، فقد أمضه القلق من رؤية كتائب المثلثين تنقض عليه وترده إلى الصواب بتدمير قراه والإتيان على زرعه وإعمال السيف في ثأريه . أما الجبل فقد كان على الضد من ذلك أقل ضماناً لأن المغامرين كانوا يجدون فيه مأوى حصيناً ، ويغلب على الظن أن المرابطين مارسوا في الأطللس سياسة تشبه إلى حد ما السياسة التي تبناها نحن أنفسنا خلال أعوام طويلة : وهي أن يمنحوا الرؤساء المحليين وهم : الإماغارن ، نفوذاً عظيماً ، فهم مسؤولون عن أقوامهم أمام السلطان الأعلى ومكلفون بالبطش بأقل نوزة في غير هوادة . وتتجلى هذه السياسة في الوصية السياسية ليوسف بن تاشفين إذا أخذنا

بما ذكره مؤرخ مسلم ، وقد استطاع على أن يفتنع بها نفسه وخلفائه من بعده ، فقد كان مما أوصاه به فيما ذكر صاحب الحلل الموشية : « ألا يبيع أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة ، » (١) . فهل كان يوسف يحس بأنه سيخرج من جبل جنوب مراکش فأنحون جدد يأتون ، وهم يمضون في طريقهم كأنهم سيل بشرى ، على البنيان المجيد الذي أقامه يوسف ؟ ثم ألم يكن الباعث على اختياره لموقع عاصمته مراکش على ضفاف وأدى تنسيقت التمكن من مراقبة هؤلاء الجلبين الذين تحوم حولهم الشكوك والريب ؟

لم تكن عاصمة جنوب مراکش بادي^٢ ذي بده في الحقيقة إلا معسكراً حربياً كبيراً ومقراً لقيادة القوة اللمتونية ، هي فيه بالمرصاد لسكان الجبل الذين قد يهبطون من الأطلس الأعلى . وليس من شك في أن مدينة عظمى مجاورة تقع على حافة هذه السلسلة نفسها كانت قد جذبت المرابطين أول الأمر ونغى بها أغمات وريكة التي شهد جميع جغرافي العرب برخائها في هذا العصر ، إلا أن سكان هذه المدينة ومنطقتها كانوا أول من تمنى أن يرحل عنهم سادة البلاد الجدد . وفي هذا قال ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراکش لعسكره وللمعمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن ، فلم تكن مدينة مراکش في مبدأ أمرها سوى معسكر كبير ثابت ، حفرت فيه الآبار لاجتلاب المياه ثم بنى فيها مسجد وقصبة صغيرة

اتخذت لحفظ الأسلحة وأسلاب الحرب ولم تأخذ عاصمة المرابطين مظهرها الحضري إلا في وقت متأخر وذلك في عام ١١٣١-١١٣٢ م (٥٢٦ هـ) . ورأى على بن يوسف أن يقيها غزو الموحدين فأقام حولها الأسوار ، وشيد لنفسه قاعة جديدة مع قصر ومسجد ، وظلت قصبة أبيه مدة طويلة ، البناء الوحيد بالمدينة ، المشيد بالحجر بدلا من الآجر ، ومن هنا كان اسمها الذي حفظه لنا بعض المؤرخين وهو « دار الحجر » ، أو « قصبة الحجر » . وسرعان ما اتسعت المدينة في يمس وسهولة حول هذا الحصن ، واستحقت في عهد على بن يوسف أن تسمى بالعاصمة وذلك لعظم مساحتها وكثرة سكانها ونوعهم ، إلا أن الموحدين عملوا بدورهم على جعلها حاضرة حقيقية رائعة ، فشيّدوا فيها معظم الآثار التي تثير الإعجاب في الوقت الحاضر .

والظاهر أن على بن يوسف كان يرضيه وهو في مقر حكمته بمراكش أن يولى وجهه شطر الشمال حيث إسبانيا دون الجنوب حيث الجبل القريب منه الذي جهد في إخضاعه لسلطانه وذلك بلا شك أمر يرجع إلى هواه الشخصي ، فثاني أمراء المرابطين لم يكن صحراوياً قحاً كما كان أبوه من قبل ، فهو لم يولد كذوبه في الصحراء وإنما ولد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في سبتة ، من أم نصرانية من السبائا رائعة الجمال ، وقد تلقى منذ نعومة أظفاره ثقافة أندلسية بحثة ، ولم يكن مثله الأعلى هؤلاء الأمراء المغاربة المستضعفين الذين قضى أبوه على سلطتهم الذابلة ، وإنما هم أن يتشبه بخلفاء قرطبة العظام

وحجاب بنى عامر الذين سبقوا ملوك الطوائف مباشرة في شبه الجزيرة .
وقد استطاع يوسف بن تاشفين بجوازه أربع مرات إلى الأندلس ،
وبانتصار جوشه في واقعة الزلاقة عام ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) أن يحدد
في البلاد سنة الجهاد لمدافعة النصارى . وهكذا كان لعلى بن يوسف
عند اعتلائه العرش برنامج سياسى مرسوم ، وضع كل همه لتحقيقه
على الأقل في الحقبة الأولى من حكمه ، فجاز إلى إسبانيا منذ نهاية
سنة ١١٠٦ (٥٠٠ هـ) وهي السنة التى نُصّب فيه أميراً للمسلمين لإعادة
تنظيم حكومة المرابطين فيها وتحقيق مشروعاته في الجهاد ، وكانت
الممالك المسيحية وقتئذ في ظروف متفاوتة للغاية من حيث تعزيز
قوتها وسلاحها لصد هجوم المرابطين . ففي ليون وقشتالة كان ذلك
آخر عهد ألفونس السادس إذ قدر له أن يموت في العام التالى تاركا
عرشه لابنته أراكة ؛ وفي البرتغال كانت الأميرة تيريز ، أرملة هنرى
دى بورجونى هى التى تقوم بأعباء الحكم . أما الشمال الشرقى فكان
أمره لأميرين قوين لها سطوة هما ألفونس المحارب فى مملكة أرغون
ورامون بيرينجر الثالث فى مملكة قطلونيا ، جعل كل منهما محاربة
المسلمين . ولما وصل على بن يوسف إلى شبه الجزيرة ولى أخاه
تمبا حكومة البلاد وقيادة الجيوش . واستطاع تميم سنة ١١٠٨ (٥٠١)
أن يضيف مجداً جديداً إلى سلسلة أمجاد المرابطين ، فأنزل بالمسيحيين
فى موقعة أقليمش أو الأقاط السبعة Sept Comtes ، هزيمة منكرة
لقى فيها الأمير دون سانشو ابن ألفونس السادس وزائدة المسلمة

المعروفة ، حنقه . وقد أنفضى هذا النصر بعلى بن يوسف إلى أن يحى .
 بنفسه ليضطلع بأعباء الحرب على حدود بلاد الشرك . ففي عام
 ١١٠٩ - ١١١٠ (٥٠٣) جاز إلى إسبانيا على رأس جيش كثيف ،
 وقد جعل همه الاستيلاء على طليطلة التي كان ألفونس السادس ملك
 قشتالة قد دخلها بدون مقاومة في العام السابق للزلافة ، فدمر على
 أراضيها ، ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها بعد شهر واحد دون أى
 نتيجة تذكر ، وكان أحد أقاربه وهو الأمير سير بن أبي بكر ، أكثر
 توفيقاً منه في حملة جردها في العام التالي على البرتغال . فسقطت
 مدينة شنترين وبطليوس وبورتو ويابرة ولشبونة في أيدي المرابطين ،
 ثم تنابعت الحملات التي قام بها قواد جيش على بن يوسف خلال أعوام
 كثيرة ، يحالفها التوفيق أحيانا وتمنى بالفشل أحيانا أخرى ، إلا أن
 وجود قوات المرابطين على الحدود كفل للأندلسيين أمناً لم يكونوا
 يعرفونه منذ أمد بعيد ، ووجدت إسبانيا الإسلامية وقتئذ في السلام
 متعة الحياة وأحست بالرغبة في التفوق في جميع الميادين أمام أنظار
 العالم الإسلامي والاحتفاظ كذلك بهيبتها وفوذها في البلاد التي جاء
 منها ساداتها الجدد وأولياء نعمتها .

• • •

يعتبر حكم على بن يوسف شاهداً على الصبغة الإسبانية الشديدة
 في تاريخ إمبراطورية المرابطين الإفريقيين ، فإن إسبانيا في ذلك العصر

لم تؤثر في مرا كش من عدة نواح فحسب ، وإنما قصد مرا كش عدد كبير من الأندلسيين ليقموا في بلاط الأمير بمدينة مرا كش . وقد زدونا المؤرخ عبد الواحد المراكشي بمعلومات هامة في هذا الشأن . قال : « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك ، كأبي القاسم بن الجند المعروف بالاحدب أحد رجال البلاغة ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبد الله ابن أبي الخصال ، وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبهم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله بن محمد بن أبي الخصال ، وُحِقَ له ذلك ، إذ هو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب واليد الطولى . وقد اختار له المراكشي فصولاً من رسالة جرى فيها على النثر المسجوع . وعلى هذا النحو تغير البلاط البربري الصغير ليوسف ابن تاشفين دفعة واحدة ، ولا شك أن الأندلسيين وكانت كلتهم مسموعة من السلطان فيما يشيرون عليه قد ساهموا بقسط كبير في الإصلاحات الإدارية التي نهض بها . ومن المحقق أنهم لم يكونوا بمعزل عن القرار الذي اتخذته على بن يوسف بأن يحيط نفسه في مرا كش بفرقة من جنود النصارى وبتكليف بعض ضباط هذه الفرقة بأعمال هامة من بينها جباية الضرائب على حد قول أحد المؤرخين ، وذلك

أمر مألوف في إسبانيا منذ عهد طويل ^(١) ، وقد اضطلع قائد قطالاني الأصل من برشلونة اسمه رفرتر Reverter أو روبرتير كما يسميه مؤرخو العرب ، بعد ذلك بقليل ، بدور هام

ونختم هذا الموضوع ، ولعل ذلك هو أم مظهر لهذا النوع من الأثر الذي أحدثته إسبانيا في مرا كش ، بالقول بأن ذلك النفوذ المائل الذي كان يتمتع به العلماء والفقهاء في الأندلس ومشاركتهم في شؤون الحكم امتد إلى مرا كش ، إذ سرعان ما اجتمع إلى علي بن يوسف عدد غير قليل من هؤلاء الفقهاء ، وهم الذين استزلوا اللغات على ملوك الطوائف في الأندلس عند قدوم يوسف بن تاشفين إليها فأفتوا بخلمهم وانتزاع الأمر من أيديهم ، وأظهروا حمة وغيره على الإسلام لما أصابه ، وكانوا ينظرون إلى سلطان المرابطين الأعظم على اعتبار أنه المنفذ ، واستحال ذلك التسامح الرائع الذي كان يتميز به الإسلام في إسبانيا خلال القرن الحادى عشر إلى عداوة لمن لم يشاطرهم كل معتقداهم . ويجدر بنا لى نذكر المآخذ التى أخذها ابن تومرت والموحدون على المرابطين أن نرسم الخطوط الأساسية لإطار الإسلام المغربى فى مستهل القرن الثانى عشر ، ولدينا لحسن

(١) فى الحلل الموجبة أن علي بن يوسف « هو أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية الخارم » . الحلل ص ٦٩

الحظ دراسة رائعة مجملة عن هذا الموضوع قام بها جولدسيير .
ومن الخير أن نثبت جوهر ماذهب إليه :

لا يخفى أن أهل السنة سادت بينهم أربعة مذاهب ينسب كل منها إلى إمام المذهب ، وهى : المالكية والحنفية والحنابلة والشافعية ، هذا إلى جانب الشيعة الذين تختلف آراؤهم عما أجمع عليه أهل السنة . ومنذ القرن التاسع انتهى الأمر بالمغرب ، ونعني بهذه التسمية معناها الواسع أى المغرب الإسلامى كله ويشمل شمال إفريقيا والأندلس ، إلى إثارة مذهب مالك ابن أنس بعد محاولات قام بها الأحناف لنشر مذهبهم ، وأخرى قام بها الفاطميون لبث الدعوة الشيعية . وكان عام ١٠٤٨ (٥٤٤٠ هـ) هو العام الذى تم فيه الانتصار الكامل للمذهب المالكية فى المغرب ، وكانت وحدة المذهب التى حظى بها الفقهاء المغاربة فى جميع أنحاء البلاد بما أضفى على أحكامهم وعملهم ما يشبه الثبات ، وسرعان ما أصبح هذا العمل قاعدة . ثم إنهم بدلا من أن يولوا دراسة الحديث المكان الذى تستحقه ، نراهم قد انصرفوا عنه ، ولم يعودوا يرجعون إلى الأصول يستنبطون منها الأحكام ويتخذونها مادة للدراسة وإنما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ . يقول عبد الواحد المراكشى : « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين وبحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، أغنى فروع مذهب مالك ، فنفتت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ

ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعنى بهما كل الاعتناء ، . وكان من أثر هجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه الذى تستنبط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الاعتماد على الفروع التى تتضمنها كتب المذهب إلى تجريد الدراسة من روح الكشف الجذابة ، وانساق القوم وراء التقليد وانصرفوا عن النظر والاجتهاد ، وكان موقف الدراسات الكلامية فى موضعه من الجود المشتبه عند ظهور دعوة ابن تومرت ، ومن هنا لم يلبث هذا الناقد البربرى حين عاد من المشرق أن صدمته العقيدة السائدة فى المغرب وراح يناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذى أخذه المهدي المقبل على المرابطين ، بل كان هناك ما هو أشد خطراً فى رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ فى نظره أن فقهاء المغرب فى عهد المرابطين ، خلافاً لزملائهم فى المشرق وقد بلغوا حيفئذ من التطور غايته فيما يتعلق بمباحث علم الكلام ، ظلوا يلتزمون ، فى الآيات القرآنية التى فيها ذكر لصفات الله ، النص الحرفى لها بما يفضى إلى تجسيم للذات الإلهية وإلى إثبات صفات جسمانية له تعالى ، كانت هناك بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر عنه النصوص الأصلية ، وبين النظرية القائلة بالتزويه المطلق على نحو ما تعلمه ابن تومرت من أساتذته المشاركة واعتنقها فى حماس كبير .

يذهب بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون إلى أن نجم علي بن يوسف لم يَأْفَلْ إلا في اللحظة التي جرد فيها ابن تومرت وأتباعه الحملة على المرابطين ، ويرى آخرون على العكس من ذلك أن حال أمير مراکش اختلت اختلا لا شديداً في السنوات العشر الأولى عقب توليه الأمر . والظاهر أن عبد الواحد المراكشي ، وهو مؤرخ متأخر ، مغترب ، لا تخلو روايته تماماً من التحيز ، قد رسم مع ذلك لولاية علي بن يوسف صورة دقيقة إلى حد ما جديرة بالثقة ، ويعتقد أن ضعف سلطان المرابطين ما لبث أن أذكي حول عرشه أطماع أقاربه ، وقد ولي كبار المرابطين مناصب هامة في أنحاء الإمبراطورية فادعوا الاستبداد ولم يعودوا يقرون له إلا بحق إمارة المسلمين المبهمة ؛ والواقع أنهم كانوا يباشرون السلطة التي خولها لهم الأمير في استقلال كانوا يأملون أن يكون مطلقا ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه ، وتطلع النساء إلى أن يكون لهن دور المشيرات بل الأمرات في البلاط ؛ وللنساء في مجتمع لتونة الصحراوي منزلة حرصن على أن يحتفظن بها في بلاط المرابطين ، وأناحت لهن حرية الحياة النفسية التي لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن عن الصحراء ، التدخل بشغف في شؤون الدولة ، والتمنع بالسلطة التي استطنن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهن مسموعة من الأزواج والأبناء . قال عبد الواحد المراكشي : « وصارت كل امرأة من أكابر لتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع

سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين على بن يوسف في ذلك كله يتزايد تخافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع بأمر إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك ، وأهمن أمور الرعية غاية الإهمال ، ولا نشك في أن المؤرخ قد غالى في الوصف . ولكن من المحقق ، فيما يبدو ، أن الأمير ، رغم خصاله التي لا جدال فيها ، لم يكن في هذه اللحظة أكثر من لعبة في أيدي الفقهاء الذين في خاصته ، وأنه ظل منعزلاً مثلهم في دراسات عقيمة وتبتل منقطع .

وفي هذا العصر الذي اختل فيه حال على بن يوسف ، وقعت حادثة لها مغزاها ، هي إحراق مؤلفات الغزالي المشهورة ، التي أثارت ثائرة فقهاء المغرب ، وعواءهم ، على حد تعبير جولدتسيهر . فقد راح العالم المشرق في الجليل في كتابه الذي أسماه فأحسن تسميته « إحياء علوم الدين » ، يفضح نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء الزهاد . ولم يكن العلم في نظره حرفة كالخرف الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالرجح العاجل ، وإنما هو « عبادة القلب وصلاة السر وقرية الباطن إلى الله تعالى » (١) . وأثارت قراءة كتابه بالمغرب على الأقل موجة من الغضب ، ولم يكف فقهاء المغرب يعرفون أنفسهم

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج ١ ، ص ٤٥ طبعة مصر ١٣٠٢ هـ .

في خضم القدح الذي رمام به الفقيه الأكبر . وبقدر ما استهوى ابن تومرت في المشرق غاظ هذا القدح علماء إفريقيا . ومن هنا كان القاضي الشهير عياض السبتي آخر من اعتنق عقيدة الموحدين في الأعوام التي تلت ذلك ، وكانت قراءة نسخ كتاب الإحياء التي دخلت المغرب والأندلس شؤماً على نفوذ الفقهاء الهائل ، ولم يبق في رأى هؤلاء إلا إجراء يجب اتخاذهُ وقد أملوه على علي بن يوسف ، ففي مستهل سنة ١١٠٩ (٥٠٣) أمر أمير المرابطين بإحراق كتب الغزالي وكان قد تقدم إليه في ذلك ابن حمد بن قاضي قرطبة على ما ذكر المؤرخ ابن القطان ، وأحرقت نسخة مجلدة من الإحياء في الميدان الصغير الذي يمتد أمام الباب الغربي للجامع قرطبة بعد أن سكب عليها الزيت ، في جمع حضره الفقهاء ، وصدر الأمر في جميع أنحاء الإمبراطورية بإحراق جميع نسخ مؤلفات الغزالي التي يمكن العثور عليها ؛ ألا يدل هذا الأسلوب من أساليب التفتيش وحده على الحالة النفسية التي فرحت كأنها قاعدة على أنحاء إمبراطورية واسعة ، لا يحرص الفقهاء فيها على التدخل في شؤون الحكومة فحسب وإنما يملون أيضاً على الأمير أكثر أحكامه ؟

وكان من الأعاجيب ألا تشتعل الثورة في المغرب ، فقد كانت الفرقة المسيحية التي نقلت من إسبانيا إلى إفريقيا تضيق الخناق على السكان بتهديدها ، ولم يكن لديها هي نفسها أي مصلحة في أن تثور بل إنها أثبتت

حتى النهاية ارتباطها الوثيق بساداتها المغاربة . أما في إسبانيا فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، فعندما ولى الموحدون وجههم شطر شبه الجزيرة كانت الأندلس في ثورة منذ أمد غير قصير ، وخلعت سلطان المرابطين حتى يتم لها كما حدث على أثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، تأليف دويلات مستقلة توزعها الأندلسيون والبربر المتأسبنون .

الفصل التاسع

مولد إمبراطورية
ابن تومرت وعبد المؤمن
« فقيه سوس » و « سراج الموحدين »

مقال ظهر في كتاب Mémorial Henri Basset « في ذكرى هنري
باسيه » ، الجزء الثاني ، باريس ١٩٢٨ صفحات ٢١ - ٣٧

تعرف السوس ومرا كش في العالم الإسلامي بانها البلاد التي
اختيرت للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر أهل الجنوب ، وهم بربر جفاة
خشنون في مظهرهم الخارجى كما في طريقة حياتهم ، أسانذة علم العرافة
والتنجيم والقوى الخفية ؛ يأمرؤن الجن ، ويكشفون عن السكنوز
المخفية ، ويخشاهم الناس ويحرمونهم ، إذ لا يستطيع أحد أن يلحق
بهم أذى ، ثم هم قوم أولو فصاحة بسيطة إلا أنها أخاذة ساحرة ،
جمهورهم الذى يخاطبونه طلعة ساذج ولكنهم يعرفون السبيل أكثر
من غيرهم إلى التأثير عليه ، وجلهم يجيد لغتين ، يضمنون خطبهم سواء
كانت بالعربية أم البربرية آيات من الكتاب العزيز أو عبارات دينية
مأثورة تضاف على أعمالهم التي يشكرها الإسلام أحياناً أصبغة من التمسك
السطحي بالدين ، وقليل منهم من يرتفع إلى مستوى العلم الإسلامى
الحق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذوالعلم بها ، ويستجبل
إلى آلة تسرد وتزدد ، وإلى عالم يلتزم في تفسيره الآيات النص الحرفى ،
عما يحصر النفوس فى إطار ضيق جداً يجب عليها أن تتلام وإياه ،
على أن هذه المباحث بحفافها - وربما أيضاً من أجل جفافها - تتجاوز
مستواهم ولا رغبة لهم فيها ، فلبس يلزم ككون المرء عالماً من أجل
أن يكون مسلماً صالحاً ، أو مؤمناً غيوراً . وأصول السنة الواضحة
على قدر وضوح نفوسهم ، يحاولون اتباعها دون أن تحب نفوسهم
إعلان ذلك ، وبربر المغرب فى جملتهم أهل صلاح وتقوى ،

إلا أن الإسلام يقتصر عندهم على جانب الدين فقط ، والدين مكرم في المدينة لكنه لا يتدخل في حياتها الخاصة ونظمها وميولها والمثل الأعلى الغاى الذى تحاول أن ترسمه .

ويحق لنا أن نذهب إلى أن جبل الأطلس هو الذى يعكس الصور الاجتماعية لبلاد البربر في العصور الوسطى ويحتفظ بها على أكمل وجه ، فقد كان دائماً بفضل موقعه الجغرافى وعزلته ، وبعده النفسى عن السهول ذات الحياة الميسورة ، وطرق المواصلات الكبرى، المأمن الواقى ونواة الكتلة البربرية في جنوب مراکش ، وربما حاول أقوام آخرون من البربر سواء من سكان الجبل في بلاد الريف أو من الأطلس الأوسط أن يخلعوا في خلال التاريخ نير وحدة قومية زائفة ، ولكنهم لم يوفقوا قط إلى إكساب حركاتهم الثورية سعة تبلغ في مداها وشمولها الحركة التى اتسم بها في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى اندفاع الجبل الجنوبى لمدينة مراکش إلى أنحاء المغرب مستجيباً لنداء المهدي بن تومرت أحد أبنائه .

شخصية تستهوى من حولها إلى أقصى حد ، ونفس بسيطة ومعقدة في آن واحد ، وحالم إن شئنا ، ومصلح دينى ، إلا أنه سياسى بلغ الغاية في الالتماع والإخلاص ، يؤمن برسائله إيماناً يفضى به إلى الرغبة في أن يحققها بقوة ضارية . قالوا خائن كذاب ، وكان في الإمكان اتهامه بالجنون والدروشة والشطحات الصوفية ، ولكنه لم يهتم قط في ذكائه ؛ ومجمل القول أنه كان شعلة ذكاء بربرية إذا جاز لنا ذلك ، وهذا مع صفاء

فى النفس لا يخلو من الرقة الحضرية ، والريية فىمن حوله وتقدير
العواقب والخشونة والقسوة ، ولكنه كان فى مقابل ذلك لين العريكة
فى الوقت المناسب ! فقد استطاع هذا البربرى القادم من الأطلس ،
وعالم الإسلام ، أن يصبح لدى مواطنيه الأمغار مسموع الكلمة ،
وينزع عن خطبه أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث فى بساطة دون
أن يتشدد بالفصاحة ، على طريقة القوم ؛ وله فى الرسول أسوة حسنة ،
يستأن بسنته مع علمه بأنه لا يبلغ شأوه صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن
فيه شىء من سجايا العربى الساكن فى شبه الجزيرة ، وكان يعلم أنه مهما فعل
فإن اللغة التى يكتبها لغة غربية عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فإنه كان
يفسك بالبربرية ، وبالبربرية كان يخاطب قومه أبناء تنمطل ، وكانت
العربية لغة المواعظ والخطب التى تزيد أتباعه الجدد إيماناً ، يؤثر
فى نفوسهم إيقاع العبارات الجميلة التى تحدث فى أذهنهم رنيناً عذباً ،
ومع ذلك فكانوا لا يحيطون بها إحاطة تامة ؛ وكانت البربرية هى لغة
كل يوم ، لغة السب واللعن ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم المعصوم
من قرية إلى قرية ومن واد إلى واد .

أما عبد المؤمن فلم يكن منذ أول أمره فى مثل جفوة ابن تومرت .
خرج من قبيلة كومية بطلمب العلم ، وهو ليس بالحضرى ولا بالبدوى ،
ولمما هو بين بين ، وقد قدر له أن يصرفه المهدي عن الدراسة
التقليدية ، وعن الشرق الذى كان قد افتتن به وفتح عينيه على رسالته
فعبد المؤمن بربرى من الطراز الثانى ، أقرب إلى التحضر وأدنى

إلى الأخذ بأسباب الحياة ، وربما أقل مثالية اصطغت بقدر كبير من الواقعية ، وكان ذكاؤه من نوع آخر ؛ ويقول من ترجموا له إن مخايل ذكائه كانت تلمع في وجهه ، قد جعلوا منه رجلاً عبقرياً ، طبيعته فيما يظهر أكثر تعقيداً من طبيعة أستاذه على الرغم من اندفاعه . ثم هو شديد الحياء ، الحظ يواتيه ، ومستشاروه يدفعونه إلى المجد ، قد أناح له ما أصاب من نجاح أول الأمر الطمأنينة واليقين ، ولم يصرفه هذا النجاح عن الأخذ بأسباب الحيلة ، غريب بعثته العناية الإلهية ليكون دعامة في بناء الموحدين ، قد اتفق القوم على توليته ، وارتضته مختلف القبائل ، لأنه لا يجر وراءه ذلك التراث الكبير من الأحقاد والعداوات القديمة شأن البربر من سكان الجبل ، وإن أجمل لقب من ألقاب المجد الذي يتحلى به ابن تومرت أنه أدرك كما أوحى إلى خلصائه بمن خدموا قضيته في حياته ثم اقتتلوا بعد وفاته ، أن الدعوة التي قام بها ليست سوى خطوة نحو المستقبل ، وأن تحقيق الدعوة لا يتم إلا على يد مهاجر يفد من إقليم بعيد ، وبهذا ضمن أن يجتمع لديه جميع المشايخين لحزبه دون أن يضمروا سوءاً أو يخالجهم أدنى شعور بالعصية القبلية .

وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة ، وينبغي أن نحدد على الخريطة موضع الإقليم الذي كانت تحتله هذه القبيلة في العصور الوسطى إلى جنوب مراکش فيما وراء الجزء الأعلى من وادي سوس ،

وكانت تختل دون شك السفح الشمالى المواجه لجبال أطلس فيما بين قبائل هشتوكه المجاورة لساحل المحيط الأطلسى ، وبين سكتانة إلى الغرب من درعة ، وتقيم فى نفس المنطقة قبائل أرغن ، وهو الاسم البربرى الحقيقى الذى عرب إلى هرغة ، وقد أتاحت لنا التغيرات التى أصابت على مر القرون المنطقة التى تسكنها القبائل الكبيرة فى جبال الأطلس ، وبقاء الاسم والإشارات الطبوغرافية التى يمكن استخراجها من كتب التاريخ فى العصور الوسطى ، أن نحدد مواقعها مع قدر كبير من الدقة ، ويتضح من ذلك أن قبائل هرغة تبعد عن قبائل هتانة بأكثر مما كنا نعتقد ، وأن المسافة الكبرى التى تفصل بين هاتين القبيلتين فى بلد متقطع الأوصال وصعب الارتياح ، تتيح لنا توضيح بعض نقاط غامضة فى بداية تاريخ الموحدين .

كان اسم السوس يطلق فى العصور الوسطى على جميع البلاد التى تمتد إلى جنوب مراکش بين المحيط ووادى نهر درعة ، وكان القسم الشمالى يسمى غالباً على وجه التحديد بالسوس الأدنى ، والآخر بالسوس الأقصى ، يضم كتلة جبال درن أى الأطلسى ، وتسكن سفوح الوديان وبطونها بعض القبائل الكبيرة أو جماعات منها ، وهى فيما بين وادى تنسيفت ووادى سوس على النحو التالى بادئين من المحيط : قبائل رجراجة ، ومسكالة ومنيجة وهاهة ومسكينة ، وفى الوديان التى انجأها جنوبى شمالى وتهبط إلى سهل مراکش قبيلة ركدمبوة (جدمبوة) وكنفيسة ، وإلى الشرق من ذلك قبائل

سكتانة وهنتانة ووريكة وقبائل هزرجة في بلاد دمنات وإجلوان (اليوم جلاوة) . وأخيراً الشعبان الكبيران : بنو وازكيت (اليوم أوزجيتة) وهسكورة ، ثم تقسم أربع مجموعات كبيرة من القبائل فيما بينها المراعى والأراضى الزراعية من الغرب إلى الشرق في الإقليم المواجه لجبال درن وهى : هشتوكه وهرغة وسكتانة وإزنجان . ولابن خلدون عبارة كثيراً ما ينقلها الباحثون ، وصف فيها هذه البلاد المجدة الشحيحة وصفاً غاية في الدقة والواقعية . وكتب هنرى باتسيه وهنرى ترأس وصفاً شيقاً لهذه المناطق سنة ١٩٣٢ في كتابهما «مساجد وقلع الموحدين Sanctuaires et forteresses almohades» ، بعد رحلة قاما بها ، وإلى هذا الكتاب نحيل القارىء ؛ وليس هنالك ما هو أشد قسوة من هذه البلاد ، فهذه المزروعات القليلة والخضرة النادرة التى ترى فى قيعان الوديان تبدو غريبة عليها ، والحياة صعبة قاسية بالنسبة لساكن الجبل ، المحروم فى كل مراحل عمره ، والذي أنشأ وطنه نفسه فى أقصى أنواع المدارس ، وكثيراً ما هاجر سكان هذه البلاد سعياً وراء حياة ميسرة فى السهول الشمالية ، ولا يمكن البربرى شديد التعلق بمسقط رأسه ، يعز عليه ألا يعود إليه ، وهنالك يقضى آخر أيام حياته ، فالخنين إلى القمم والطرق التى تورث الترنخ والدوار ، مما يعود به إلى بلاده بعد رحيله عنها بقليل .

هل من الضروري أن تنوء بما لسكان جبال الأطلس وسكان الجبال فى سائر مراكش ، من احتمال جسمانى عجيب ؟ هؤلاء البربر

قلبا كانوا جميلى الصورة ، فالغالب عليهم الضمور وقصر القامة ، فالبلاد فقيرة جداً ولا يأكل المرء فيها ما يكفى لسد جوعه حتى يصبح الجنس سليماً ويبقى قوياً فى هذه البلاد ، على أن قانون الاختيار بعمل عمله ، فالضعيف والهزيل لا يمكنه أن يقاوم البيئة التى تحبط به ، فسرعان ما تذهب به صعوبة المناخ قبل أن يبلغ سن الرجال ، أما من يبقى بعد هذه السن فإنه عرضة لكل مشقة ، يجوبون ، ركضاً لا مشياً ، طرقاً وعرة لا يكاد يصدقها العقل ، ومسافات تثير الدهشة ، وسيرهم فى الطريق مسافات طويلة أمر طبيعى بالنسبة لهم يقومون به كل يوم ، فإن هذا المران الذى هو حياتهم اليومية جعل منهم مشاة ذوى خبرة . وكثير من حجاج البربر قطعوا الطريق إلى مكة سيراً على الأقدام وعادوا إلى بلادهم على هذا النحو ، لا يخيفهم التعب الجسمانى ، وليس للزمن وزن فى حسابهم ، يحسنون السير فى جميع الأوقات تحت الشمس أو المطر ، بحيث لا يقفون إلى فى ساعات الصلاة أو عندما تنحدر الشمس للغروب ، كما أنهم يقطعون كل يوم مسافات شاقة دون كلل ، وفى المساء يأوون إلى ركن بمسجد ريفى ، ويعتمدون على الله فى رزقهم ، ويستأنفون يومهم على هذا النحو إذا اقتضى الأمر ذلك . هذه إحدى مميزاتهم التى قلما تتغير فى مظهرها على مر العصور ، إلا أن هناك عاملاً جديداً للغاية ، استطاع أن يغير سريعاً كل ذلك ، ألا وهو دخول الحضارة الأوربية .

وفى منازل هذه القبائل الجبلية ، تبعد القرى بعضها عن بعض

دون أن تنعزل فيما بينها . أما المساكن فتصلة جداً لأن الأمن غير دائم بحيث يتيح لهم الاستقرار في الأراضي التي يهازرع ؛ والحياة بدائية تقوم على الزراعة أو على الرعى ، وهناك بيت لا يفترق عن غيره في شيء . في أغلب الأحيان ، ذلك هو المسجد الذي يجتمعون فيه ، ويقومون الصلاة ، ويتم فيه الصبية أجزاء من القرآن الكريم يحفظونها على يد معلم ، قليل الحظ من العلم ، ويجد فيه عابر السبيل مأوى يقضى فيه الليل ، ويتناول طعاماً هزيلًا ، وقد أصبح المسجد مكان الاجتماع في القرية التي لم يغير فيها الإسلام شيئاً ، فإنه يفد القوم ، كما كانوا يفعلون من قبل ، ليتحدثوا في جناية يقتربها واحد منهم أو ثار يأخذه آخر ، ويؤمنونه أيام الجمع والأعياد لأداء الصلاة ، وبالجملة لم تكن اجتماعاتهم بأقل عدداً من الصلوات . وبقدراً يجدون مشقة في فلاحه الأرض على السفوح المنحدرة انحداراً شديداً بحيث يقتضي الأمر حمايتها من الانهيارات الصخرية والسيول الجارفة ، فإن إجازاتهم الزراعية كثيرة طويلة الأمد ، وفي هذه الفترة تنشط النفوس من عقابها كما هو الشأن في بقية أنحاء مراکش ، فمخازن الحبوب قد امتلأت بقدر ، ولم يفرغ كل ما فيها ؛ هنالك يعني ساكن الجبل الذي جنى الثمرة الضئيلة لعمله نفسه بحياة سهلة ميسورة ، ويعظم اعتزازه بنفسه ، وتقل الخصومات في الوقت الذي ينتظرون فيه المحاصيل ، ولكن يكفي أن يصيبهم القحط في سنة من السنين حتى تنطلق أفواج البائسين إلى السهول بحثاً عن ثروات البلاد المباركة .

ولا يلبث أقل حادث يقع في هذه القرى الجبلية أن يزداد خطورة عنه في غيرها ، وأقل خبر يذاع هنالك لا يلبث أن يسرى وينتشر بسهولة ، ولا يعرف الرجل أبناء عشيرته والأسر التي تسكن قريته لحسب وإنما يعرف جميع أقرانه من أصغرهم إلى أكبرهم سناً ، وهم يذهبون كل أسبوع إلى السوق المتواضعة التي تقام في مفترق الوديان ، يدفعهم إلى ذلك ما يسمعون عنه ، والبيع والشراء قليل جداً في السوق ، وإنما يتناقلون فيها الأخبار عن الحوادث التي تقع في كل أسبوع ، كالذي يقع في القبيلة من حوادث القتل والسرقة والغصب كما يرددون ما يرد من المدينة من أخبار مشوهة ، كل ذلك كان يؤلف موضوعاً لأحاديث كثيرة ، فإن في البربر - شأنهم شأن جميع الشعوب التي ليست على حظ كبير من التطور - سذاجة في بعض الأحيان ، إذ أن نفوسهم جبلت على التطلع البرى . مع قسوة جارية .

• • •

وهكذا كان شأن نبأ سرعان ما انتشردون شك في الجبال ، ذلك هو رحيل ابن تومرت عن قبيلة هرغة ، وكان مما ساعد على ذبوع هذا الخبر أن ابن تومرت لم ينحدر عن المصهول ليعمل أجيراً ، وإنما رحل للدراسة في الشرق ، نحو هذه الأرض الساحرة ، صدر جميع العلوم ومهد الإسلام وأمجاده .

كان يتسمى باسم بربرى بحث لم يستبدل به اسم محمد إلا في وقت

متأخر تيمناً باسم الرسول ، وقد أراد أن يتأسي به في كل أعماله ،
وكانوا قد وضعوا له هذه ولادته لقباً محلياً ، ولما عاينوا أنه وقد
تسمى باسم محمد يفتنى - كما تدل على ذلك الدلائل - أن يكون اسم أبيه
عبد الله . ولعل أباه ، وكان رئيساً لقريته ، كان يعرف وقتئذ بالأمغار
ويقابل الشيخ في العربية ، كان يحمل اسماً لا صلة له بتصوير نعت
إسلامي ، ولا يخفى أن المؤرخين العرب يطلقون على والد المهدي
اسم تومرت ويذهبون في تفسير هذا الاسم إلى آراء لا غناء فيها .
وتومرت اسم امرأة يدل على صيغة واضحة الأنثى ، وليس من شك
في أن اسم إحدى جداته غاب على نسبه ، ربما لإحياء لذكرى نظام
الأمومة القديم شأن المهدي في ذلك شأن غيره من مواطنيه في ذلك
العصر ، ولعله كان أيضاً اسم أمه ، لأن أم الحسين ، وهذا اسمها ،
ظاهر الوضع . وكان جد ابن تومرت لأبيه يسمى أجلة وجدته لأمه
وبوركان . وهذه أسماء لا شك في أصالتها .

كانت أسرة ابن تومرت تعيش في قرية من قرى هرغة على سفح
جبل إجلز ، بيوتها تكاد تكون منحوتة ، وأكثرها امتداد لسموف
مهدبة لها نظائر في جميع أنحاء مرا كش ؛ وليس من شك في أن كهف
إجلز المقدس الذي صار فيها بعد مكاناً يحج إليه الموحدون لم يكن
في أصله سوى جزء من مسكن أسرة المهدي .

وكان للمهدي ثلاثة إخوة لا بد أنهم تسموا بعد ذلك بأسماء
عيسى وعبد العزيز وأحمد ثم أخت اسمها زينب ؛ ولا نعرف شيئاً

عن صباه ، الذى لا شك فى أنه قضاء فى حفظ القرآن إلى أن كان يوم اتخذ فيه طريقه ليكمل تعليمه خارج بلاده ، سواء من تلقاء نفسه أو عملاً بمشورة ذويه . وكان فى مقدوره أن يبلغ فى العلم مبلغاً كبيراً دون الحاجة إلى أن يتجاوز مراکش . فقد كانت عاصمة المرابطين تتألق وقتئذ فى حلاها الجديدة ، وكانت مركزاً لا تزال فى نصارتها ، حيث ينشر جلة الشيوخ العلم فى ظلال القصر اللتوني . كان ذلك هو العهد السعيد للعلاقات القائمة بين دولة المرابطين وإسبانيا الإسلامية ، فانتصار جيوش المسلمين فى الزلاقة يتردد صداه ، ثم إن بعض مظاهر الحياة الميسرة السهلة فى الأندلس ، وما اتسمت به من أناقة ورقة وروح فيها سخرية لاذعة إلا أنها تنطوى على التسامح فى أغلب الأحيان ، كل ذلك قد انتقل فيما يظهر إلى الجانب الآخر من الزقاق ليمهد بلاط المرابطين ويجمله . ويغلب على الظن أن مراکش قد استقبلت ابن تومرت بعض الوقت ، ولكن لا يمكن تأكيده ذلك ، ولسنا على ثقة كذلك ، رغم ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه أقام بعض الوقت فى إسبانيا ، وكل ما نعرفه أنه وجد نفسه ذات يوم فى المشرق ، ولكن لماذا لم يؤد فريضة الحج ؟ هذا سر مغلق ، ولو فعل لكان قد غلب عليه لقب الحاج ، بما لا يذكره من ترجموا له ، ولكنها بلا شك الظروف السياسية أو المادية هى التى عاقته عن ذلك . والرواية المفصلة التى تركها لنا البيهقي ، رفيق ابن تومرت ، عن رحلته مبتورة من أولها فى المخطوطة الوحيدة التى تضمنتها وهى محفوظة بالإسكوريال ،

فبدأتها مروره بتونس أثر عودته من المشرق ، بحيث لا بد للوقوف على الفترة السابقة لذلك من الرجوع إلى ما كتبه المؤرخون المتأخرون قليلا ، وهم لهذا لا يكتفون من الأخبار في هذا الباب ، ولا يوحى ما دونوه بالثقة التامة . والشئ المحقق أنه اكتسب أثناء إقامته - التي استطالت دون شك ، وإن كان من الصعب تحديد مدتها - أكثر معارفه الفقهية ، وأنه وضع أسس دعوته التي صارت فيما بعد دعوة الموحدين .

• • •

لا نشك في أن ابن تومرت قد رحل من المغرب إلى المشرق في الأعوام الأولى من القرن السادس الهجري ، فيما يقرب من سنة ١١١٠ ميلادية . وعندما فكر في العودة إلى وطنه ومسقط رأسه ماراً بمصر ، استبقاه هذا البلد فيما يقاب على الظن فترة من الزمن ، وكانت العلوم الإسلامية مزدهرة في مصر ، ومن المحتمل أنه قضى فيها على الأقل جزءاً من عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . ونجد في كتاب الأنساب فصلاً غريباً ، وإن كنت أميل إلى أنه غير موثوق به . وفي هذا الفصل قائمة تتضمن أسماء رفقاء المهدي في مصر نقلها كاتب مجهول اسمه أبو القاسم المؤمن المصري ، وتتخذ الأسماء الواردة فيه مظهراً مصرياً بحتاً ، وينتهي لإحصائهم بعبارة لا تخلو من ادعاء إذ يقول : « هؤلاء رجاله وخدامه الذين هم بالديار المصرية والرباطات الشامية » . ثم نفقد أثره بعد ذلك إلى أن يبلغ شمال تونس .

هل يجب الاعتقاد حقاً أن ابن تومرت اتخذ منذ هذه الفترة صفته شيخ لمدرسة ؟ وهل كانت دعوته قد ارتسمت إلى هذا الحد في ذهنه لدرجة أنه رأى ضرورة تنفيذها وتطبيقها عملياً ؟ الجواب على ذلك هو النفي قطعاً ، فإن اتصاله بأرضه في بلاد البربر حيث وجد نفسه بين قومه هو الذي فتح عينيه ، فأبصر ذات يوم أن المصلح الروحي الذي رضى أن يكونه يمكن أن يصبح أيضاً مصلحاً سياسياً ، ولم يصبح عند عودته لا المهدي ولا الإمام المعصوم ، وإنما كان ، كما كان غيره من قبله ومن بعده في هذه البلاد التي لا تفقد فيها الروح المحافظة شيئاً من حقوقها ، مجرد الناقد للعادات أو ذلك الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، منادياً بمبادئ الاحتساب ، وكانت لديه حماسة المقتنع الملهم ، ولم يكن طموحه قد تشكل بعد ، كما لم يكن حتى ذلك الوقت في حاجة إلى التماس المعونة الإعجازية التي زودته بها فيما بعد نظرية المهديونية ونظرية الإمامة دون عناء .

ويذكر بعض المؤرخين أنه قطع رحلته من الإسكندرية إلى المهديّة بحراً ، وسرعان ما عملت الأسطورة على استغلال هذا النبأ ؛ فيقول المؤرخ ابن القطان أن عصمته تجلّت في رحلته هذه ، فقد كسر جرات البحر التي كانت موجودة على ظهر السفينة التي أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضي دون أن يهتم أى شخص بأدائها . وكان القوم يهزون أكتافهم حين يسمعون يدعواهم في غير رفق إلى الصلاة معه ؛ وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهبت

عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهدى من هياج البحر ،
ونمت الرحلة بسلام بفضل هذا الولي الذي وجد منذ هذه اللحظة
من يصفى إليه باتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له نادمين على ما بدر
منهم نحوه . وذهب بعض المؤرخين إلى أن ابن تومرت نزل بالمهدية ،
وهذا ممكن جداً ؛ وبعد ذلك بقليل يقيم بعض الوقت في تونس ،
وفي هذه المدينة يمكننا حقاً البدء في تتبع أثره أثناء عودته إلى غرب
بلاد المغرب ، وكان قد اجتمع حوله ثلاثة من أتباعه رافقوه في رحلته ،
وكانوا ألزم له من ظله بعد أن عرفوا فيه الوطني ، فمنهم حاجان هما
الحاج يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمن وثالثهم أبو بكر بن علي
الصنهاجي ، الذي كتب فيما بعد أخبار هذه الرحلة وكان يكنى بالبيذق
أى الجندى في لعبة الشطرنج ، ويروى البيذق أن الطلبة في جميع مدن
المغرب التي مرت بها ابن تومرت كانوا يقدون إليه من جميع الأنحاء رغبة
في سماع دروسه . وينبغي أن نحسب حساب مغالاة هذا التابع
المتواضع في إعجابه بأسناذه ، إلا أن رسائل المهدي وعموده لا تشهد
على أصالة كبيرة في روحه فحسب ، وإنما تدل أيضاً على معرفة كاتبها
باللغة العربية وإلمامه بدقائقها ، وكل ذلك يوحى بأن ابن تومرت
لم تكن تعوزه البلاغة ، وهي بلاغة نقية ، مؤثرة لا تقوم فقط على
حسن التقسيم بين العبارات ، والسعي لإكمال الصورة اللفظية ، وإنما
تقوم أيضاً على إيراد عبارات الوعد والوعيد حسبما يقتضيه المقام ،
فهو يذكر سامعيه بالعذاب الذي توعد الله به العصاة في الآخرة ،

والنعم الذي أعدّه للمؤمنين في الجنة والبلاغة الدينية في الإسلام كما في الأديان الأخرى لم تزل أسلوباً مزدهراً من أساليب الدعوة ، فهذه الخطب والمواظ التي صيغت في عبارة سهلة جداً لتنفذ إلى القلوب روائع تبلغ أحياناً حد الإعجاز بما تتضمنه من الدعوة إلى الجهاد وإنذار العصاة ، ولعل المغرب لم يكن فيه عدد كبير من الوعاظ الذين يفوقون ابن تومرت . فلا بد لمن يستولى على القلوب من أن يرزق موهبة خطابية ينثني لها الشك سواء كان الكلام ترغيباً وإطراء أو ترهيباً وتخويفاً . ولقد كان علماء المغرب يرمون المهدي بالجنون إذا سئلوا عنه ، ولكنهم يردفون ذلك بأنه « عفريت » ، في تمسكه من اللغة وإلمامه بقرئها .

وخرج ابن تومرت مع رفاقه الثلاثة من تونس ومضى إلى قسطنطينة ، وهناك استقبل الأستاذ بمثل ما كان يستقبل به إذا أخذنا بما ذكره صاحبه الأمين وكاتب أخباره . وكان على المدينة وال من بني حماد يبعثه هو ابن سبع بن العزيز ، ولا نشك في أنه قد عبرها خفية وإن كان قد عمد فيها إلى حمل الناس على احترام تعاليم الإسلام ، فهو لا يجبر أن يعاقب اللص بضربه بالسوط دون أن يقام عليه الحد المنصوص عليه بقطع يد السارق ، إلا أنه لا يربد كذلك أن يقام عليه هذا الحد إذ لا يجوز جمع حدين في ذنب واحد . كل ذلك صحيح من الوجهة الشرعية : فابن تومرت هو الناطق باسم الشرع والحريص على الأخذ به ، ولكن كل ما هنالك أنه امرؤ لا تعموزه الحكمة

والبصر بالعواقب ، ذلك أنه لما ظهر على هذا النحو ، وأحس بأن تقريعه يثير الريبة ، لم يتلبث وأمر جماعته الصغيرة بالرحيل . وكانت القافلة على أهبة المسير ، وما لبثت أن اتخذت طريقها من قسطنطينة متجهة صوب المدينة الكبرى التي تليها وهي بجاية ، وكانت وقتئذ مركزاً هاماً ، فهي حاضرة أمراء بني حماد تنافس إلى حد ما مدينتي تونس ومراكش . وكان يسود فيها كما في المدن المغربية الأخرى في ذلك الحين قدر من الحرية في العادات دون أن تبلغ مبلغ الأمر الجائر المصرح به ، ولكن كان لا بد أن يكون الحاكم رحيماً حتى يعفو عن ذلك ، إذا أريد إعادة تكوين المجتمع الإسلامي في صورته المثالية . وكانت بجاية إلى جانب ذلك مدينة بربرية ، فهي الميناء الطبيعي لبلاد قبيل . وكانت علاقاتها مع إسبانيا عديدة منتظمة ، ولأهلها عناية بالتأنيق في اللبس وفي طريقة الحياة ، ولو ترك لابن تومرت الأمر فيها لكان قد سارع إلى تغيير كل ذلك ، وما كاد يصل إلى بجاية حتى استقر به المقام في « مسجد الربحانة » ، وظهر في الميادين والأسواق وأخذ ينهى الناس عن الأقراق (النعال) الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحات للرجال والنساء . ولكنه أباح الطيب الرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول في الحدود التي لا إثم عليه فيها . ثم كان شهر رمضان وأعقبه عيد الفطر ، فعمت الغبطة ونسى الناس الحرمان الذي عانوه طوال الشهر ، وهناك خرج القوم رجالاً ونساء وقد اختلط بعضهم ببعض يتزهون في الميدان الذي يطل على المزارع . فأقبل

الاستاذ، فيما يؤكد البيذق ، يفرقهم بعصاه . فهل نصدق البيذق في ذلك ؟ كان هذا التصرف منه إذ ذاك تهوراً جنونياً ، ولم يكن الناقد بعد ذلك في العاصمة بناء على مشورة أبناء أمير بحاية ، فمضى إلى ملاّلة وهو ربض بعيد عن العاصمة قد يتاح له فيه النجاح ولا يتعرض له أحد ، ولم يمنعه ذلك من القدوم إلى المدينة بين حين وآخر ، يعظ الناس ويرشدهم ويهرق جرار الخور التي تقع تحت بصره . وأقام ابن تومرت طويلاً في ملاّلة ، وكان يعيش في زاوية ، نهاره يقضيه في التدريس والعبادة وذكر الله والتفكير ، والظاهر أنه أخذ يدرك شيئاً فشيئاً دوره كصلح ، وعلم أنه لن يصل إلى نتيجة صريحة بتقريره العصاة أو بجعل الناس يهتمونه بالسفه والجنون ، وفي المساء حين ينفض من حوله الطلاب الذين يقبلون على الاستماع لهذا الاستاذ ذى الحدة في منطقه ، ينطلق من خلوته ويمضى إلى مفترق من الطرق قريب، وهناك يجلس تحت شجرة خرّوب ويستأنف أذعته ، ويحرك شفّته بالذكر دون انقطاع وهو ينظر أمامه . ولا شك أن قوة غامضة كانت تستثيره ، فهو يحس برسالة تتحدد شيئاً فشيئاً ، ويحس بأنه يستطيع باعتماده على مرّيته من الاتقياء ، أن يعيد إلى حظيرة الإسلام جميع الأغنام الضالة في ذلك المغرب الذي تزداد فيه الزندقة وعدم الاكبراث الديني يوماً بعد يوم ، فلماذا لا يكون هو نفسه مجدد هذا الدين ورجل الإصلاح والعقاب ؟ وذات يوم سمعه أصحابه يحمد الله بصوت عال ، فقد أضاء النور في نفسه !! هنالك قام ودخل

المسجد وصلى فيه ، ثم قال فيما يروى البيهقي : الحمد لله على كل حال ،
قد بلغ وقت الصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . يصادكم
غداً طالب ، طوبى لمن عرفه ووبل لمن أنكره . . إلام يعزى هذا
الإلهام المفاجيء . وهذا الإعلان باقتراب وصول نائب المصلح ؟ لاشك
أنه من السهل جداً أن يكون لقاء ابن تومرت وعبد المؤمن بمحض
الصدفة وأن القدر وحده جمع بينهما ، ولكن هذه الرواية على ضعفها ،
ليست بأقل أهمية . فهي تفسر وحدها روح المهدي الذي كان يرسم
مشاريعه تحت شجرة الخروب بملالة ، ويرى مستقبلاً باهراً خلال
الحجب ، ولم يكن ابن تومرت شاباً ، فقد قضى حياته في الدراسة
والاغتراب ودنت منه الشيخوخة ، فلماذا إذن يزيد في مشاريعه
والموت له بالمرصاد ؟ لقد غادر بلاده منذ أعوام ، ولم يستطع ، وهو
دائم التنقل ، أن يقيم في مكان بحيث يؤلف أسرة له ، فليس له ابن
ولا بنت كما كان الرسول بنت . وإذ كان لا بد له أن يتخذ ولداً
أو أولاداً يعتمد عليهم ويحلون محله في يوم من الأيام . وظهر عبد المؤمن
في طريقه .

• • •

وهنا نتاج رواية البيهقي خطوة بخطوة ، فإن بساطتها
وإخلاصها مع السذاجة الشديدة فيها لما يدل على أنه تعوزها الدقة ،
على أنها شيفة تستهوى النفس . لقد وردت أخبار أخرى موجزة غير

أصيلة ، فيها ذكر لاجتماع ابن تومرت وعبد المؤمن ، وإنما ينبغي أن نرفضها ونكتفي بالثقة في الشاهد العيان .

بين تلمسان والبحر الأبيض المتوسط تمتد بلاد جبلية غنية بغاباتها ، أهم مراكزها العمرانية اليوم ندرومة ، وكانت هذه البلاد في العصور الوسطى تشمل أرض كومية وهي قبيلة بربرية الأصل ولكنها تعربت منذ فجر الإسلام ، ولا شك أنها تخلت في عهد ابن تومرت عن الثنائية اللغوية منذ زمن بعيد ، وما يسترعى النظر حقا أن قبيلة كومية تتميز بمفردها من بين سائر جماعات الموحدين ، المذكورة في كتاب الأنساب ، بأن الأسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها من الأسماء البربرية ، وينبغي الرجوع في شأن أصولها إلى ما كتبه وليام مارسيه . وفي القرن الثاني عشر كانت هناك عدة قرى منها قرية تاجرا التي ولد فيها عبد المؤمن .

وكان عبد المؤمن ، كما يذكر بعض المؤرخين ، ابن قاضي هذه القرية ، أو ابن فخار فيها كما يذهب إلى ذلك البعض الآخر . وهناك ما يبعثنا على الافتراض بأن فروي تاجرا ، ما كاد يواتيه الحظ ، حتى أشاع هو أو أحد أقاربه ، أن أباه كان أديبا وقاضيا ، ويحسن أن نحفظ له بمهنة الفخار ؛ ويغلب على الظن أنه كان فلاحا صغيرا ينفع بأوقات فراغه التي تنأى له من زراعته للحقول الصغيرة ، شأن كثير من مواطنيه في وقتنا هذا ، في صنعه للأواني الفخارية الشائعة الاستعمال

في المغرب ، بحيث يمكن أن تستبدل بغيرها في المنزل بسهولة بقدر ما يمكن كسرها ، وكان يحملها إلى السوق المجاورة أو إلى تلسان . وكان يسمى علي بن علوي بن يعلى ، وزوجته تدعى تعلو بنت عطية ابن الخير ، فهل نحن بحاجة إلى القول بأن أبوى عبد المؤمن لم يدعيا رفع نسبهما إلى النبي (ص) بواسطة الإدريسين ، وأن سائلة الانساب الشريفة التي ألحقت بهما بعد ذلك لم تكن إلا موضوعة اقتضتها حاجات الدعوة ؟ وقد ولد لعلى وتعلو ثلاثة أبناء هم : يوسف ومحمد وعبد المؤمن ، ولما مات علي بعد ذلك ، تزوجت تعلو آخر من نفس القبيلة ، فأنجبت منه بنتاً ، اسمها فندة . وكان لعلى أخ على الأقل اسمه يعلو ، ويروى البيهقي كيف أن الحظ قد حالف عبد المؤمن منذ ولادته وكتب له المجد ، وتلك أسطورة شيقة جديدة بأن تروى : وقد ردد ابن الأثير صداها في تاريخه ، قال : « رأت أم الخليفة - وكانت حاملاً به - كأن النار تخرج منها فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلسان : لا بد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف . وكذلك كانت تعلو تحصد الزرع مع زوجها ، وأمه به حامل ، فجاءت للفدان واضطجعت نائمة ، فأقبل بتندان من نمل فنزلا عليها ، فلما ولد ابنها أتت الفدان فلقطت السنبل وتركتها نائمة فنزل أيضاً عليه النمل أكثر مما كان نزل على أمه وهو في جوفها ، ثم قام النمل عنه واقترق فرقتين ، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب . فقال علي : الله أكبر ، هذا هو الذي قال الفقيه

بتلمسان . فلما رجعوا من الفدان ، قال الأب لزوجته : « احفظيه فإنه لا بد له من الأمر الذى ذكره الفقيه المفسر » .

وشب عبد المؤمن حتى بلغ مبلغ الرجال ، وأرسل منذ صغره إلى المكتب فى تاجرا ، ونشأ الغلام على الحفظ والقراءة ، وليس من شك فى أنه ذهب إلى جامع تلمسان ليتلقى العلم ، ثم عزم على الذهاب إلى المشرق ، مركز الدراسات الإسلامية ، عندما تبين له أن التعليم فى المغرب لا يشفى غلته ، وكان والده قد مات وتزوجت أمه بعد ذلك ورأى عمه أن يرافقه ، فقصدا بحاية ليركبا منها أول سفينة تمضى إلى المشرق ، ويمكن أن تمثل هذا الشاب المجد ، فلا شك أنه كان فى منظره الخارجى ميسور الحال ، نصف متحضر ونصف قروى ، من أمثال من تمكظ بهم فى وقتنا هذا أزقة الأحياء القديمة بمدينة فاس ، وقد جمع النواضع والأحياء اللذين يتسم بهما من كان فى مثل سنه ، وكان ذا نفس يقظة طليعة ، متعطشا للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد . وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

• • •

نزلا بادية ذى بدء فى بلاد مَتيجة حيث أقام بها عدة أيام ، ثم ارتحلا حتى وصلا بنى زلدوى فى سلسلة جبال قبيل . ووصلا أخيراً إلى بحاية ، ونزلا فى مسجد الريحانة ، فلما صلبا الصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه ، فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضه :

ومن الفقيه ؟ قالوا له : السوسي ، هو عالم المشرق والمغرب وما مثله
إنسان . . كان ذلك هو الاسم الذي أطلق على ابن تومرت واكتسه
من رحلته البعيدة . ونصده عبد المؤمن إلى ملالة رغبة في سماع هذا
الاستاذ الذي أثروا عليه لفصاحته وعلمه ، ونزكه عمه ، ولم يكن طلعة
مثله ، يذهب ، وأوصاه بأن يسرع ولا يتمهل . ورواية البيهقي عن
مقابلة ابن تومرت للخليفة المقبل ضعيفة في بعض النقط ، وما إن شاهد
الاستاذ تلميذه الجديد حتى عرف فيه ، المختار ، فقربه منه وأنبأه باسم
قريته واسم أبيه ، فتعجب الناس من ذلك تعجبا بالغا . ثم ختم الفقيه
كلامه بقوله : « العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب . .
فلما انصرف الناس من القراءة أراد عبد المؤمن أن ينصرف ، فقال
له المعصوم : « نبيت عندنا بإشاب ، فقص ليملته في ملالة . ولندع هنا
الكلام للبيهقي ، قال : فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة
رضهما ، وسارا ، فلما كان نصف الليل ناداه المعصوم : يا أبا بكر ادفع
لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر . فدفعته له ، وقال لي : « أسرج لنا
سراجا . فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج
أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن
ابن علي ، سراج الموحدين ، فبكي الخليفة عند سماع هذا القول
وقال : يا فقيه ، ما كنت في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يظفرني
من ذنوبي . فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا
على يدك ، ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم

وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله يبارك الله لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحدّر .

هل هذه الرواية صحيحة ؟ على أى حال فإن المؤرخين الآخرين قد نقلوا ما يقرب منها ، ولعلمهم قد أخذوا عنها مباشرة ، ولم تكن روايتهم بمثل تلك الدقة ، والشأن في عبد المؤمن أنه طالب تعلق بأستاذ قد استهوته بلاغته وتحمسه ووضوح أفكاره وحرصه الدائم على التمسك بالدين . وليس ذلك محالا ، هذا إلى أن عبد المؤمن جندى وقع عليه الاختيار ولكنه لن يكون وحده ، فقد أفضى به أستاذه إلى الدور الذى أعده له ، ولم يدع له فرصة للراحة ، وطال المقام فى ملالة ، ومضت شهور كثيرة ، وفى كل يوم كان ابن تومرت يفكر ويحسب ويعدّ فرص النجاح لحركته السياسية التى يرغب فى تنفيذها معتمداً على الإصلاح الدينى ، ترى ماذا يحدث فى منبته الجبل ومسقط رأسه بمراكش ، تلك المدينة التى أفسدها تساهل المرابطين ، أولئك الجلبليون المثلثون ، والمجسمة المفسدون ؟

وذات مساء حضر رجلان ، فهل كانا رفيقين أو رسولين أو فدا إليه ؟ لقد زعما أنهما فى طريقهما إلى المشرق قادمين من الأطلس ، لا يعرفان من العربية شيئا ، وفقه سوس وحده هو الذى تولى مخاطبتها بلغتهما ، يسألها ويدور الحديث حول بلاد درن ، ولا شك أن حديثها يبعث على الرضى ، ثم يذهبان ويحجى الليل ، فبأمر ابن تومرت بالرحيل فى اليوم التالى ، وتأخذ آلة الموحدين فى الانطلاق إلى غايتها .

الفصل العاشر

الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوروبا
في العصر الوسيط

هذه محاضرة أُلقيت في ١٥ مارس سنة ١٩٤٨

بالمعهد الفرنسي بمدربر

. أود أن أستعرض هنا المشكلة التي أثرت منذ سنوات عديدة بشأن العلاقات التي قدر لها أن تقوم بين الشعر الأندلسي الشعبي والشعر الذي ظهر منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى فى جنوب ووسط فرنسا أولا ، ثم فى شمال شبه جزيرة أيبيريا وإيطاليا بعد ذلك ، ويعرف هذا الشعر باسم شعر التروبادور Troubadours إن ورد فى لغة الجنوب ، وشعر الترووير Trouvères إن ورد فى لغة الشمال ، أو شعر الشعراء المنشدين Juglares إن ورد فى اللغة المشرقية .

وخذه المشكلة من المشاكل المستعصية ذات الجوانب المعقدة ، وسأحاول بقدر المستطاع أن أحدد وضعها فى وضوح ، وسأبين بعد ذلك النتائج التى انتهت إليها بعد أن قابلت بين الحجج اللغوية والتاريخية التى تساق تأييداً للنظرية التى أسود اليوم بين بعض علماء الدراسات الرومانية ، ومقتضاها وجود صلة القرى بين هذا الشعر وذاك . ولكن يحسن قبل كل شيء ، أن نذكر بإيجاز الخصائص الأساسية للشعر العربى الشعبى بإسبانيا . لقد ولد هذا الشعر فى شبه جزيرة أيبيريا منذ نهاية القرن التاسع ، وكان ظهوره بلا شك نتيجة لخضوع الشعر العربى الفصيح لقوالب عروضية صارمة ، فالقصيدة تخضع لقواعد معينة ثابتة فيما يخص يبحرها الذى لا يتغير من مطلع القصيدة إلى آخرها مهما طالت ، وكذلك فيما يخص بالقافية التى لا تتغير أيضا من البداية إلى النهاية ، على حين أن الشعر الشعبى الذى اخترعه أعمى

قبرة مقدّم بن معافى ، فى رأى بعض المصنّفين الأندلسيين ، يجوز فيه للشاعر أن يستخدم بحوراً أخرى غير بحور العروضيين ، ويخالف بين أقولفى فى القصيدة الواحدة ، وقد تكون لغة هذا الشعر نصيحة ، وهذا شأن الموشحات ، وقد تكون دارجة ملاحوتة وهذا شأن الأزجال . فالموشحة والزجل لا يختلفان من حيث تركيبهما اللفظى فى اللغة المستعملة ، ثم هما يختلفان فى شئ آخر هو أن الموشحة تنهى فى الغالب بيتين يعرفان بالخرجة ، يصوغها الوشاح فى لغة دارجة أولغة رومانسية . وإذا أخذنا مثلاً نقف منه على تركيب الموشحة والزجل رأينا أنهما يتألفان أولاً من مطلع يسمى «المركز» وهو يشتمل على غرض الموشحة . وتلتزم فى جزأى المركز قافية واحدة ، ثم تلى ذلك أبيات يتباين عددها ، فالأمر فيها ، وكول إلى الشاعر : وكل منها يتألف من أربعة أجزاء ، الثلاثة الأولى منها متحدة القافية والجزء الرابع تنفق قافيته مع قافية المطلع ، بحيث يذبح عن هذا التركيب الصورة التالية :

ا - ا ؛ ب - ب - ب - ب - ا ؛ ج - ج - ج - ا و دلم ج را . والأجزاء الثلاثة الأولى فى كل بيت تسمى «الأغصان» ، أما الرابع الذى تنفق قافيته مع قافية المطلع فيعرف «بالسمط» ، وللوشاح أن يعتمد على صور أخرى ، بأن يؤلف المطلع مثلاً من ثلاثة أجزاء على النحو التالى

ا - ب - ج ، والأبيات من ستة أجزاء على الوجه التالى : د - د - د - د - ب - ج . أما الزجل فليس لإنتاجاً شعرياً يقصد به الغناء ، الأمر الذى يفسر تقطيعه الموسيقى ، ويمكننا أن تصور الاجتماعات

التي كانت تنشد فيها هذه الأشعار ، فهي فرقة موسيقية مؤلفة من عواد وزامر في الناي وضارب على الدف أو ضارب بالصنوج ، تصحب المغنى أو المغنية التي تبدأ بالمطلع ثم تستمر في إنشاد الأبيات ، فإذا بلغت الجزء الرابع من كل بيت ، وهو يذكر من حيث القافية بالمطلع ، رددته معها البطانة .

وإذن فالرجل يمتاز قبل كل شيء بتكرار القافية الواحدة في نهاية كل بيت ، وهو نوع ولد من تلقاء نفسه في إسبانيا ، ويذهب عالم الدراسات الرومانية الكبير منندث بيدال ، في تحليل ازدهار هذا النوع بشبه جزيرة أيبيريا في العصر الوسيط ، ثم انتشاره العجيب في الشرق العربي ، مذهبا يدل على أعمالة في التفكير ، فالرجل يعد في رأيه حلقة الاتصال التي ربطت الموسيقى الأيبيرية في التراث اللاتيني واليوناني بالموسيقى الإسبانية الحالية . وفي هذا يقول : « يخيل إلينا أن الرقصات الأندلسيات اللاتي نراهن اليوم يفسرن في الآفاق الأدوار الغنائية المعروفة في إشبيلية ومالقة ورندة وغيرها على دقات الصنوج لسن إلا سليلات لفتيات قادس Puellae Gaditanae ، اللاتي استطعن ، على ما ذكر جوفينال Juvénal أن يحملن ، برقصهن وصلصلة صنوجهن البرنزية ، صبت الأغاني العذبة الأندلسية Cantica Gaditana إلى آفاق بعيدة حتى بلغت روما في عهد تيتوس ونراجان . وكان الشباب الروماني المترف لا يكف عن التغنى بها وترديدها . »

وبما لاشك فيه أن هذا الرجل الإسباني قد دخل إسبانيا المسيحية ،

ولكنه دخلها في وقت متأخر بعض الشيء في صورة إنتاج أدبي كتب باللغة القشتالية ، فوجد في ديوان باينا Cancionero de Baena أزجالا قشتالية التزم واضعواها الصورة اللفظية للزجل العربي . وهذه المجموعة من الأغاني لا تتجاوز القرن الرابع عشر ، وفي نفس الوقت نجد أن للاصطلاحات العربية التي تطلق على العناصر الرئيسية للزجل ما يرادفها باللغة القشتالية من ألفاظ تحمل دلالتها ، فالمرکز ، أو المطلع يسمى Estribillo ، والأغصان أو الأجزاء الثلاثة الأولى من الأبيات تسمى La Mudanza ، والسمط يسمى la Vuelta .

ولنعرض الآن للشعر الغنائي المكتوب باللغة الجنوبية واللغة البروفنسية لننظر في إمكان وجود علاقات بينه وبين الشعر الأندلسي من وجهة النظر اللفظية .

وإلى المستشرق الإسباني خليان ريبيرا يرجع الفضل في وضعه لأول مرة منذ ١٩١٢ النظرية القائلة بأن التماثل في تركيب الأبيات وتعاقب القوافي كما نجده في النتائج الأصلية للشعر الشعبي الأندلسي ، وفي أغاني التروبادور الأيكتانية والبروفنسية في العصور الوسطى ، لا يمكن أن نفكره بكونه ثمرة المصادفة البحتة ، ثم ذهب المستعرب الجليل في الخطبة التي ألقاها بالمجمع الملكي الإسباني إلى أنه كان يوجد في إسبانيا الإسلامية مع اللغة العربية لغة دارجة لاتينية يتكلم بها السواد الأعظم من الناس سواء في المدن أو في القرى ، وهذا الذي جزم به ريبيرا كان ينظر إليه في إسبانيا وغيرها منذ خمس وثلاثين سنة

على اعتبار أنه خطوة جريئة ، ثم ثبت اليوم ثبوتاً يقينياً ، بعد الوقوف على قرائن وأدلة ترجع إلى ذلك العصر ، وبعد الذى ذكره ابن حزم فى القرن الحادى عشر ، فقد أشار فى كتابه « جهرة أنساب العرب »^(١) إلى أن جماعة كانت تقطن فى عصره بشمال قرطبة ، فى ناحية أجيلار حالياً وهم من بنى بلى - من قضاة لا يتكلمون إلا العربية على عكس سائر مواطنهم ، قال : « ودار بلى - بالآندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نسأوهم ورجالهم »^(٢) .

وهذه العشرة الدائمة التى اتصلت قرونأين لغة الآندلسيين واللغة الإسبانية ، وكانت وقتئذ فى طريقها إلى الثبات والاستقرار ، هى إحدى الملامح البارزة فى وجه إسبانيا الإسلامية . فقد كان إحساس المسافرين القشتالى أو الليونى أو البشكنسى بالغربة وهو فى إسبانيا الإسلامية أقل من إحساس المسلم الوافد من الشرق ومن شمال إفريقيا أيضاً ، وذلك للاتصال القائم فى الحياة اليومية . ويمكننا أن نمضى فى هذا الطريق إلى حد التساؤل : ألم يزدهر فى الآندلس مع الزجل الآندلسى ، زجل آخر رومانسى مكتوب بالعربية ؟ لكن الافتقار إلى النصوص والوثائق قد ينتج عنه عكس ما نريد إثباته ، وقد عمد ريبيرا من جهة

(١) نصر المؤلف هذا الكتاب بالقاهرة ط . دار المعارف ١٩٤٨ ، ولم يكن

قد ظهر عندما ألقى هذه المحاضرة

(٢) جهرة أنساب العرب ص ٤١٥ .

أخرى إلى البحث في المصادر العربية أيضا وخاصة التاريخية منها ، عن آثار دالة على وجود شعر للملاحم على نحو ما وجد الشعر الغنائي والوصفي في الأدب الأندلسي ؛ وأفضت به استنتاجاته إلى القول بوجود شعر شعبي أندلسي للملاحم ضاع ولم يبق له اليوم أثر ، ثم انتقل إلى دراسة التأثيرات الممكنة بين شعر الملاحم الفرنسي وشعر الملاحم القشتالي ، فخلص منها ، وكان في ذلك رائداً للباحثين . إلى أن تركب الشعر الغنائي الذي اخترعه أعمى قبرة وصوره ابن قزمان بعقريّة ويزودنا بمفتاح المر الذي يفسر تركيب الصور الشعرية في مختلف النظم الشعرية الغنائية التي عرفها العالم المتحضر في العصور الوسطى ، . وعمد ريبيرا بعد ذلك في دراسات متأخرة حول نصوص وموسيقى أناشيد سانتا ماريا Cantigas de Santa Maria وأشعار التروبادور والتروبير والمنسجر ، إلى إثبات أن الأشكال العروضية الأندلسية قد سلكت نفس السبيل الذي سلكته النظم الكلاسيكية الأخرى التي انتقلت دون انقطاع من اليونان إلى روما ، ثم من روما إلى يزنطة ققارس وبغداد ، وبعدئذ إلى إسبانيا ومنها إلى سائر أوربا .

وظهر في الأعوام الأخيرة حول هذا الموضوع المثير عدد من الدراسات التي قام بها متخصصون ، يميل بعضهم إلى الأخذ بنظرية الأصل العربي ، ويعمد الآخرون إلى دحضها بقوة . ومن الفريق الأول عالمان في الرومانيات لم يتناولوا شعر ابن قزمان بالتحليل إلا ليلمس فيه الاحتجاج الذي يؤيد نظريتهما : وهما أ . ر . نيكل والتشبيكي

والمرحوم و. ج. توليو - تلجرن الفنلندي ، ثم ظهر في فرنسا
من نحو ثلاث سنوات كتاب قيم عنوانه : التروبادور والشعور
الرومانسكي Les Troubadours et le sentiment romanesque
بسط فيه مؤلفه م. روير بريفو آراء نيكل وتوليو تلجرن دون أن
يضيف إليهما حججاً جديدة قاطعة .

أما النظرية الأخرى فأول من ينبغي ذكره من دعائها العالم
البرتغالي رودريجيس لابا . ففي كتابه الذي ظهر عام ١٩٢١ عن أصول
الشعر الغنائي في البرتغال ساق أمثلة لآليات منحدة القافية تتألف من
ثلاثة أجزاء وجدها في شعر القرن الثاني عشر اللاتيني ، وراح يثبت
أن التركيبات العروضية كانت معروفة في أوروبا قبل عهد الشاعر
القرطبي ابن قزمان . ومن ثم فمع إقرار أيل الألمانى وچاروى
الفرنسى ، وهما أجل عالين في الدراسات البروفسية من المعاصرين ،
بأن نظرية التأثير العربى لا يجوز نبذها وإطراحها جملة ، يذهبان إلى
أنها لا تثبت بالصورة التى أيدت بها حتى الآن ، ثم يذهبان إلى أن كل
ما فى الأمر هو أن شعر التروبادور ، ربما ارتبط ببعض الآثار الشعرية
التي تجرى على قافية واحدة من الشعر اللاتينى فى العصر الوسيط .
وأخيراً كان من أهم الأبحاث التى كتبت فى هذا الموضوع ، البحث
الذى عقده اللغوى والمؤرخ الإسبانى الكبير دون رامون منندث
بيدال ، وعنوانه : « الشعر العربى والشعر الأوروبى » La Poesia
árabe y poesia europea وقد ظهر فى سنة ١٩٤١ ، والنظرية

التي بسطها على الضد من نظرية ايبيل وچانزوى ، فقد تجاوز المؤلف الشعر المكتوب بلغة الجنوب والنمس أمثلة للقرص من الشعر العربي في الشعر الجليلي وفيما تضمنه كتاب الارثرست دى هينا المعروف بـ

Buen Amor

ولا يخفى منذئذ يبدل اعتقاده أن الزجل الأندلسي قد انتشر في الغرب الأوربي بقدر السرعة التي انتشر بها في الشرق العربي ، والدليل على ذلك ، في رأيه ، أن أول شاعر غنائي معروف كتب بلغة لاتينية حديثة دارجة وهو جيوم التاسع دوق أكتانيا ، قد استعمل على وجه التحديد الإطار العروضي للزجل ، إلا أن هذا الرأي يناهضه أصحاب الدراسات البروفسية للسبب الآتي ، وهو أن جيوم التاسع ومن سلك سبيله من تروبادور اللغة الجنوبية القدامى وهم جوفرى رذيل ، وماركابرى ، ويرفيدال وسيركامون وبيركاردبنال ، استخدموا تراكيب عروضية تتألف من ثلاثة أبيات ، مع جزء رابع تتردد قافيته في جميع الأبيات ، لكنهم يهملون استعمال المركز لـ *Estribillo* ، وهو عنصر ثابت في الزجل الأندلسي ، وهذا شأن الأنشودة الشهيرة لجيوم التاسع التي نسوقها توضيحاً للآراء التي بسطناها ، وهذه الأنشودة هي الحادية عشرة من ديوانه ومطلعها :

“Pois de chantar més pres talenz,
Farai un vers, don sui dolenz,
Mais non serai obedienz,
et Peiton ni en Lemonzi.”

« ما دمت أقدر على الغناء فسا أنظم أغنية في آلامى وأنا المحب ،
 لن أتعلق بعد اليوم بطاعة المحبوبة لا فى بواتو ولا فى ليموزان . »
 وتشتمل هذه الأغنية على عشرة أبيات يتألف كل منها من ثلاثة
 أجزاء متحدة القافية ، ثم جزء تتردد قفيته وهى حرف « i » ، فى جميع
 أبيات القصيدة . وانعدام البيت المؤلف من جزأين قافيتهما متحدة ،
 فى الشعر البروفنسى ، لا يعد فى نظر منتدث بيدال دليلاً قاطعاً لما يبد
 نظرية المنكرين للتأثير العربى ، وتبريراً لهذا الوضع عمده العالم
 الإسبانى إلى تدليل لا يفضى إلى الاقتناع الكمال . فهو يرى أن هذا
 البيت قد سقط من الشعر البروفنسى ، خلافاً للزجل الأندلسى ، لأن
 هذا الشعر لم تكن تصحبه الموسيقى أثناء إنشاده ، وإنما كان من شعر
 البلاط ، وينشده تروبادور يحمل آلة موسيقية دون أن يردد البيت
 أحد من الحاضرين ، وكانوا يتصرفون على عدد قليل من الناس
 هم السيد والسيدة وبعض الأقارب والأتباع . وهناك شكاة أخرى
 ترد على الخاطر بمجرد أن يذكر المرء أن التروبادور أو الشاعر الشعبى
 كان موسيقياً أيضاً . وأصحاب الدراسات البروفنسية ، وهذا لما يجب
 الإقرار به ، لم يحصوا هذا الجانب من المشكلة ، فهم يلامون على
 أنهم تعمقوا فى دراسة الشعر الغنائى للتروبادور دون أن يحاولوا فى
 نفس الوقت تحديد الموسيقى التى بنى عليها هؤلاء الشعراء أشعارهم ،
 قالوا قمع أننا لا نعرف فيما يتعلق بهذه النقطة شيئاً كثيراً على الأقل فيما
 يختص بفرنسا ، ومن المحتمل مع ذلك أن أشعار التروبادور كانت ترتكز

أثناء إنشادها على دور بسيط جداً ، يردد عند كل بيت ، فهل كان هناك ارتباط بين هذا الدور البروفنسى والأوكتافى وبين غناء الزجل الأندلسى ؟ هذا مما لا يحتمل أن نعرفه قط .

ومهما كان الأمر ، فإن الاتفاق فى التراكيب العروضية ليس بأقل جوانب المشكلة اضطراباً ، ثم لا يكاد يضى قرن على عصر قدامى التروبادور البروفنسيين حتى نشهد انبثاق شعر خفيف فى أوربا الغربية وفى فرنسا يتألف من مقطوعات وقصائد مبنية على قافيتين . يعود فيها إطار الزجل مع الدور إلى الظهور . وبعض هذه القصائد يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر ، ولكن جُلها يرجع إلى القرن الثالث عشر ، ذلك شأن قصيدة *la Belle Aëliz* أو القصيدة الواردة فى "Jeu de Robin et Marion" للشاعر آدم دى لاهال (١) .

أما فى إسبانيا ، فقد كتب لهذا البيت الأندلسى أن يذيع ذبوعاً عظيماً سواء فى شعر البلاط أو الشعر الشعبي ، فنراه فى خمس وتلاثين وثلثمائة قطعة شعرية من أربعمائة قطعة يتألف منها مجموع أناشيد الفونس العاشر ، كما نراه فى عدة أغان تضمنها الديوان الذى جمع فى نحو سنة ١٥٢٠ وأطلق عليه الديوان الموسيقى .

وهكذا يتبين لنا المكان الذى يحتله موضوع القرض ، التحليل ،

(١) آدم دى لاهال *Adam de la Halle* تروبير من شعراء القرن الثالث عشر ، و "Jeu de Robin et Marion" تمه أقدم أوبرا كوميدية معروفة

إن صبح هذا التعبير ، وحتى إذا كان التشابه بين الشعرين من حيث التركيب اللفظي لم يتقرر بصورة تدعو للاقتناع المطلق ، فليس أقل من أن يوجد بينهما نوع من صلة القربى التى تعد الرغبة فى إنكارها مظهراً للحس البليد . ولكنى ، فى سبيل إضفاء قيمة الحقيقة التى لا نزاع فيها على هذه القربى ، أقر أنى ربما كنت أميل إلى الحجج التاريخية وإلى التوافق بين الأغراض المستعملة ، منى إلى الحجج اللغوية . ولذلك فإلى هذا التماثل فى الأغراض ثم إلى الحجج التاريخية بالذات ، أود أن ألفت النظر الآن .

• • •

لا بأس أولاً من أن نعرض لجانب من المشكلة لم يتناوله أحد من قبل ، فيما نظن ، وبالتالى لم يحله أصحاب الدراسات الرومانسية الذين مضوا فى كشف الشعر الشعبي الأندلسى ؛ ذلك أن هذا الشعر ، شأنه فى ذلك شأن شعر التروبادور الذى يرجع إلى أقدم العصور ، لم يكن يميل ، كما كان الظن غالباً ، إلى تمجيد الحب الشريف وحده ، والحب الشريف أو الروحى أو الأفلاطونى مرادف لما كان يسميه العرب فى إسبانيا « حب المرومة » . وكانوا ينعتونه فى الشرق الإسلامى « بالعذرى » ، وإذن فكل ذلك يوحى بأن هذا التمجيد للحب الروحى الذى اصطبغت به آثار شعرية كثيرة فى العصور الوسطى قد استعارته أوروبا المسيحية من إسبانيا الإسلامية ، ولا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير إلى الكتاب القيم الذى صنفه أبو محمد على بن سعيد بن حزم

الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ أى القرن الحادى عشر الميلادى . فى
الآلفة والآلاف وهو الموسوم ، بطوق الحمامة ، ، إذ بسط فى هذه
الرسالة وقد كتبها سنة ١٠٢٢ م ، نظرية المثالية فى العشق التى تتفق
وما نستخلصه من الدراسة المقارنة لموضوعات الحب عند بعض الشعراء
التروبير ، وابن حزم فى كتابه هذا عن الحب ، وقد نقل إلى عدة لغات
أوربية وكانت الترجمات سقيمة فى الغالب ، لم يأت والحق يقال ،
بالجديد الأصيل فى هذا الباب . فرائد النظرية القائلة بالحب الروحى ،
وأبطاله من قبيلة بنى عذرة التى تسكن شمال المدينة ، مما أفضى إلى إطلاق
اسمها على ما يرادف فى العربية (الحب الشريف) شرقى لم يقتصر على
الشعر وإنما كان فقيهاً من فقهاء بغداد ونعنى به أبا بكر محمد بن داود
الظاهرى الأصمهانى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ، فإنه يرجع الفضل ،
على ما ذكر ماسنيون فى وضع ، أول تأليف شعرى فى الحب
الأفلاطونى ، ، ولعل كتابه الذى سماه ، الزهرة ، قد انتشر فى إسبانيا
أكثر مما انتشر فى المشرق ، وأتى فيه على تحليل بارع للنظرية التى
شاعت فى بنى عذرة سواء من تلقاء أنفسهم أو بحكم تأثيرات لم تتضح
بعد ، طرأت على أبناء هذه القبيلة . ولقد أحسن غرسية جوميث فى وصفه
إياهم حين ذكر أن مذهبهم فى الحب يقوم على ، الدوام الممض للرجبة ،
فكذلك كان شأن الشاعر جميل وصاحبته العفة بثينة ، عرفا ، فيما
تروى الأسطورة العربية ، رهبة الشهوة وأحساها . لكن لعل الذى
لم يتبين بجلاء ، ولم يُعرض بوضوح فى الدراسات الحديثة عن الشعر

الشعبي الإسباني والشعر فيما وراء جبال البرانس هو أن الزجالين وتروبادور أو كتابا وپروفنسة قد احتفلوا إلى جانب الحب الشريف ، بالحب الحسى ، وعمدوا فى ذلك إلى أساليب من التعبير ، فجاءتها لا يمكن أن تحمل أية ترجمة إلى لغة حديثة ، فأمثال أزجال ابن قزمان التى لا يمكن ترجمتها إلى لغة ، لا تستهين بالشرف ، لها نظائرها فى بعض الأشعار المصطنعة بالصيغة الواقعية ، وخاصة قصائد التروبادور ماركارى ، وعلى هذا فإذا كان التماثل فى الاحتفال بموضوعات الحب فى كلا هذين الشعرين يعتبر دليلا ، لا سبيل إلى إنكاره ، على الصلة المتبادلة بينهما ، فإن التماثل الآخر فى طرق موضوعات مبتذلة أحيانا من موضوعات الحب الحسى وليست من الحب الروحى ، مما يؤيد أيضا النظرية التى عمل على دحضها أصحاب الأدب الپروفنسى ولاسيما ألفريد جانروى .

فلقد عمد فى كتابه الجليل عن الشعر الغنائى عند التروبادور La poésie lyrique des Troubadours ، وقد ظهر فى ١٩٢٤ ، إلى تحليل الأسباب المختلفة التى أدت إلى ازدهار الحب الشريف فى المجتمع الإقطاعى ، أثناء العصر الوسيط الأعلى ، وتأصيل قواعده ، مما كان له أعماق الأثر فى تكمير أنواع الأدب كله من شعر إلى قصص فى الحب إلى قصص فى الفروسية ، وربما كانت هناك علاقة ، غير واضحة ، بين تطور الحب الشريف وتطور التصوف فى العصر الوسيط .

وأياماً كان الأمر فلا معدى من تقرير أن الحب الشريف ماذا كما
تصوره في إسبانيا الإسلامية ، وأحسن ابن حزم تحليله في طوق الحمامة ،
واحتفل به الشعراء الذين ينظمون شعراً معرباً أو الذين ينظمون
شعراً ملحوناً ، لم يتناوله قدامى التروبادور على نحو يختلف اختلافاً
كبيراً عن أسلوب هؤلاء ، وخلقت الشاعرية من حول العاشق
ومعشوقته وهما يلعبان الدور الرئيسى ، مجموعة من الشخصيات الدائرة
في فلكهما ، وهى فى الجملة شريرة ، تحتل الجانب الخلفى من المسرح .
والعاشق فى الأزجال وفى أغاني التروبادور عرضة لصنوف واحدة من
الآلام والمذلة والخديعة ، وفى كثير من الشعر التولوزى والبروفنسى
ينكرر مثلاً لفظ *gardador* أى الرقيب على المرأة يحرسها الزوج
أو الغريم ، وكذلك الشأن فى الشعر الأندلسى وفيه شخصية يطلقون
عليها اسم « الرقيب » . ولم يكن ذلك من خلق العصر الوسيط ، فبلوت
وأوفيد يشيران فى الأدب اللاتينى مراراً إلى من يسميانه *Pediosus*
custos Puellae أو *Vigil custos* . ولكن يمكن أن يقال إن
التروبادور فى هجائهم الرقيب بدورهم ، لم يجرؤوا على تقليد دارس فى
الأدب القديم ، بل على العكس من ذلك توحى القرائن بأنهم استعاروا
الشخصية من الشعر الشعبى الأندلسى . ومع ذلك فليست هناك شخصية
سوى الرقيب *gardador* تعسكر صفو المحبين فى هذا الشعر أو ذاك ،
ثم نراهم يضيّقون ذرعاً بطائفة من الثغلاء ، كالنمايين *lauzangies*
عند التروبادور ويسعون فى الوقعة بين المحبين ، ثم الحساد *encijos*

والزوج الغيور Oilos ، وفي الشعر العربي ما يماثل ذلك كالنهام
والحاسد والعاذل .

ولابن قزمان قطعة من زجله الثاني والثلاثين يقول فيها :

احتفظ يا عاقل

ما يقول العاذل

قولوا قول باطل

فالرقيب والنهام

هم يقيموا الشر

على ساق .

ومن أسباب توفيق العاشق تبعاً لنظرية الحب الشريف ، سواء
في إسبانيا الإسلامية أو في فرنسا الجنوبية ، طاعته التامة لمعشوقته ،
وفي هذا نوع من العبودية الغرامية ، صيغت في كلا الشعرين بنفس
الصورة ، وقد نقل صاحب كتاب Disciplina Clericalis الكلمة
المشهورة « إن المحب لمن يحب مطيع » ، qui amat obedit ، وكانت
هذه الطاعة للشخص المحبوب موضع تحليل نفسى دقيق أجراه ابن حزم ،
كما نجد هذا المبدأ نفسه عند جيوم التاسع الذى يستعمل لفظة المطيع
obediens للدلالة على العاشق ، ويسمى سلوكه حياى محبوبة قلبه
باسم الطاعة Obedienza . وهناك أمر آخر جدير بالاهتمام ، ذلك
أن المحب عندما يخاطب محبوبة في الشعر العربي ، يسميها بصفة عامة
« سيدى ومولائى » ، فى صيغة المذكر لا فى صيغة المؤنث « سيدتى
ومولاتى » . والشعراء التروبادور يسلكون هذا السبيل فيقولون

« سيدى Midons ، بدلامن « سيدتى Madonna . . ثم إن التروبادور والزجال يغترقان من بحر واحد فيما يتعلق بموضوعات الحب ، ويدلان على أنهما يستقيان من مصادر متقاربة جداً ، وقد لا يجد الشاعر جزاء على « طاعته » ، والشاعر يعرف ذلك ويأسف له أو يلتمس العزاء عنه ، ثم إن العذاب الذى يسببه الحب الذى لا يشفى نفسه ، يتيح له نوعاً من اللذة ، لكنها «لذة ممضة» . وهذا التناقض فى الحب الذى يسميه التروبادور « الفرحة Joy » له نظيره فى الشعر العربى الشعبى فيما يعرف « بالطرب » ، وقد ذهب البعض من من تحفظ فى الأخذ برأيهم ، إلى حد إقامة الصلة اللغوية بين هذه الكلمة العربية « طرب » وبين كلمة تروبادور Trobador على اعتبار أن هذه مشتقة من تلك ، وهو أمر لم يأت أحد فيه إلى الآن بحجة مقنعة . ومن الممكن أن نمضى إلى أبعد من هذا فى التنظير بين الأغراض المستعملة فى كلا الشعرين الإتيان بحجج جديدة ، تؤيد النظرية القائلة بوجود صلة قرب بينهما . وهناك إلى جانب موضوعات الغزل والحب بمعنى الكلمة ، أغراض أخرى طالما تحكمت فى اتجاه الشعراء ، وأوحى إليهم بقصائد تعد من أجمل ما جادت به قرائحهم ، ومن ذلك وصف الطبيعة عند استيقاظ الربيع ، على أن الجمع بين موضوع وصفى أو يتعلق بالازهار ، وبين موضوع غزلى قد يكون من غير شك ثمرة لجرد التوافق فقط ، وما ظفرتنا به فى هذا الباب على الأقل ، ما فى الشعر الأوكتائى وفى الشعر الأندلسى من لوحات رائعة نرى فيها الزهر يفتح على سوقه ،

ونسمع البلابل تغرد الحائاً شجوة كأنها تشجع العاشق المعذب .
ومن الأغراض المشتركة بين الشعراء المدح ، فالشاعر - فيما عدا
جيوم التاسع - شريد بائس . وقد كان ماركابرى وجوفرى روديل
وكذلك ابن قزمان من الشعراء الصعاليك ، فكان لا بد لأحدهم إذ
يطمع في ضيافة أو عطاء من ممدوحه من أن يتقنى بمدحه . على أنه قد
يحدث أيضاً - وهذا مما يعزز الحجج التي تساق لبيان صلة القربى بين
المدرستين الشعريتين - أن يبدأ الشاعر أندلسياً كان أو بروفنسياً في
إنشاد قصيدته في المدح ، ثم يذكر اسمه في البيت الأخير منها ، وقد
كانت هذه سبيل سيركامون وماركابرى وابن قزمان في أغلب الأحيان .
والمدح عند هذا وعند ذاك تغذيه وواعث واحدة كربة الشاعر في
أن يظفر بإعجاب الناس على قدر مازق من موهبة ، ويقيه بخلود
شعره ، وإعلان كاله الفنى .

• • •

ونصل الآن إلى آخر مراحل هذه الدراسة وهي أكثر ما في
الموضوع صعوبة وأهمية ؛ تلك هي أنه إذا كان الشعر الفائق لا قدم
شعراء التروبادور قد استعار بالفعل من نظيره في الشعر الشعبي
الأندلسى ، كما ترجع ذلك صلة القرابة اللفظية في التاج الشعرى ،
والتماثل الكبير بين الأغراض المطروقة ، فكيف تفسر إذن هذا
الآخذ ؟ وكيف نستطيع أن تفسر بصفة خاصة أن هذا الآخذ لم يسلك
السبيل الطبيعى الذى كان مقدراً له أن يتبعه ولم يظهر ما يدل على وجوده
أولاً في إسبانيا المسيحية ، وعلى نفس الجانب من جبال البرانس ،

وكذلك في قرطبة أو الحواضر الأندلسية الأخرى ، وإنما على العكس من ذلك ازدهر هذا النوع من الزجل المكتوب بلغة رومانية ، إن صح هذا التعبير ، في جنوب فرنسا أولاً ؟

على أننا لا نعدم لحسن الحظ ما يمكن أن تفسر به هذه الظاهرة الغريبة ، فأقدم تروبادور من الفرنسيين — وهو جيوم التاسع دوق أكيانيا — لم يكن ، كما نعلم ، الشاعر الشعبي المتجول الذي يصور حياة غيره من الشعراء ، وهم صعاليك لا هم لهم إلا البحث عن يرغام ويفدق عليهم العطايا ، ثم هم على استعداد ، شأهم في ذلك شأن زملائهم من شعراء الأندلس ، أن يمدحوا الرجل الذي يعطيهم درهماً قليلة ، أو يهبهم ثوباً ، أو يقدم لهم طعاماً .

ولعل جيوم ، وهو أمير ينحدر من سلالة رفيعة ، ويحكم دولة شاسعة ، يعم فيها الثراء والرخاء ، يعد ، فيما نرى ، الشاعر المستول عن أول ما كان من استعارة الصور والأغراض من الشعر الفنائى الأندلسى . وأكاد أقطع ، على ما قد يبدو في ذلك من غرابة ، أن جيوم التاسع كان يعرف العربية ، فمن آثاره الضئيلة التى بقيت له ، وهى لا تعدو بضع قصائد ، قصيدته الخامسة التى يحكى فيها بأسلوب لاذع ، أنه لقي أثناء رحلته في مقاطعة أوفرني سيدتين هما آنييس وإرمسن ، وبعد أن حبه كلتاها في أدب جم توجهت إحداهما إليه بالخطاب « فى لايتيه » فقالت : « رعاك الله من مولى وحاج

- إنك فيها بخيل إلى قادم من مكان كريم - ولكن ما أكثر من نرام
يمشون في هذا العالم من الحق ، . ثم قال الشاعر : « وهذا جوابي
- لم أتكلم عن السلاح ولا عن السنان - وإنما قلت لها... » .

ثم بلى ذلك أربعة آيات لم يجد فيها العلماء حتى اليوم إلا
« تخطيطاً » ، ولما سمعت إحدى هاتين الثرثارتين تلك الرطانة التي
استعصى عليهما فهمها ، مالت إحداهما على الأخرى وقالت : « لقد
اهتدينا إلى ضالتنا - بالله عليك يا اختاه ، انضيفنه - فهو أبكم -
وحالنا لن ينكشف له قط ، . ويمكن أن يقبأ المرء بباقي القصيدة ،
وهي من جنس شعر ابن قزمان أو فرانسوا فيون .

ولقد أهمني هذا التخطيط وقتاً طويلاً إلى أن كان يوم تبين لي فيه
وأنا أقابل بين القراءات المختلفة لمخطوطات جيوم التاسع ، وأضع
مكان السقط الفاظاً أخرى ، دون أن أغير منها حرفاً واحداً ، أن
هناك أربعة أجزاء من بيت في لغة أندلسية يكاد يمكن فهمها ، لكن
ترجمتها عسيرة ، وفيها يعلن الشاعر إلى محدثه كيف يستطيع أن يصمد
لرغوتها وطيشها .

ونستطيع أن ندرك في هذا الاكتشاف شيئاً لا يخلو من إثارة
التفكير ، ذلك أن جيوم التاسع لم يكن مجهل شيئاً يتعلق ببلاد الإسلام
سواء في المشرق أم في المغرب ، فنحن نعلم بنوع خاص أنه اشترك
عام ١١٠١ - ١١٠٢ م في حملة صليبية بالشرق ، وأقام في الشام حقبة
من الزمن ، فهل ألف هناك العربية وتعلم شيئاً منها ، وهل سمع بعض

الازجال الأندلسية التي قدر لها منذ ظهورها ، وهذا مما لاشك فيه ،
الانتشار العظيم في المشرق والمغرب على حد سواء ؟

ومما يغرى بهذا الرأي ما نعلمه من أن جيوم التاسع قد بلغ
أرجون ليساعد الملك ألفونس المحارب في معركة كتنة سنة ١١٢٠ .
ويجب أن ندخل في اعتبارنا ذلك التأثير الكبير لإسبانيا المسيحية
والإسلامية طوال العصور الوسطى على بقية أوروبا الغربية حتى ينهأ
لنا محاولة تفسير مشكلة التائل الشعري ، وهي مشكلة ما زلنا في سبيل
محدد مراميها الأساسية ، وليس من شك أن التروبادور النورمندی
الذي وضع ملحمة رولان كان على علم بالأندلس ، بحيث أن إحدى
شخصياته وهي براميموند زوجة الملك المسلم مرسيل ، تشهد حفل استقبال
السفارة الفرنجية وتشير على زوجها ، ولا يصورها الشاعر في صورة
الجمال الخنثى في أعماق الحريم . ولا غرابة في ذلك فقد ثبت أن المرأة
في إسبانيا الإسلامية كانت تتمتع بقدر من الحرية ، وكان لها في حياة
الأمرة والمجتمع دور أهم بكثير مما كان لبنات جنسها في بقية العالم
الإسلامي ، بل إن المرابطين في العصر الذي ازدهرت فيه الموشحات
والازجال ، قوّوا في إسبانيا ، الشعور باحترام المرأة ، ربة الدار ،
ولها القول الفصل في المناقشات العائلية ، وذلك طبقاً لما يقتضيه
المثل الأعلى البربري الذي ظل متملقاً بنظام اجتماعي أولى يقوم
على الأمومة .

ولا نشك في أن التروبادور ماركابري الذي ذكرناه آنفاً ، وبعد

من جيوم التاسع نموذجاً بين شعراء الامة الجنوبية ، قد رحل أيضا إلى إسبانيا . وقد عاش هذا الشاعر الصعلوك ، تلميذ سيركامون في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ومع قلة ما نعلمه عن حياته فإننا لا نشك في أنه قضى حياته يخلوف في بروقصة قبل أن يقرر اجتياز البرانس في سنة ١١٣٧ . ولعله ألف ، وهو في قشتالة ، قصيدته "Le chant du Lavoir" في الدعوة إلى الحرب الصليبية ، وطلب حماية الفونس السابع ، واشترك معه في حملة واحدة على الأقل ضد إسبانيا الإسلامية ، فهل أقام فيها زمناً ، وقف فيه على صناعة الرجل ؟ هذه تقديرات يصعب المضي فيها والتعلق بها .

لكن الذي لا شك فيه أنه منذ السنوات الأخيرة في القرن الحادى عشر ظهر تيار من العلاقات المباشرة والاتصالات الوثيقة بين إسبانيا المسيحية وفرنسا . ولما أخذت حركة الاسترداد الإسباني توتى أكلها وقت سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ في يد الفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، هوت إلى عاصمته الجديدة أفئدة كثير من الرهبان الفرنسيين ، وتزوج الفونس آنذاك الملكة كونستانس شقيقة جيوم التاسع وأرملة دوق بورجنى ، ومنذ ذلك الحين أخذ دير كلونى الشهير يد إسبانيا بعدد كبير من رجال الكنيسة ، ولم ينقطع تدفق البعث الدينية وقوافل التجار بين طليطلة وبورجنى عن طريق تولوز وبواتيه ، وكانت طليطلة إذ ذاك مدينة طابعها أندلسى بحت ؛ وفي علاقاتها الدائمة مع تولوز ودير كلونى في بورجنى وغيره من أديرة

المقاطعات الفرنسية الأخرى المفتاح الذى يهذى إلى سر ذلك الآخذ .
 ثم يتزوج جيوم التاسع إسبانية هى ابنة راميرو الراهب ملك
 أرغون ، ولا ينبغي أن نفسى أيضاً أنه منذ ذلك العهد البعيد ، كان الحج
 إلى سنتياجو دى كومبستيللا (شنت ياقب) يعدل فى شهرته الحج
 إلى روما ، وهناك اقى ابن جيوم التاسع حتفه فى حادث وقع له يوم
 الجمعة المقدس من سنة ١١٣٧ فى كنيسة جليقية الشهيرة ، وكان قد ذهب
 إليها حاجاً .

بقى أن نقول أيضاً كلمة عن حملة بربرشترا الصليبية ، وكان لها دوى
 عظيم فى بلاد المسيحية والإسلام على السواء ، وسبقت فى الأراضى
 الإسبانية أولى الحملات الصليبية إلى المشرق بوضع تسين ، فقد اجتاز
 جيش مؤلف من النورمندين والسادة الفرنسيين جبال البرانس
 سنة ١٠٦٤ وانتزع من المسلمين حصن بربرشترا على حدود مملكة
 أرغون ، وكان من رؤساء هذه الحملة دوق أكتانيا جيوم الثامن وهو
 بالذات والد التروبادور جيوم التاسع ، وعاد الجيش الفرنسى النورمندى
 من بربرشترا بعدد هائل من الأسرى يقدر بعشرات الألوف من النساء
 والرجال ، أرسل منهم على ما ذكر ابن حيان نحو من سبعة آلاف
 إلى القسطنطينية ، واستبقى رسول البابا نفسه ثم كان قد قاد الحملة ،
 ألفاً وخمسمائة أسير ، وفى العام التالى عز الإسلام برجوع هذه المدينة
 إلى حظيرته ، وتبادل كثير من الأسرى ، وتم فداؤهم ، ولكن يمكن

أن يقال إن عدداً كبيراً منهم بقى فى فرنسا ذاتها ، وكان لوجودهم هناك أثر فى الأوساط الاجتماعية التى ألقتهم فيها المقادير .

ويمكن أن يقال بوجه عام ، وهذا ختام البحث ، أن العلاقات التى أمكن أن تنشأ بين الشعر الشعبى الأندلسى وشعر قدامى التروبادور مستظل بسبب الافتقار إلى حجج قاطعة لعدد من السنين لا ندرىها ، مبنية على الفرض ، ولكنه فرض يقوى يوماً بعد يوم . هذه العلاقات ليست إلا مظهراً من المظاهر الغربية الشبقة للدلالة على ما كان للثقافة الأندلسية من أثر عميق لا ينكر فى حياة العالم المسيحى الغربى منذ القرن العاشر . ومن المسلم به اليوم ، إذا استثنينا العلاقات الثقافية البحتة ، أن إسبانيا الإسلامية ، كانت تعتبر بالنسبة لبلاد البحر المتوسط الأوربية مركز الحضارة المترفه والحياة المتمدية الناعمة ، وأشبه شئ بمعهد لآداب السلوك والذوق الحسن . ولا ننسى أن كثيراً من قطع النسيج الثمينة ، والحلى والتحف التى كانت تزدان بها المقاصير الدينية أو تملأ علب سيدات المجتمع الإقطاعى فى العصر الوسيط الأعلى ، إنما كان يأتى من الأندلس أو فارس أو العراق ، وحسبنا فى هذا الرجوع إلى وثائق المستعربين فى طليطلة وقد نشرها جنثايلث بلنسية ، أو الرجوع إلى المحفوظات المعاصرة للأمرسة الاشتورية الليونية إذا شئنا أن نقف على عصر أقدم من ذلك العصر ، فأغلب أسماء النسيج تظهر فى صورها العربية ، وبعضها ، وهو أغناها ، يوصف بأنه قرطى

أو شامى أو عراقى ، فلماذا إذن ينفر المجتمع الإقطاعى من أن يأخذ من الحضارة الأندلسية الإطار والأغراض التى أوحى إليه بمحاولاته الشعرية الأولى ، وهى أشبه شئ. بألف باء شعره الغنائى الذى كان حينئذ يتلعم به ؟ لماذا ينفر وقد أعارته هذه الحضارة طرق قص الشعر ، والثياب والعاج والحلى ، ولم تكن الخلافات السياسية والدينية التى كان من شأنها أن تفصل المسيحية عن الإسلام ، من القوه بحيث تقيم بين العالمين حاجزاً غليظاً لا يمكن قهره والتغلب عليه ^(١) ؟

(١) يمكن مقارنة ما ذكرناه آنفاً بقول الأستاذ هنرى بيريس عنوانه : الشعر العربى الأندلسى وعلاقاته الممكنة بشعر العروبادور .

La Poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des Troubadours.

وهو مستخرج من كتاب الإسلام والغرب L'Islam et l'Occident فى سلسلة Cahiers du Sud ، سنة ١٩٤٧ صفحات ١٠٧ - ١٣٠

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول : تأسيس مدينة فاس	١
الفصل الثاني : ملاحظات عن أسماء المواقع الإسبانية المغربية ٥١	٥١
الفصل الثالث : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن التاسع الميلادي	٩١
الفصل الرابع : ألفونس السادس والاستيلاء على طليطلة	١١٩
الفصل الخامس : زائدة المسلمة زوجة ألفونس السادس سنة ١٠٨٥ م	١٥١
الفصل السادس : السيد القمبيطور في التاريخ	١٦٥
الفصل السابع : استيلاء السيد على بلنسية	١٩٩
الفصل الثامن : خواطر عن دولة المرابطين في مطامع القرن الثاني عشر	٢٣٧
الفصل التاسع : مولد إمبراطورية ابن تومرت وعبد المؤمن دقيمه تومس ، و د سراج الموحدين ،	٢٥٥
الفصل العاشر : الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوربا في العصر الوسيط	٢٧٩

صدر من كتب العلوم الإنسانية في مجموعة الألف كتاب

(اجتماع اقتصاد . تربية . علم نفس . تاريخ وتراجم . جغرافيا)

(رحلات . دين . سياسة . فلسفة . قانون . معارف عامة)

- | | |
|-------------------------------------|---------------------------|
| ١ — حضارة الإسلام | تأليف جوستاف جرونيياوم |
| ٢ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة | د إميل برهيه |
| ٣ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم | د ريجنالد موريش |
| ٤ — سكتلنديارد | د سير هارولد سكوت |
| ٥ — فلسفة الخير | د لويس دكنسن |
| — حركات الشباب | د الصاغ الدكتور محمد فتحي |
| ٧ — بلاد ما بين النهرين | د ل . ديلا بورت |
| ٨ — بسمرك | د إميل لدفيج |
| ٩ — آثار حضارة الفراعنة | د الأستاذ محرم كمال |
| ١٠ — الحياة الناجحة | د أوستاس تشسر |
| ١١ — كيف تقرأ الجريدة | د إدجار ديل |
| ١٢ — الحياة اليومية في مصر القديمة | د ألن شورتر |
| ١٣ — الديانات في إفريقيا | د ه . ديشان |
| ١٤ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة | د أرنولد جزل |
| ١٥ — علم نفسك الاقتصاد | د إيفلين توماس |

- ١٦ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون
١٧ — نحو مجتمع أفضل د برتراند رسل
١٨ — الأحلام والجنس د فرويد
١٩ — تاريخ طابع البريد د يوجان فاييه
٢٠ — تاريخ الجيوش د جورج كاستلان
٢١ — مصر القديمة د جان فركوته
٢٢ — صحوة إفريقيا د بازيل دافيدس
٢٣ — الجريمة د جورج فيل
٢٤ — الحرب بين الماضي والحاضر د الأميرالاي محمد عبد الفتاح إبراهيم
٢٥ — الانقلاب الصناعي د ت. س. . اشن
٢٦ — الحضارة العربية د ي. . هيل
٢٧ — مدخل إلى علم الآثار د السير ليونارد وولى
٢٨ — الجغرافيا والسيادة العالمية د جيمس فيرجريف
٢٩ — الرحالة العرب د الدكتور نقولا زيادة
٣٠ — تاريخ العلم وصلته بالفلسفة د وتام تامبير
٣١ — طبقات المجتمع د أندريه جوسان
٣٢ — بذور الشر د إيفان هنتر
٣٣ — فجر الضمير د برستيد
٣٤ — قصة التجارة الدولية د فليس دين

- ٣٥ — السلام العالمى فى العصر الذرى تأليف اسكندرمارووبرتراند رسل
٣٦ — تاريخ الصحافة د اميل بوفان
٣٧ — الاستعمار فى الخليج الفارسى د الدكتور صلاح العقاد
٣٨ — علم الاجتماع د موريس جنزبرج
٣٩ — الصحافة فى العالم د ب. ديوانيه
٤٠ — النجاح د لورد يفربروك
٤١ — سبل الحرية د برتراند رسل
٤٢ — فجر الضمير د برسنيد
-